كتابى

الكتاب الشهرى
لتلخيص الكتب العالمية

حلمى مراد

ابتسامة .. من واحة (سيوه)

(لوحة فوتوغرافية للفنان "ولاندى" WLANDI)

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمي مراد

الكتاب السابع والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

رأيت وسمعت لك فى اسطنبول (من متحف « اياصوفيا »
الى أجنحة الحريم فى قصر السلاطين) : مشاهدات
وتعليقات للمحرر ٩
ليالى البلقان (كيرا كيرالينا) قصة طويلة لاديب رومانيا
المعاصر « بانايت استراتى » ٣٥
جنات بلادنا كما يراها الاجانب - ١ : واحة سيوه
(الجزيرة السعيدة التى تعيش فى بحر من الرمال ،
بين أحضان التاريخ)، للرحالة « ليلى بيلينيس » ٧٥
حياة تحتذى : البرت شفايتزر (الفيلسوف ، والطبيب
والفنان الذى هجر مدنية اوربا ليخدم فى ادغال
افريقيا) ، للكاتب المؤرخ « لويس اونترماير » ١٠٣
شواطى الحب الاسمارية (من قصص التاريخ ومآسيه) :
قصة حياة المراة التى وهبت قلبها وحياتها للرحالة
الانجليزى الذى عشق الشرق « ريتشارد برتون » ١٢١
معجزات المستقبل القريب ! : قصة الروائع التى يعدها
العلم لتيسير الحياة لك ، كما يتنبأ بها المهندسان
الانجليزيان « نورمان كارليل و « فرانك لاثام » ١٥٣
مهنة مسز وارين (ابنة متمردة) : المسرحية التى كادت
تعصف بمستقبل الاديب الايرلندى خالد الذكر
جورج برنارد شو ، (مع مقدمة عنها لمؤلفها) ١٧٩
الله يتجلى فى عصر العلم : الكتاب الذى يدلل فيه ثلاثون
عالما ، بالادلة العلمية ، على وجود الله . . ٢١٧
ظهر حديثا فى المكتبة العربية : استعراض شامل
لمجموعة كبيرة من أحدث الكتب التى صدرت باللغة
العربية فى القاهرة ودمشق وبيروت . . . ٢٣١

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها واحد وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

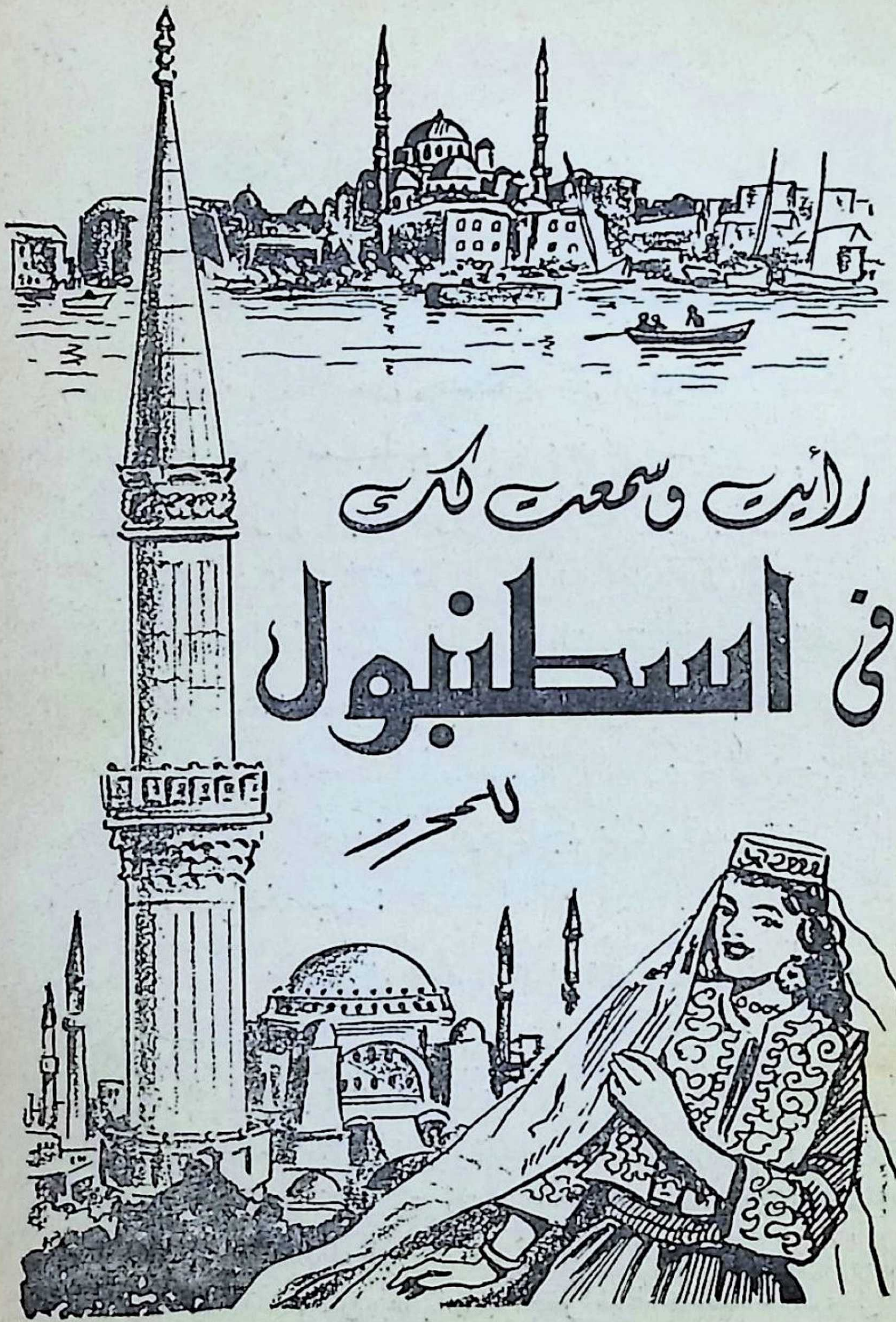
رأيت وسمعت لك
في اسطنبول
للمحرر

من متحف (أيا صـــــوفيا) ..
الى أجنحة الحريم فى قصور السلاطين

فى العددين الماضيين حدثتك عن زيارتى للمدينة ذات الماضى العريق (اسطنبول) ، وقمنا سويا بجولات فى المضيق الساحر (البوسفور) ، وفى غابة بلغراد وشاطىء البحر الاسود ، ثم انتهينا الى نزهة بعربة « الدوكار » فى جزيرة (بويوك آدا) ، اللؤلؤة التى تتألق من عقد (جزر الأمراء) فى جيد بحر مرمرة ..

واليوم نكمل جولتنا فى جزيرة الأحلام ، ثم نعود لنزور معالم اسطنبول التاريخية ، ومساجدها ، وقصورها ، واحدا واحدا .. بالتفصيل :

من افوق قمة ((التل الكبير)) !

تعال الآن نواصل جولتنا بالدوكار فى هذه الجزيرة الجميلة ، فى حدود الساعات القليلة الباقية من النهار ، (فمن العسير ان تلم فى نهار واحد بكل ما تروقك رؤيته من مفاتن جزيرة تبلغ مســاحتها ٤ر٥ كيلو مترات مربعة ، وطولها ٤ كيلو مترات ، ومتوسط عرضها ٤ر١ كيلومترا .) وترجع تسمية الجزيرة باسم (بويوك آدا) الى اعتبارات جغرافية حديثة ، فمعنى هذا

نادى اليخت ، على شاطىء الجزيرة الساحرة (بويوك آدا)

الاسم : « الجزيرة الكبيرة » . أما فى الماضى البعيد فكان الاغريق والاجانب يعرفونها باسم (برنكيبو) – ومعناها « جزيرة الامير » – نسبة الى الامبراطور الرومانى « جوستين الثانى » ، الذى كان له قصر فيها .

وفى الجزيرة فنادق فاخرة ، ومطاعم راقية ، وحوانيت للحلوى ، ومشارب للشاى .. ومئات من « البنسيونات »

والمساكن التى تؤجر مفروشة للمصطافين .. وأعلى بقعة فى الجزيرة - ويبلغ ارتفاعها ٢٠٢ مترا - هى قمة تل (يوشيتيبى) - ومعناه « التل الكبير » - ويعرفه الكثيرون باسم تل « سان جورج » ، (أى القديس جورج ، أو « مار جرجس ») ، نسبة الى الدير التاريخى المشهور المقام فوق قمته . وتقابل هذه القمة قمة تل آخر قريب ، يطلق عليه « ايزا تيبى » (أى تل المسيح) . ويفصل بين التلين وادى « اللسان » ، الذى يحمى شاطىء الاستحمام بالجزيرة من رياح الشمال الشديدة .

وأروع منظر للجزيرة هو الذى تراه من قمة دير (سان جورج) ، الذى يرجع تاريخ تشييده الى القرن السادس . وكان يتألف من عدة أبنية لم يبق منها اليوم غير ثلاثة ، تستخدم للعبادة - وقد كانت الى عهد قريب مصحات للامراض العقلية ! - وقد شيدت على ثلاثة مستويات مختلفة ، بحيث يعلو احدها الآخر . وفى سفح التل يوجد دير « القديس نيقولا » ، وهو حديث البناء نسبيا ، وقد استخدم فى عام ١٨٢٨ كمعتقل لاسرى الحرب من الجنود الروس .

أبشع جرائم الامومة .. فى تاريخ البشرية !

فاذا واصلنا جولتنا فى الجزيرة نحو الشرق ، ألفينا انفسنا فى منطقة (مادن) .. وهناك ، خلف بعض « الفيلات » الجميلة التى تشرف على الشاطىء ، نرى إطلالا ذات تاريخ حافل : انها بقايا دير (برنكيبو) المشهور ، الذى بناه الامبراطور « جوستين الثانى » فى عام ٥٦٩ . على ان التاريخ الحقيقى للدير يبدأ بعد ذلك بنحو قرنين ، حين جددته الامبراطورة « ايرين » - فى

نهاية القرن الثامن – واضافت اليه اجنحة جديدة ، تمهيدا للاقدام على جريمتها البشعة التى تقشعر لها الابدان : ففى عام ٧٩٧ فقأت « ايرين » عينى ابنها قسطنطين السادس ، فى وحشية يصعب تصورها ، كى تستأثر دونه بالسلطة .. ثم سجنت فى الدير المذكور ابنته – حفيدتها – « افروزين » !

لكن عدالة السماء لم تلبث ان اقتصت من الامبراطورة المتوحشة ، فلم تنقض خمس سنوات حتى قبض عليها خلفها الامبراطور « نكفوروس الاول » ، وأمر فلقيت على يد اعوانه ميتة لا تقل بشاعة عما فعلته هى بابنها ! .. وفى عام ٨٠٣ اعيد جثمانها الى دير (برنكيبو) ، لكن احدا لم يستدل على قبرها حتى الآن .

وتشاء الاقدار ان يكون للقصة ذيول ، ففى عام ٨٢٦ قتل « ميشيل الثانى » – الملقب بالمتلعثم ، ذى اللكنة – غريمه « ليو الخامس » ، المنحدر من اصل ارمنى .. ثم وقعت انظار الامبراطور القاتل « ميشيل » على الحفيدة السجينة « افروزين » ، فأحبها واخرجها من الدير ثم تزوج منها ، (بعد ان طلق زوجته « ثيكلا ») ! .. فلما خلفه على العرش ابن مطلقته ثيكلا – المدعو « ثيوفيلوس » – كان اول ما فعله أن اعاد « افروزين » التعسة الى الدير !

وفى يونية عام ٩٦٠ ، نهب الجنود الروس الدير وعاثوا فيه فسادا ، خلال حملتهم التى اغاروا فيها على جزر بحر مرمرة واعملوا فيها سلبا ونهبا .

وفى عام ١٠٤٢ تنازل الامبراطور ميشيل الرابع عن العرش ،

ميدان (بايزيد) ، والى اليسار بوابة جامعة اسطنبول التى اسسها السلطان عبد المجيد عام ٥٤٧١ و
وهى تحتل المبانى التى كانت مقرا لوزارة الحرب يوم كانت اسطنبول عاصمة الامبراطورية العثمانية .

فنفيت زوجته « زوى » (على يد ابنهـا بالتبنى « ميشيل الخامس ») الى جزيرة برنكيبو .. ولكن لم يمض زمن طويل حتى اعادها الشعب الى العرش وحاكم ابنها محاكمة عرفية .

ثم شهدت أرض الجزيرة أحداثا اخرى كثيرة وطأتها فيها اقدام أكثر من امبراطورة ، فى زيارات « غير سارة » ! ففى عام ١٠٧٠ اعتقلت فيها « آن دالاسينى » لبضعة أشهر .. وفى عام ١١٧٥ جاءت اليها الامبراطورة « ايرين » زوجة « الكسيس كومنينوس » – بمحض ارادتها – كى ترعى زوجها المريض فى أيامه الاخيرة .

وفى عام ١٢٠٤ اجتاح الصليبيون الجزيرة ونهبوا اديرتها ، ولو انهم احترموا قبر « ايرين » .. ثم تكررت الاغارة على (برنكيبو) بعد نحو قرن آخر – فى عام ١٣٠٢ – ولكن على يد قوات (فينيسيا) فى هذه المرة ، وكان الغزاة الجدد من الاستهتار بكل القيم بحيث نهبوا جميع الاديرة بغير استثناء ، بل وأسروا رهبانها وزاهبـاتها واعتبروهم رهائن لا يطلق سراحهم الا بعد دفع الفدية المطلوبة ! .. فاضطر الامبراطور الى انفاق محتويات خزينته للافراج عن رعاياه من الرهبـان والراهبات !

مقصد هواة الزهور ، وصيد السمك

وجزيرة (بويوك آدا) مشهورة بحدائق ازهارها التى يزدهر فيهـا الياسمين ، والميموزا ، والبوجنفيليا ، وعشرات – بل مئات – من انواع الزهور والاشجار التى تكسو التلال وتضفى

على الجزيرة مناظرها الخلابة . كما يجد هواة صيد السمك فى شواطئها مرتعا خصبا يمارسون فيه هوايتهم المفضلة .

.. واكتفى بهذا القدر من الحديث عن الجزيرة الساحرة ، كى نعود منها سويا لنبدأ زياراتنا لمعالم اسطنبول التاريخية ـ أو بالاحرى أهم هذه المعالم ، لان زيارتها جميعا تحتاج الى عام كامل ! ـ ونبدأ جولتنا بزيارة أشهر معالم المدينة :

ايا صوفيا : وهى الكنيسة التى صارت الى مسجد ، ثم الى متحف .. بعد ان ظلت بمثابة المركز الروحى للامبراطورية البيزنطية طيلة تسعة قرون ! .. شيدها فى الاصل الامبراطور قسطنطين (ومعنى اسمه : الحكمة الالهية !) فى عام ٣٤٧ ، فوق انقاض معبد وثنى .. ولكن لم تنقض على بنائها خمسون عاما حتى شب فيها حريق دمرها تدميرا كاملا . وفى القرن السادس أعاد تشييدها الامبراطور جستنيان ، فاستغرق بناؤها ١٦ عاما ، حشدت لها خلالها أيدى عشرة آلاف عامل ، ومائة مهندس .. واستخدم فى تزيينها ٤٥٢ قنطارا من الذهب ! .. ومن أجل تجميلها نهب الامبراطور عشرات من المعابد والآثار القديمة الاخرى ، ونقل اليها أجمل ما فيها من أعمدة وتحف !.. كما جلب لها الرخام الملون من أقاصى البلاد ، واشترى أثمن المعادن ، واوصى على صنع طوب من نوع مخصوص فى (قبرص) لاستخدامه فى بناء قبتها الهائلة ذات التصميم الفريد فى بابه ..

وفى ٢٧ ديسمبر من عام ٥٣٧ افتتح جوستنيان الكنيسة الرائعة ، صائحا فى لهجة انتصار : « فليتمجد الله الذى

صورة رائعة لمتحف (أيا صوفيا) من الداخل ، أو بالاحرى لقطاع صغير من قاعته الكبرى ذات القباب الشاهقة والهندسة البيزنطية الجميلة . وترى ثلاث من الدوائر الثمانى التى كتبت فيها اسماء : الله ، محمد ، ابو بكر ، عمر ، عثمان ، على ، حسن ، حسين .

وجدنى جديرا باتمام هذا الصرح . أى سليمان الحكيم : لقد تفوقت عليك ! » ــ (يقصد انه شيد معبدا أعظم من هيكل سليمان !)

ولكن الزلازل دمرت الكنيسة أكثر من مرة . وفى عام ٥٥٧ انهارت القبة فأعيد بناؤها بصورة أكثر متانة وصلابة . وظلت (ايا صوفيا) ، كما أسلفنا ، المركز الروحى للامبراطورية البيزنطية منذ ذلك التاريخ حتى غزا السلطان محمد الثانى المدينة فى عام ١٤٥٣ ، فحول الكنيسة الى مسجد ، كتبت على جدرانه من الداخل ، بخط ضخم داخل دوائر ثمان ، أسماء : الله ، محمد ، أبو بكر ، عمر ، عثمان ، على ، حسن ، حسين . وفى عام ١٩٣٥ أصدرت حكومة « اتاتورك » قرارا بتحويل المسجد الى متحف قومى يزوره السياح ، ولا تمارس فيه شعائر دينية . ولعل أول احساس ينتاب زائر المكان ، من فرط اتساع القاعة وارتفاع سقفها الشاهق ، هو الاحساس بضآلة الذات .. والاحساس الذى يليه هو الاعجاب بروعة التناسق و « الهارمونى » اللذين يسودان هندسة هذه التحفة من تحف المعمار التى تعتبر بحق ، اروع آيات الفن البيزنطى فى العالم بأسره ..

والآن ، تعال نغادر متحف (ايا صوفيا) الى مكان جد قريب منه . مكان يندر أن ترى له مثيلا فى اية مدينة اخرى .. انه :

يريباتان سراى (ومعناه : القصر الغريق) : وهومستودع مياه من العصر البيزنطى . وكنت قد حدثتك فى الفصل الماضى عن مستودعات المياه الاثرية التى شاهدتها فى غابة بلغراد القريبة من شاطىء البحر الاسود . اما هذه المستودعات فقد أنشئت فى عهد قسطنطين ، ثم أعيد انشاؤها فى عهد جوستنيان منذ

زورق يسير في باطن مستودعات مياه (ييريباتان) المشهورة باسطنبول .

اربعة عشرةِ قرنا ، وبها ٣٣٦ من الاعمدة التى مازالت سليمة تحتفظ برونقها وجدتها . وفى اسطنبول عدد من هذه المستودعات التى ترجع الى العصر البيزنطى ، لكن هذا من أكبرها وأشهرها ، وهو الوحيد الذى ما تزال به مياه حتى الآن ، وبه أضواء كهربائية ، ومن الممكن ان تستقل قاربا تدخل به الى داخل المستودع ، الذى يمتد تحت حى مأهول — هو الذى يمده بالمياه — ويبلغ طوله ١٣٠ مترا ، وعرضه ٦٠ . وبه أقواس تكون ٢٨ خليجا صغيرا ..

فاذا فرغنا من زيارة المكان ، فتعال نعرج منه على مكان آخر ينبغى ان لا تفوتك رؤيته :

البازار الكبير : او السوق الشرقية المسقوفة ، ويسمونها بالتركية « كابالى شارسى » ، وهى من معالم اسطنبول التى تنظم زيارتها لكل سائح تطأ قدماه المدينة . ويرجع تاريخ انشائها الى عام ١٤٦١ ، ولو ان الحرائق دمرتها أكثر من مرة — كان آخرها عام ١٩٥٤ — وأعيد بناؤها عقب كل حريق ، لتظل من معالم اسطنبول التى تجذب السائحين ولا سيما الغربيين منهم الذين يخلبهم طابعها الشرقى ، (كما يخلبهم « خان الخليلى » فى القاهرة مثلا) .

و « البازار » المذكور اشبه بمدينة صغيرة ، ذات ثمانية مداخل ، وبها شوارع ، ومفارق طرق ، وميادين ، وأحياء مختلفة ، تعج بالحوانيت الصغيرة والصناع والتجار الذين يعرضون آلاف الاشياء التقليدية والتذكارات التى يبحث عنها

ممر من ممرات (البازار الكبير) ،سوق اسطنبول الشرقية المشهورة التى لايفوت سـائح اجنبى فرصة زيارتها واقتناء بعض بضائعهـا التذكارية

زائر هذه المدينة التاريخية . ومن أشهر اقسام البازار : قسم الاسلحة ، وقسم التحف الاثرية ، والمصنوعات النحاسية .. الخ .

وهناك « بازار » آخر يلى هذا البازار الكبير فى الاهمية ، وهو « بازار مصر » (مصر جارشى) أو « بازار التوابل » كما يطلقون عليه ، ويقع بالقرب من قنطرة جالاتا المشهورة .. وهو متخلف من الاسواق القديمة التى كان يقيمها فى اسطنبول تجار (جنوا) و (فنيسيا) . وكانت تفوح منه روائح البخور الشرقية ، حتى جدد فى عام ١٩٤٤ واسبغ عليه طابع عصرى الى حد ما .

وفى أحد أطراف « بازار مصر » يقع مطعم « بانديلى » ذو الشهرة العالمية . وهو مطعم ذو طابع تركى محض – وان كان عصريا – وتصعد اليه سلما من داخل البازار ، فتجد امامك عشرات من الحجرات والردهات الصغيرة الضيقة قد غصت بمئات من الطاعمين ، بين أتراك وسائحين اجانب ، وقد تنوعت أمامهم الوان الطعام الشرقية والغربية ، وتناثرت بينها اقداح الزبيب الابيض بكثرة ملحوظة . حتى طراز الحجرات متباين بين الحجرة والاخرى ، فهذه حجرة جدرانها من « القيشانى » الازرق والابيض – وكأنها غرفة حمام ! – وهذه اخرى أوربية المظهر والتنسيق .. وثالثة عتيقة الطراز والاثاث .. الخ

فاذا انتهينا من تناول الطعام فى ضيافة « بانديلى » ، فتعال نقم بزيارة :

الجامع الازرق : او جامع السلطان أحمد . وهو مجاور

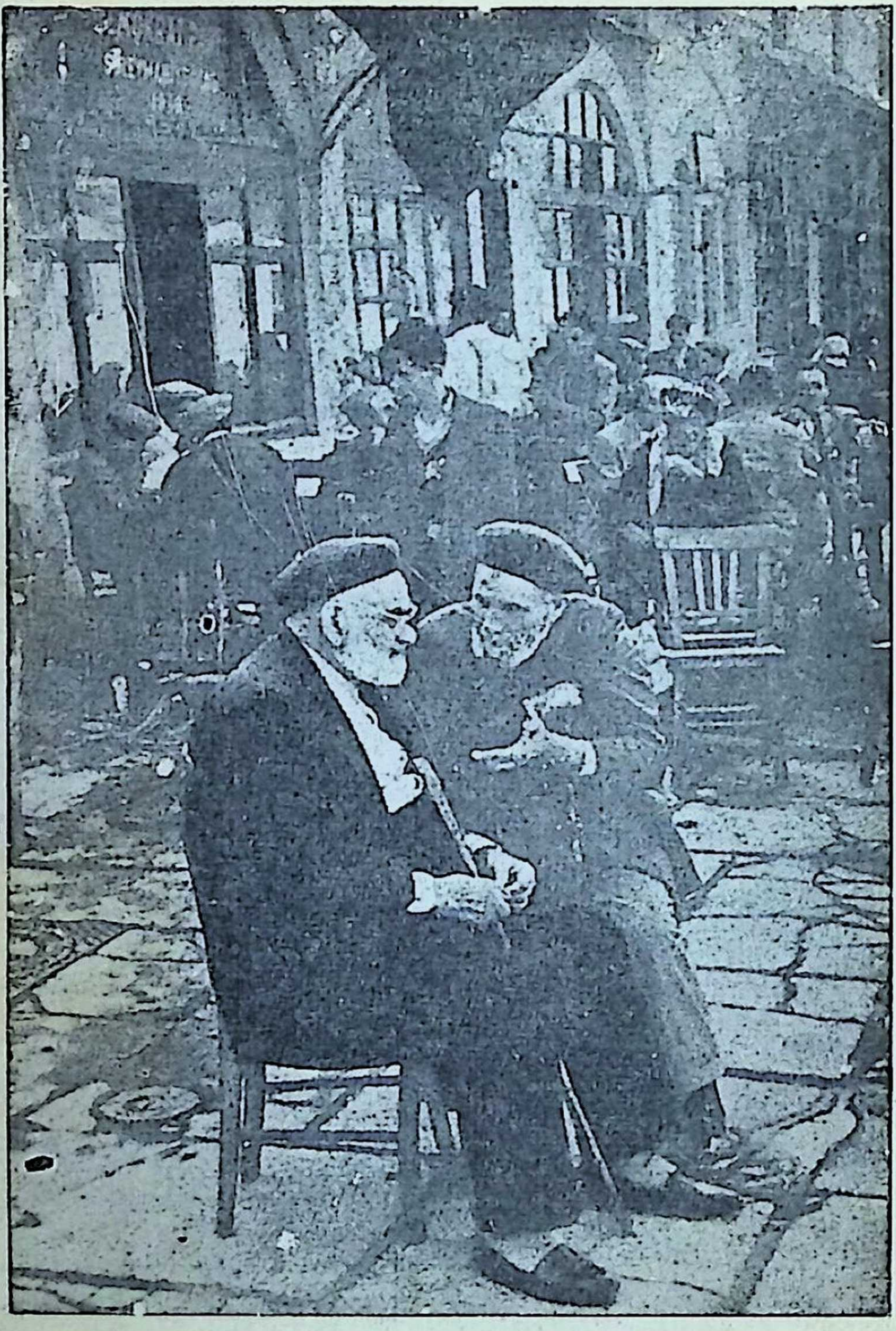

شيخان طاعنان فى السن يتناقشان فى السياسة على رصيف مقهى ..
وخلفهما مدخل دار الحزب الديمقراطى التركى .

لمتحف (ايا صوفيا) . وأول ما يتميز به انه المسجد الوحيد فى العالم ذو المنائر الست . وقد شيد بين عامى ١٦٠٩ و ١٦١٦ ، وشوهد السلطان أحمد يساعد بنفسه فى بنائه ، كى يستحث العمال ويحمسهم !.. والمسجد تحفة رائعة من تحف فن المعمار التركى ، وقد أطلق عليه وصف « الازرق » بسبب القرميد الازرق الجميل الذى يحليه من الداخل ، ويضفي عليه جوا من السلام والسكينة . ومساحة المسجد، بحدائقه وملحقاته، شاسعة كبيرة . وقبته الرئيسية شاهقة، يبلغ ارتفاعها ٤٣ مترا ، ومحيطها ٣١ مترا . وينفذ الضوء الى داخل المسجد من ٢٦٠ نافذة !.. وتغطى جدرانه الداخلية جميعا طبقة من الخزف رائعة الزخرفة .

ومن الاشياء التى ينفرد بها هذا المسجد ان به رواقا بنى بطريقة تصاعدية انسيابية بحيث كان السلاطين يدخلونه ويمضون فيه وهم فوق صهوات جيادهم حتى يبلغوا أماكنهم دون أن يترجلوا !

ميدان الملعب الرومانى : وفى مواجهة المسجد الازرق يقع ميدان الملعب الرومانى القديم (الهيبودروم) ، الذى أنشأه الامبراطور الرومانى « سبتيموس سيفيروس » ليكون حلبة لسباق العربات وغيره من ضروب الرياضة . وتتوسط الميدان الآن المسلة المصرية التى جلبها الامبراطور تيودوسيوس فى عام ٣٩٠ ، وعليها النقوش الفرعونية التى تتميز بها جميع المسلات المصرية . وفى نفس الميدان ترى « العمود الثعبانى » الذى احضر من مدينة (دلفى) باليونان ، حيث كان مقناما

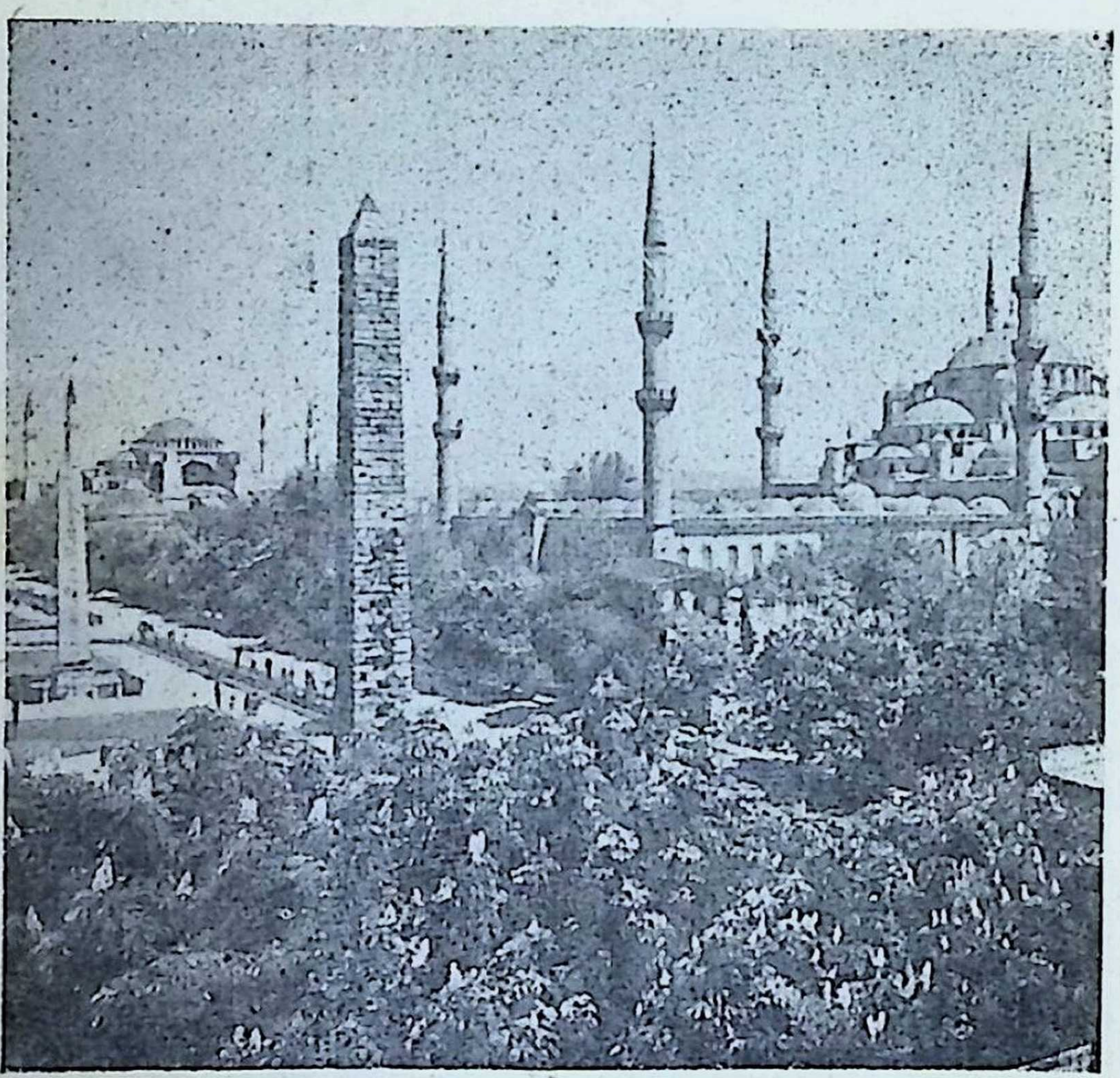

ميدان الملعب الرومانى القديم باسطنبول ، وترى فى اقصى اليسار المسلة المصرية ، وفى الوسط (مشروع مسلة) رومانية هزيلة ، وفى الخلف متحف (ايا صوفيا) والمسجد الأزرق .

لتخليد معركة (بلاتيا) التاريخية التى نشبت عام ٥٠٠ قبل الميلاد . وبالقرب من هذا العمود يوجد نصب أثرى آخر اقامه الامبراطور قسطنطين السابع فى القرن العاشر . كما ترى فى مكان آخر من الميدان الفسيح نافورة غليوم الثانى ، التى جلبت من المانيا عام ١٨٩٨ .

نافورة (غليوم الثانى) باسطنبول.. وهى كما ترى تحفة من تحف فن المعمار .

قصر سراجوغلو : وفى نفس المنطقة ، غير بعيد من (ايا صوفيا) ، يقع هذا القصر الذى كان مقر سلاطين آل عثمان القدامى ، ومنه حكموا الامبراطورية العثمانية لعدة قرون . ويطلق على القصر الآن « متحف توبكابى » ، وهو يتألف من عدة أجنحة وابنية مستقلة ، تضمها حديقة شاسعة . ومن ملحقاته المبنى المعروف باسم « كشك بغداد » ، وقد بناه السلطان مراد الرابع بمناسبة استيلائه على بغداد فى عام ١٦٣٨ .. وبجواره أجنحة « الحريم » التى شهدت أعجب احداث التاريخ العثمانى .. وبالقرب منها « حديقة السوسن » الرائعة ، المفروشة بأزهار « التيوليب » الجميلة..

وقبل أن أجوب بك ارجاء هذا القصر، وأحدثك عن الكنوز التى يحتويها – والتى تفوق كل خيال او تصور ! – أروى لك طرفا من قصة هذا « المعبد » من معابد الفن والتاريخ ، الذى يتركز فيه تراث تركيا الثقافى والفنى لنحو خمسة قرون !

يشرف القصر – سواء مباشرة أو عن بعد – على كل من البوسفور ، والقرن الذهبى ، وبحر مرمرة .. ويقع فى بقعة كانت يوما ما قلب بيزنطة القديمة ! .. وقد بناه السلطان محمد الثانى (الفاتح) فى القرن الخامس عشر ، وعاش فيه مع وزيره وحاشيته .. ثم خلفه سلاطين آخرون ، أضافوا اليه أجنحة بل قصورا جديدة ، وعاشوا فيها مع حريمهم وبلاطهم السلطانى ، فى ترف وبذخ يصلان الى مرتبة الاساطير .. حتى جاء أحدهم فبنى لنفسه قصرا جديدا على البوسفور مباشرة ، هو قصر (شيراجان) – الذى دمرته النيران عام

١٩١٠ . وحين انهارت السلطنة واعلنت الجمهورية ، حولت أجنحة القصر وأبنيته المختلفة الى متحف ضخم فاخر الرياش والطنافس ، عامر بالكنوز والتحف والتراث التاريخى للامجاد التى تقلب فيها سلاطين آل عثمان !

ولنبدأ الآن زيارتنا للقصر .. وأغرب مافى هذه الزيارة ان البرنامج التقليدى الذى وضعته لها السلطات التركية المختصة يبدأ بزيارة آخر جناح يخطر ببالك أن تبدأ منه زيارة قصر امبراطورى .. يبدأ بزيارة :

مطابخ القصر : ويالهـــا من مطابخ ! .. عشر « قاعات » فسيحة ، تفضى احداها الى الاخرى ، تجمع بين أدوات المطبخ والمائدة .. وتعبير « أدوات المائدة » هو مجرد تعبير رمزى متواضع ، يخفى وراءه تعبيرا أصدق واقرب الى الواقع ، هو « جناح الخزف والصينى » ، الذى يضم اندر مجموعة — فى العالم ! — من الاطبـــاق والاقداح والاوانى المطعمة بالذهب والاحجار الكريمة ، وهى مجموعات أهـــدى اباطرة الصين القدامى بعضها الى سلاطين تركيا ، والبعض الآخر اقتنـــاه هؤلاء السلاطين من مصادره الاصلية او أوصـوا على صنعه خصيصا ، طبقا لمواصفات خاصة ، واختاروا نقوشه والوانه حسب ذوق كل منهم ..

ومن أغرب هذه المواصفات التى يحدثك عنها دليل مصلحة السياحة — وأنا أرويها هنا على علاتها ، تاركا لرجال العلم والباحثين أن يفتونا فى مدى صحتها أو زيفها ! — ان الاطباق التى كان يقدم فيها الطعام للسلطان ذاته قد صنعت ممزوجة

بمادة كيميائية خاصة تجعل لون الطعام يتغير فى الطبق فورا اذا كان قد دس فيه أى نوع من السموم !.. وهو احتياط كان يقتضيه ولا شك طغيان أولئك السلاطين ، وحياة الغدر والتآمر التى كانت تسود بلاطهم !

ورغم اتساع القاعات التى خصصت لعرض تلك المجموعات وارتفاع سقوفها ارتفاعا كبيرا، فانك ترى كلا منها وقد ضاقت بالآلاف المؤلفة من هذه التحف ، فى كل ركن منها : على الجدران ، وفى « الفترينات » والدواليب التى ازدحمت بها كل قاعة .. واول مجموعة تصادفك لدى دخولك هى

رواق من اروقة قصر سلاطين تركيا القدامى ،المسمى (توبكابى سراى

مجموعة « الكوبالت » النادرة المهداة من اباطرة الصين فى عهد أسرتى « سونج » و «يوان» (بين عامى ٩٦٠ – ١٣٦٨) .. ثم المجموعات الخضراء ، والبيضاء، والخمراء ، والزرقاء، من طراز « مينج » .. والمجموعات الفارسية التى صنعت تقليدا لانتاج الصين .. وطبق هائل على شكل « تنين » .. وأطباق « مينج » مطعمة بالاحجار الكريمة ..

وفى القاعة الثالثة ، تحف، رائعة من القرن السادس عشر مهداة من اباطرة اسرة «كيبا» ، (بين عامى ١٥٢٢ – ١٥٦٦) .. واسرة « كانجهى »، (١٦٦٢ – ١٧٧٢) .. وفى القاعة الرابعة تحف من القرنين السادس عشر والسابع عشر فى عهد اباطرة أسرة «فانلى» (١٥٧٣ – ١٦١٩) ، وهى تحف يختلط فيها اللون الاحمر مع اللونين الازرق والاخضر .. وفى القاعة الخامسة مجموعات، من القرن الثامن عشر ، محلاة بأزهار اللوتس ، وألوانها هى الازرق والبنى والوردى والذهبى .. ثم مجموعات يابانية من الصينى ، والعاج ، والسن ، وقرون الخرتيت .. وأوان للزهر من « السكلوازنيسة » المطعم – وأعجب مافى هذه المجموعة « طبق »، معد لتأكل منه جماعة كبيرة ، قطره أكثر من متر ! – ثم معبد صينى من الذهب الخالص ، وآنية من المرمر الاخضر الثمين المسمى jade زنتها ١٢ كيلو جراما، ويرجع تاريخها الى القرن التاسع عشر ..

ثم ندخل القاعة التالية ، فاذا هى مخصصة للصينى الاوربى ، والكريستال ، من الانواع ذات الشهرة العالمية : فانسين ، ليموج ، سيفر .. وهذه مجموعة رائعة من الصينى

الفرنسى من عهد الملك لويس فيليب (١٨٣٤ ـ ١٨٤٨) ، من طراز « مدام دى بومبادور » الوردى الجميل .. واخرى باللون الاخضر من طراز « فونتنبلو » .. ثم مجموعة من الصينى الروسى من عهد القيصر « شارل نيقولا » (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) ، ومجموعة بولندية (١٧٧٤ ـ ١٧٨٩) .. ثم مجموعة ايطالية واخرى يونانية (مصنوعة فى « دلف ») من القرنين السابع عشر والثامن عشر .. وفى وسط القاعة عدد من الاطباق والاوانى الرائعة ، تحمل احداها صورة الملك شارل الثانى عشر (١٦٦٢ ـ ١٧١٨)

أما القاعة التى تليها ففيهامجموعات من باريس، وفنيسيا، وبرلين .. وهذا « طقم » من الصينى الالمانى المعروف باسم « مايسين » الذى اشتهرت بصنعه مدينة (درسدن) ، وهو محلى بالازهار والحواف المذهبة .. وآخر من بدائع مدينة فيينا ..

وهنا نصل الى قاعة « الفضة » ، التى تضيق بما تحوى من كنوز فضية ثمينة ، من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : اطقم واقداح للقهوة ، وشمعدانات خلابة ، واوعية اسطوانية مجوفة كانت تستعمل لارسال الرسائل السرية بداخلها ! .. ومرايا ، واوان المبخور ، ومصابيح ، واقفاص للعصافير ، وعلب للحلوى والروائح العطرية ، واباريق وأحواض من الذهب الخالص ! .. وعشرات الهدايا التى قدمت الى السلطان عبد الحميد الثانى فى العيد الفضى لارتقائه العرش .. ونافورة اهديت للسلطان احمد الثالث ..

ونماذج لمساجد وسفن ونموذج لميناء (سالونيك) أهدى الى السلطان محمد الخامس .. الخ .. الخ

ثم نصل أخيرا الى «جناح» المطبخ الحافل بالاوانى النحاسية والحلل والمغارف اللازمة لطهو الطعام ، ومنها اوان غاية فى الضخامة ـ حتى ليحتاج رفع الآنيـة منها الى جهود أربعة أشخاص ! ـ ثم نرى تمثالا لطباخ عسـكرى محمل بالخنجر ، ينتمى الى الاورطة الثانية والثلاثين .

وبمغادرة المطابخ تنتهى زيارتنا لهذا الجناح الضخم ، الذى لم نورد فيما سبق سوى مجرد « أمثلة » عابرة من محتوياته التى تفوق كل وصف ! .. فاذا عرجنا بعد ذلك الى اليمين أفضى بنا الرواق الى بوابة يطلق عليها (باب السـعادة) ، تقود الى الفناء الفسيح الذى كان يجتمع فيه ذوو الحيثيات من رعايا السلطان كى يمارسوا فريضة « تقبيل يده ! » .. وخلف هذا الفناء يوجد مبنى مستطيل ينقسم الى جناحين : جناح أيسر كان مخصصـا فى الماضى لاقامة الاغوات السود ، وجناح أيمن كان مخصصا للاغوات البيض ..

وبهذه المناسبة ، تعال نقم بزيارة قسم من اقسـام القصر كان على مدى العصور مركزا للاحداث ومثارا لفضول العالم بأسره .. انه :

جناح الحريم ! : حريم قصر سراجوغلو باسـطنبول ! .. ومن لم يحلم بهذا الجو المعبق بعطر اجمل غانيات الارض .. الجو الذى ازرى بحريم هارون الرشيد ، وبلاط سـلاطين بغداد ؟

وأى رؤى شبيهة بالخرافات أوحى بها ذلك الجو لكل من عاش وراء أستاره ؟ .. وأى رغبات أضرمها فى العروق والابدان ؟.. وأى صور راودت الاخيلة تمثل السلطان وهو يرفل فى الدمقس والحرير والاحجار الكريمة ، وفى جزابه خنجر مرصع بالفيروز ، وقد التمعت عيناه وهو ينقل بصره بين جواريه وغانياته .. اللواتى ازدانت بهن قاعة ، كل ما فيها يبرق ويزيغ الابصار ؟ !

وأى قصص كالاساطير ، وأى خيالات حالمة نبتت فى رؤوس الاجانب — رجالا ونساء — الباحثين عن الانفعالات العنيفة أو الاماكن المثيرة ! .. انهم الآن يستطيعون أن يقروا عينا ، ويطلقوا العنان لخيالاتهم الجامحة ، فى هذه القاعات التاريخية الرائعة التى عاش فيها سلاطين أقوياء سيطروا على رقعة ضخمة من العالم .. سلاطين أباة ، لطاف وقساة — فى آن معا ! — ارهبوا ورهبوا ، وأحبوا وابغضوا .. وأمسكوا ، بكلمة منهم ، برقاب الآلاف وعشرات الآلاف من البشر الخاضعين لنزواتهم !

و « الحريم » انما هو فى الواقع تعبير عن عقلية ، وصورة لامبراطورية .. ولا يسع المرء أمام هذه التفصيلات الدقيقة الباقية من تلك العقلية ، وتلك الامبراطورية ، الا أن يقف طويلا ليمعن النظر ، ويتأمل .. هذا المرمر البراق ، والخشب المشغول ، والمخمل الناعم ، والقرميد الاثرى .. وهذه السقوف ، واللوحات ، وعشرات الاشياء التى تبهر ، وتسحر ، وتفعم النفوس جميعا انفعالا ، كما نرى فى مخدع السلطان

اثنتان من حريم السلاطين ، هما من اليمين : (ايفمنيا) زوجة السلطان محمد الرابع ، و (روكسيلانا) ، محظية احد السلاطين .

مراد الثالث ، والسلطان محمد الرابع .. انهما متحف رائع قائم بذاته من بدائع الفن العثمانى فى القرن السادس عشر !

والواقع ان كل سلطان من السلاطين قد ترك اثرا او بنى شيئا فى هذه المتاهة من الممرات الضيقة ، والدهاليز المزركشة ، والحمامات الفاخرة .. لكن اكبر هذه الآثار واروعها هو الصالون الذى امر ببنائه السلطان سليمان القانونى ، ثم المخدع الذى اضافه السلطان مراد الثالث .. والمرجح ان تصميم المبنى كله ــ المخصص للحريم ــ كان من وضع المهندس التركى الاشهر « سنان » ، لكن هذا التصميم

الاصلى لم يبق منه الا القليل ، بعد التعديلات والتحسينات المتضاربة التى ادخلها السلاطين كل على حدة ، وبعد العوامل الاخرى التى تعاقبت على القصر بالتدمير ، من حرائق وزلازل .. الخ .. على أن أجمل نماذج هندسة المعمار فى القصر ماتزال هى التى ابدعتها عبقرية « سنان » نفسه ، الذى وضع فنه فى خدمة أربعة سلاطين متعاقبين ، هم : سليم الاول ، سليمان القانونى ، سليم الثانى ، مراد الثالث .

وأجنحة الحريم المفتوحة اليوم للجمهور ، تتألف من فناء كبير مرصوف ، يحيط به عدد من الحجرات التى كان يطلق

من اليمين : السلطان (سليمان الاول) ـ الملقب ب (القانونى)
ـ السلطان محمد الثانى (الفاتح) ، عن لوحة للرسام (بيلليني)

على كل منها اسم غانية من جوارى السلطان ، ثم حجرات الاستقبال ، وحجرات الاستراحة ، ومخادع النوم ، وغرف المائدة ، والحمامات .. وأخيرا حجرة للمكتبة أنشأها السلطان أحمد الاول .

والآن ، تعال نبدأ زيارتنا لاجنحة الحريم من بوابتها الخارجية .. وقبل ان نبلغها ، نمر بمسجد الاغوات الذى شيده السلطان محمد الفاتح ، وقد حول الآن الى مكتبة تحوى اثنى عشر الف مخطوط ، منها أحد عشر الفا باللغات التركية والعربية والفارسية ، وجدت فى مكتبات القصر البالغ عددها سبع عشرة مكتبة .. فاذا جاوزنا المسجد رأينا الى اليمين « بوابة العصفور » ، والى اليسار مطابخ القصر .. ثم نسير نحو عشرة أمتار فى رواق مغتم ، فاذا نحن أمام البوابة الرئيسية البرونزية لجناح الحريم !

وعند هذا الحد أقطع — مضطرا — حديثى اليك الآن، كى أواصل جولتى معك فى أجنحة الحريم بقصور اسطنبول ، فى العدد القادم باذن الله .. **ثم أقص عليك أغرب الصور الواقعية للحياة فى « دنيا الحريم » ، كما روتها أميرة من اميرات آل عثمان لمست تلك الحياة عن كثب ! .. وهو حديث طلى ، مزود بالصور النادرة .. فالى العدد القادم .**

نتيجة مسابقة (مطبوعات كتابى)

تلقينا ردودا كثيرة على المسابقة المنشورة فى الصفحة الاخيرة من العدد الماضى بشأن اسم قصة « مرتفعات ويذرنج » ، وسننشر النتيجة فى العدد القادم

ليالى البلقان

(كيرا كيرالينا)

قصة طويلة من الأدب البلقانى
لأديب رومانيا المعاصر "باناييت إستراتى"

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

« الف ليلة وليلة » •• من البلقان !

• فى أوائل يناير سنة ١٩٢١ ، تلقى الكاتب الفرنسى المعروف « رومان رولان » طردا من مستشفى (نيس) ، أوصى بارساله اليه رجل منتحر ، أشرف على الموت • وما ان قرأ « رولان » الأوراق التى ضمها الطرد ، حتى تبين ـ وهو مبهور ـ انها « اعترافات (جوركى) جديد ، ولكنه من البلقان » • وحين استطاع الطب انقاذ الرجل ، اتخذه « رولان » صديقا ، فوجد انه « قصصى بالفطرة ، وقصصى من الشرق ، يسحرك منه انه اذا بدأ القصة فلن يقدر لأحد ـ ولا له هو ـ أن يعرف ما اذا كانت ستستغرق ساعة ، أو تستغرق ألف ليلة •• وليلة » !

وهذا خير تعريف بالكاتب البلقانى « بانابيت استراتى » ، الذى ولد فى مدينة (برايلا) برومانيا ـ فى سنة ١٨٨٤ ـ لأب كان من كبار المهربين اليونانيين ، وأم كانت رومانية فاتنة • وقد نزعت نفسه ـ مذ كان فى الثانية عشرة من عمره ـ الى أن يهيم فى الأرض ، سعيا وراء المعرفة والحب • فجرب الحياة ـ حلوها ومرها ـ وعاش فى مصر ، وسوريا ، وفلسطين ، ولبنان ، وتركيا ، واليونان ، وايطاليا ، ورومانيا •• وكثيرا ما كان ينزل البلد من هذه البلدان ، غريبا ، لا يملك مليما ، فيعيش مشردا ، ويخوض أغرب

المغامرات ، مما أكسبه مادة قصصية ثمينة انعكست على أحداث هذا الكتاب الذى نقدمه لك اليوم ، والذى ستري انه « ألف ليلة وليلة » من البلقان، ومن العصر الحديث..

ولكن الكتاب ينطوى على أكثر من مجرد « قصة » .. ينطوى على دراسة وتعريف بعادات الناس ، وأخلاقهم ، وتقاليدهم الشاذة ، فى كثير من البلاد التى تتنقل بينهما أحداث القصة : فى تركيا ، ورومانيا ، واليونان ، ولبنان ، وبعض مناطق الاقليم السورى .. بل ان القصة تنقلنا فى أحد فصولها الى .. (درب البرابرة) بالقاهرة نفسها !

ستاورو

• **اجتاز** « ادريان » الساحة الصغيرة التى تفصل بين كنيسة « المير دى ديو » والحديقة العامة فى مدينة (برايلا) برومانيا ، وهو يحدث نفسه فى حنق : « اننى لم أعد طفلا ، وأعتقد ان من حقى ان افهم الحياة بالشكل الذى اراه ! » .. وكانت الساعة السادسة مساء ، واليوم من ايام العمل ، فالحديقة شبه خالية من الناس..ولم يحفل بأريج الزهور، ولا بالشذى العالق بالجو ، فقد استغرق يفكر فى معارضة امه لاختياره أصدقاءه : « ان ميخائيل فى نظرها « اجنبى » غريب تحوطه الشبهات ، و « خادم » يعمل لدى « كير نيكولاس » صانع الحلوى .. ومن اكون انا ؟ .. مجرد نقاش معمارى ، وقد كنت من قبل « خادما » عند صانع الحلوى

نفسه ! .. يا للصواعق ! اننى لأحب « ميخائيل » لأنه أكثر منى ذكاء وعلما ، ولانه يحتمل الشقاء دون أن يشكو ! »

وشق سكون تلك الأمسية الهادئة من أمسيات الربيع ، صفير باخرة ترسو فى الميناء ، فأخذ « ادريان » يتأمل اضواءها الكهربائية ، ثم هتف : « رباه ! لكم اتمنى أن أجد نفسى على سطح احدى هذه البواخر التى تنساب فى البحار، عسى ان اعثر على عوالم أخرى ! » .. وعاود السير وهو مستغرق فى هذا الخيال ، الى ان انتبه الى صوت يناديه ، فالتفت خلفه ، واذا رجل يجلس على أحد مقاعد الحديقة ، وقد عقد ساقيه تحته - على عادة اهل الشرق - وراح يدخن . واقترب « ادريان » من الرجل فى شىء من الانكار والعجب، ثم انبعثت منه صيحة سرور، وهتف : «ستاورو!»

كان « ستاورو » بائعا متجولا ، يتنقل بين الأسواق، وقد اشتهر بشراب الليمون الذى كان يبيعه .. وكان من ابناء عمومة أم أدريان الابعدين ، ومن الشخصيات التى كانت معروفة فى المدينة ، الى ان المت به فضيحة منذ ثلاثين سنة، فانطلق يهيم على وجهه ، وعاش منذ ذلك الحين مشردا .. وما كان « ادريان » قد عرف قصته بتفصيلاتها ، وانما أوجزتها امه له ، لتضرب بها المثل لشخص اختار لنفسه حياة بغيضة .. كل ما أدركه الشاب من القصة هو أن « ستاورو » كان فى الخامسة والعشرين ، حين تزوج من فتاة غنية ، جميلة ، أولته حبها .. ولكنه لم يلبث - بعد عام - ان اخرج من البلدة مجللا بالخزى ، ممزق الفؤاد ، ملطخ

السمعة ، فراح يضرب فى الحياة على غير هدى ، ولم يعد يستقر فى مكان !

وبالرغم من كل ما بذلتـــه أم « ادريان » لتنفــره من « ستاورو » ، فان الشاب كان يحس بميل غريزى له . فقد التقى به ثلاث أو أربع مرات من قبل – فى عرض الطـريق دائما – اذ كان باب ام « ادريان » مغلقا فى وجه الرجل الذى كان جميع الناس يتحاشونه ، والذى بدا انه كان راغبا فى أن ينفر الناس منه ! .. فقد كان يحرص دائما على أن تكون ثيابه قذرة ممزقة – ولو كانت جديدة – وهيئته مشعثة . وكان يقابل من يعرفهم من النـــاس – فى عرض الطريق – بفيض من العبارات والحركات المضحكة .. وقد يدعو احدهم الى مقهى ، وبعد أن يشرب معــه نصف لتر من النبيـذ ، يستأذنه فى أن يخرج الى فناء المقهى « ليقضى حاجة » ، ثم لا يعود !.. وقد يلتقى بشخص فى الطريق فيسأله سيجارة . وبدافع من الكرم الشرقى ، يقدم اليه الشخص علبة التبغ ليلف لنفسه سيجارة ، فاذا ما قضى غايته ، تعمد أن يسقط العلبة على الأرض ، ثم ينحنى فيرفعها معتذرا ، ليسقطها من جديد .. ويعود الى الاعتذار ، ثم يترك الرجل واقفا يتأمل علبته المشوهة فى دهشة وحسرة !

* * *

ولقد اغتبط « ادريان » بلقاء « ستاورو » ، الذى بدا ميالا الى الصمت – فى ذلك اليوم – على غير عادته . وفطن « ستاورو » الى أن الشاب كان يتأمله فى فضول ، فقال له:

« لماذا تتأملنى هكذا ؟ .. اتريد ان تشترينى ؟ »

فقال الشاب : « ألا تذكر اننى شديد الفضول دائما الى ان اعرف من اين تأتى ، والى اين تذهب ، وكيف احوالك ؟»

ـ اما الى اين أذهب ، ومن اين اجىء ، فأمر لا يهمك فى شىء .. واما احوالى فلا بأس بها ، وان كنت الآن فى شىء من الضيق ، لأن « الغلمان المشردين الأمناء » أصبحوا نادرين فى هذه الايام !

ـ غلمان مشردون ، وامناء ؟ .. هذا مستحيل !

ـ أهكذا تظن ؟ .. ولكننى عرفت كثيرين فى الماضى ، وانا الآن بحاجة الى واحد منهم أصطحبه الى سوق (س) فى يوم الخميس المقبل .. فانت تعرف ان عادتى فى الأسواق ان استقر الى جوار شخص يصنع حلوى « لقمة القاضى » . فاذا ما أكل الفلاحون من هذه الحلوى، لا يلبثون أن يشعروا بالظمأ ، فيجدوا شراب الليمون لدى .. لأننى أحرص على ان القى خلسة بحفنة من الملح فى عجينة « لقمة القاضى » !.. ارايت اننى رجل شرير ؟ !

وكان قد اتفق مع « كير نيكولاس » ـ صانع الحلوى ـ على ان يوفد معه مساعده « ميخائيل » الى السوق . ولكنه ظل يومين يبحث عن « غـلام مشرد أمين » ! .. ولم يـدر « ادريان » اية قوة دفعته الى أن يعرض على « ستاورو » ان يرافقه ، فسرعان ما كان معه لدى « كير نيـكولاس » . وكاد الاتفاق ان يتم ، لولا ان تدخل « ميخائيل » مصرا على ان يستأذن « ادريان » أمه ، وابى ان يتزحزح عن رأيه .

ولـكم دهش « أدريان » حين الفى أمه توافق دون ان

تثير المعارضات التى ألفها منها ، بل انها قالت له ، وكأنها فى يأس من امره : « افعل ما شئت ، على ان لا تقسو فى تمزيق فؤادى ! » .. وهكذا لم يلبث « ادريان » ان وجد نفسه جالسا بين « ستاورو » و « ميخائيل » ، فى عربة حملت كل معدات « لقمة القاضى » و « شراب الليمون » ، وقد انطلق جوادها فى الطريق الخلوية ، لا يلوى على شىء !

* * *

وحوالى منتصف الليل ، دخلت العربة قرية استقبلتهم كلابها بالنباح .. واتجه الجواد – من تلقاء ذاته – صوب باب تبين « ادريان » – حين بلغوه – انه لخان صغير . وسرعان ما كان الجواد قد سرح من العربة ، وكان الركاب داخل الخان . وقال ستاورو لرفيقيه فى اقتضاب : « لنأكل جيدا ، ولا نضيع الوقت فى الكلام ، فسوف نستأنف الرحيل مع الفجر ! »

والكن « ادريان » لم يلبث ان استيقظ فى بهيم الليل على يد تتحسس وجهه ، ثم أعقبها سيل من القبلات الحارة ! .. واستعرض فى ذهنه الوضع الذى كان عليه حين نام .. كان « ستاورو » الى يمينه ، يليه « ميخائيل » .. اذن ، فقد كان « ستاورو » هو صاحب القبلات ! .. ونفض عن ذهنه النعاس وراح يفكر بسرعة ، وقد أيقن انه لم يكن فى حلم ! .. وفجأة ، قال : « ماذا تبغى ياستاورو ؟ » . وبدا لصوته رنين مضاعف فى الليل الساكن ، فهمس الرجل : « صه ! لا ترفع صوتك ! » . ولكن ميخائيل كان مستيقظا ، فأخذ

يتحدث الى « ستاورو » باللغة التركية .. وبدأ الحديث خافتا ، ثم أخذ يشتد ويعنف ، فراح « ستاورو » يعترضه فى خشونة . واستولى الخوف على « ادريان » ، لاسيما حين احس بأن ميخائيل قد اطبق على ستاورو ، وكاد يعتصر جسده اعتصارا ، فاستجمع جراته ، وقال : « تحدثا باللغة اليونانيــة ، فلست افقه ماتقولان ! .. لماذا فعلت ذلك يا ستاورو ؟ »

وواتاه صوت ستاورو منضحا بالدموع : « لأننى شرير .. الم أقل لك من قبل ؟ » . ولكن ميخائيل قال بهدوء : « ليس هذا شرا ، وانما هو « شذوذ » .. « انحراف » عن التوازن .. رذيلة ! » .. ولم يجب ستاورو بشىء ، ولكنه لف لنفسه سيجارة ، واشعلها ، فقال ميخائيل : « اعتذر لادريان ! » .. وصمت ستاورو طويلا .. وكانت الكلاب تمزق هدوء الليل بنباحها فى الخارج .. وبعد فترة طويلة ، قال ستاورو : « أجل ، لسوف أكيل الاعتــذارات لادريان ، ولكن .. فى اخلاص صادق ، وليس فى ذلة وصغار .. وبعد ان تسمعا قصتى اولا ! .. ان الذى سميته « انحرافا » و « شذوذا » و « رذيلة » — يا ميخائيل الطيب — يحدث فى كل مكان حولنا دون أن يثير أحدا ! .. لقد اندس فى العادات والعرف . وانى لواحد من ضحايا هذه الحياة المنحرفة ، فقد كانت حياتى كلها انحرافا وشذوذا ، ورذيلة .. لقد شببت وسط اعاصير المصائب ! .. واننى لأنتهز فرصة وجودنا فى الليل — فى مملكة الظلام والستر — لأدافع عن نفسى بما سأرويه لكما .. لا ، لست أحفل بالدفاع عن نفسى ، وانما

اريد أن القى عليكما – انا الرجل العديم الأخلاق – درسا فى الأخلاق ، اترك لكما تبينه ، على ضوء مناسبة من مناسبات حياتى ، سأرويها لكما .. مناسبة زواجى !

« ولكن .. لأرو لكما قصة حياتى من البداية :

كيرا كيرالينا

« لم اعد اذكر متى ، ولا فى اية سن كنت ، عند ماوقعت المأساة الأولى فى حياتى .. كل ما اذكره هو انهـا كانت فى أعقاب حرب القرم .

ومنذ نعومة اظافرى اذكر ان ابى كان فظا، يضرب امى دائما . ولم اكن اعرف لذلك سببا سوىأن أمى كثيرا ما كانت تغادر البيت ، حتى اذا عادت استقبلها أبى بالضرب .. ولا أدرى اكان يضربها لأنها خرجت ، او لأنها عادت ثانية ! .. ومما اذكره أيضا ، ان اخى الاكبر كان يرافق أبى دائما ، وكان ينشأ على القســوة مثله .. وان اختى « كيرا » – التى كانت تكبرنى بأربع سنوات – كانت متعلقة بأمى ، وكانت تبـكى من أجلها . وقد نشـأت بدورى متعلقا بأمى ، مشـغوفا باختى ، لا افارقهما .

« وشيئا فشيئا تنقشع الحجب عن وعيى ، فقد بدأت ادرك كلما تقـدمت بى الاعوام . وما اعجب ما ادركت حين كنت بين الثامنة والتاسعة من عمرى ! .. كانت اختى – اذ ذاك – بين الثانية عشرة والثالثة عشرة ، جميلة الى درجة اننى كنت أحب أن اقضى ايامى كلها الى جوارها ، ولم تكن

امى تقل عنها جمالا .. وكانتا تقضيان اليوم فى التزين ، واستخدام المساحيق والخضاب والكحل لابراز مفاتنهما ، ثم تشتركان فى تزيينى أنا الآخر ، ونروح ثلاثتنا نرقص الرقصات التركية واليونانية ، ونتبادل العناق والقبلات.. وفى تلك الأثناء ، اضطر ابى واخى الى أن لا يعودا الى البيت كل مساء ، اذ كانا من أمهر صناع العجلات فى المنطقة ، وكان مصنعهما فى أحد طرفى المدينة ، بينما كانت دارنا فى الطرف الآخر ، فكانا يؤثران البقاء مع عمالهما فى دار لوالدى لصق المصنع .. ولم نكن نذهب اليهما البتة ، بل كنا نقنع بالبقاء بعيدين عنهما ، فى طرب ولهو !

« ما كان أحلاها من حياة ، اللهم الا فى الأيام التى كان الأب والابن يفاجئاننا فيها ونحن فى غمرة الطرب فيضربان الأم ، وينهالان باللكمات على الابنة وعلى ، وهما يسبان كلا من الأم والابنة بالتركية : «ياباتشاورا !» — اى ياعاهرة — وينعتاننى بأننى « بيتشوك بزيفنج ! » ، أى الفاجر الصغير ! .. وكانت الأم تصرخ مناشدة اياهما ان يتجنبا ضربنا على وجوهنا ! .. آه ! لقد كان الوجه والعينان مستودع جمال المراتين ، وقد كان جمالا لم أر له حتى اليوم مثيلا ، اذ كانت امى تنحدر من اصل اختلطت فيه الدماء التركية والروسية واليونانية ، وهى العناصر الثلاثة التى تعاقبت على حكم رومانيا !

« كانت أمى تحتفظ بجمالها وامتشاق قوامها ، برغم أنها انجبت ثلاثة ابناء .. وبينما كان ابى يضربها حتى يسيل دمها ، فان عشاقها كانوا يعبدونها . ولست أدرى ما اذا

كانت أمى هى التى بدأت بخيانة ابى فأخذ يضربها ، أو ان ضربه اياها وقسوته عليها هما اللذان دفعاها الى الخيانة .. ومهما يكن الأمر ، فان الصخب لم يكن يغيب عنا ، وكانت صرخات الألم تتعاقب دائما مع صيحات الطرب !

« وكنت أجلس فى نافذة ارقب الطريق – لأنبه القوم اذا اقبل ابى – بينما كان العشاق يجلسون على الابسطة ، على الطريقة التركية ، يغنون ويعزفون على الآلات الموسيقية ، ويملأون أبصارهم بأمى واختى وهما تؤديان أبدع الرقصات الشرقية ، حتى رقصة البطن ، فى ابداع كان يعبث برؤوس الضيوف – أو « المسافرين » كما كنا نسميهم بالاسم التركى – ويدور الشراب ، ويعبق جو المكان بعبير البخور الشذى .. وكانت رقابتى للطريق تلذ لى ، اذ كنت اكره ابى واخى اللذين كانا يسفان فى ضربنا . بيد ان صراعا عنيفا كان يدور فى صدرى بين شعورى بأن هذه المهمة واجب ، وشعورى بالغيرة الضارية . فقد كنت أحب أختى « كيرا » حبا لا وصف له ، وكان مرأى هؤلاء الأغراب – ومعظمهم من الأتراك واليونانيين – وهم يرتمون على قدميها، ويتحسسون ساقيها ، ويغرقونها بقبلاتهم ، يثيرنى الى أبعد حد !

« وكان حبى لها يزداد وهى تدرج مع السنين ، وحسنها يكتمل ، اذ كان جسدها يسبق عمرها نموا ، فكانت غيرتى تزداد ضراوة .. ولكنها كانت تعوضنى عن عذابى بما كانت تولينى اياه من عناق ، وما كانت تغرقنى به من قبلات ، عند ما تخلو الدار لثلاثتنا !

* * *

« **وهكذا** سارت بنا الحيـاة ، حتى أصبحت « كيرا » فى الخامسة عشرة ، وأنا فى الحادية عشرة .. وكنت أتبعهـا كالكلب ، لا اطيق بعدها ، واحتضنها فى وجد فتصدنى عنها فى وهن وحنان ، وهى مطمئنة الى براءتى ، والى انه لا خطر عليها من عناقى . والحق اننى لم أكن أعرف لى غاية ولا نية من وراء ذلك ، وانما كنت انتشى بالقرب منها .

« وازداد غيـاب أبى وأخى عن البيت .. وازدادت قسوتهما فى ضربنا حين كانا يفدان لمباغتتنا ، فازداد امعاننا فى اللهو . وكانت أمى – اذا ما بارح أبى وأخى الدار – تكف عن البكاء ، وتتحسس أوجاعها ، وتعالج كدماتها ، ثم تنفجر ضاحكة ، فنضحك معها ! .. ولم أعرف أن طعامنا اعد يوما فى البيت ، بل كان يأتينا من مطعم مجاور ، كانت أمى تدفع له اشتراكا . ولهذا لم يكن لها ولكيرا من هم فى البيت سوى التوفر على التجمل والتزين .. وكانت أمى لا تفتأ تقـول لكيرا ولى : « اغترفا من السعادة ما استطعتما ، فلن يلبث الموت ان يجىء .. ولأنه آت لا محالة ، يجب الاستمتـاع بالحيـاة . فسيرا على هواكما حتى لا تتحسرا اذا حان اجلكما ! »

« هكذا كانت فلسفتها فى الحياة ، ومع ذلك فانها كانت تؤمن بالله .. كانت ترى أن الله كتب عليها أن تكون كذلك ، وأن الله لا يرتضى الشر ، ومن ثم فان نهجها فى الحياة ليس شرا ! .. ثم انها كانت تفوق أبى – فى الشراء —— بمراحل ،

فكانت تشعر بارتياح لأنها لا تكبده شيئا من أجل لهوها . وكانت تودع ثروتها لدى أخوين لها - يعملان فى التهريب — فكانا يستثمران المال ويأتيانها بايراد ضخم . وقد اوصتهما بأن يحرصا على تلك الثروة لتكون لكيرا ولى - دون اخينا المتعلق بأبيه - اذا أصابها سوء يوما .

« وفى ذات مساء، كان البيت يغص بعشرة من «المسافرين»، بينهم ثلاثة من الموسيقيين اليونانيين المشهورين . ودار الشراب ، واشتد الصخب ، وراحت أمى واختى ترقصان فى ابداع عجيب .. ولم تبد أمى سعيدة يوما كما بدت فى ذلك اليوم . وكانت قد أحكمت ايصاد الباب الخارجي ، فلم يكن بوسع احد ان يفاجئنا . وعندما اشتدت سورة الطرب ، رحت انا الآخر أرقص مع امى واختى ، منتشيا بصيحات الاعجاب .. حتى انتبهنا الى أن أضواء الفجر زحفت على الكون ، فذهبت امى الى احدى النوافذ، وراحت تعب النسيم فى استمراء ، وكيرا وأنا الى جوارها . ثم التفتت الى المسافرين ، وقالت : « انتهت الحفلة يا أصدقائى، فانصرفوا لكى نأوى الى مخادعنا ! » ..

« وفى تلك اللحظة ، سمعنا جلبة ، فأدركنا ان أبى وأخى قد أقبلا ، وتسلقا السور وهبطا فى فناء الدار .. وسرعان ما تدافع الضيوف الى نافذة تطل على أرض مهجورة ، وتعلوها بمترين، فقفزوا منها تباعا . ولكن الوقت لم ينفسح أمام أمى لتخفى النرجيلات وآثار السهرة . فلما شاهدها أبى واخى ، تولى الأب امى ، وتولى الاخ « كيرا » ، وراحا يضربانهما ضربا مبرحا ، بلا رحمة ، حتى فقدت أمى وعيها .

وهرعت كيرا الى حجرتها وعادت تحمل خنجرا . ولكنا وقفنا جامدين مرتاعين ، اذ شاهدنا الأب يتناول حذاء نسويا ذا كعب خشبى ، وينهال به على وجه أمنا مشوها معالمه .

« وخرجت كيرا عن جمودها ، فهمت بأن تغيب الخنجر فى ظهره ، ولكنه لمحها فرفعها بين يديه ، والقى بها فى خزانة فى احد جدران الحجرة ، واحكم غلقها دونها . ثم حمل امى الى فناء الدار ، والقى بها فى سرداب هناك . وما ان سمعت الباب الحديدى للسرداب يغلق ، حتى جن جنونى ، وهجمت على أخى فشججت راسه . فأقبل ابى يضربنى فى قسوة وحشية ، ثم ضمد جرح أخى ، وساقنى الاثنان بينهما الى الدار التى كانا يقيمان بها فى الطرف الأقصى من المدينة ، حيث راحا يوسعاننى تعسفا وقسوة .

* * *

« وتحملت فى ذلك اليوم من الأذى ما لا يخطر ببال . ولكن ما ان حل المساء ، حتى شرعت أفكر فى الهرب .. ولن أطيل عليكما ، فقد فررت فعلا ، واسرعت الى دارنا ، حيث تسلقت السور . وكان الباب الداخلى مغلقا ، فكسرت زجاج احدى النوافذ ، وتمكنت من أن انفذ الى الحجرة التى كانت « كيرا » سجينة بها . ولا تسألا عن فرحتى حين سمعت صوتها أخيرا من وراء باب الخزانة ، فأخذت أعالج القفل حتى تداعى .. وخرجت « كيرا » شاحبة الوجه ، منتفخة العينين لفرط البكاء ، فارتمت على صدرى ، وهتفت : « وأمنا ؟! » .

وأسرعنا الى السرداب ، فاذا المسكينة ملقاة بين ركامات من المهملات والأوسـاخ ، تزكمها الروائح العفنة ، وترهبهـا الحشرات .

« واستطعنا أن نخرج بها الى سطح الأرض ، حتى اذا استردت شيئا من قواها ، ساعدناها على أن تنفذ الى داخل البيت ، حيث اخذت صندوقا كانت تحفظ فيه نقودها وحليها . وتزودنا ببعض الأطعمـة ، ثم انطلقنا فى اتجـاه (كازاسو) ، وسط حقول القمح الخضراء .. الى أن صادفنا جدارين عاليين ـ أقيما يوما كنوع من المتاريس اثناء قتـال ما ـ فجلسنا محتمين بهما . وقالت امى : « لقد احتملت كثيرا من اذى ابيكما ياولدى ، ولـكنى لا اطيق ان اعيش مشوهة الوجه ، فان عينى اليسرى ـ التى اخفيتها وراء الحجاب ـ قد خرجت من محجرها تقريبا .. والموت عندى ارحم من ان ابقى بها ، اذ ان الله خلقنى لمتع الجسد ، فلا حياة لى بدون ذلك ! .. ومن ثم فلا بد لى من أن أفارقكما لأعالج عينى ، فان وفقت فسـوف نلتقى ثانيـة ، وان لم استطع فلن تريانى بعد اليوم . اما أنت يا كيرا ، فاذا لم تستطيعى ان تعيشى حيـاة فاضـلة ، فلا بأس ، اذ أن الله يكون قد خلقك للمرح واللهو ، ولكن .. احتفظى دائما بقلب طيب ، يعرف الله . وكذلك الحال بالنسبة لك يا دراجومير (وهو الاسم الذى اعتادت أن تنادينى به) ، كن مثل امك واختك .. ولو قدر لك أن تكون لصا ، فكن لصا ذا قلب حى ، لأن المرء الذى لا قلب له ، ميت ، يحول دون الأحياء والحياة .. كأبيكما ! »

« وأمرتنا بعـــد ذلك بأن نبقى حيث كنا الى أن تجنـــح الشمس للمغيب ، فيوافينا رجلان على جوادين ، هما خالانا اللذان كانت تعتزم أن تذهب اليهما ، وتروى لهما قصتنا ، وتكل اليهما أمرنا ..

« وعانقتنا أمنـــا طويلا ، وراحت تقبلنـــا ، ثم انطلقت . فقبعنـــا حيث كنا ، لا نكف عن البـكاء لحظة .. وما لبثت الشمس ان جنحت للمغيب ، ولم يأت الخالان اللذان لم نكن قد رايناهما من قبل . وعندما أوشك اليـــأس ان يتملك قلبينا ، اذا بهما يصلان ، فارتمينا عنـــد أقدامهما ونحن نجهش بالبكاء . واذ طيبا خاطرينا ، دفعت كيرا الى اكبرهما بخنجر وقالت : « اننى لأطوى قلبى على أمل فى الانتقـام ، فهل لك أن تغيب هذا فى صدر أبى قبل ان تنقضى هـــذه الليـــلة ؟ .. وهل لأخيك أن يفعل المثل بأخى الأكبر ؟ .. اقسم لكما بأمنا اننى اغدو جارية لكما اذا حققتما امنيتى ! »

.. وبهت الرجلان ، ثم هتف اكبرهما : « انك لم تتحدثى الا عن بغية ننشدها ، ولكنك أذكيت اللهب ! »

« وتشاوروا بصوت خافت ، ثم حملانا الى المدينة ، ويمما بنا شطر دارنا ، التى كانت مظلمة موحشة . ولاحظنـــا ان زجاج النافذة ــ الذى كنت قد حطمته ــ قد أبدل بسواه . وأرهف خالانا السمع ، ثم قالا : « سنختبىء فى السرداب . فاصعدا الى الدار واوقدا اكبر عدد من الشموع ، واستلقيا على الأريكة التى فى غرفة الجلوس .. على الأريكة ، أفهمتما ؟ .. ولا تطفئا الشموع ، ولا تسدلا الستائر ! » .. وما ان خلوت واختى فى الحجرة ، حتى داخلنى الخوف ، ولـكن

عينى كيرا كانتا تومضان بحقد عنيف ، جنونى .. بشهوة للقتل !

« واخذ الوقت يمر ببطء .. وبعد منتصف الليل ، اقبل والدنا ، يتبعه أخونا الأكبر . وفى اللحظة التى اقتحما فيها الحجرة ، دوت رصاصتان ، فاذا بالأخ يهوى مضرجا بدمائه، بينما قفز الأب من النافذة ، فأفرغ الخالان خلفه أربع رصاصات ، قطعت احداها اذنه اليسرى . ولكنه نجا .. وأسرعا يطفئان الشموع،ثم قال اكبرهما: « لقد كتب على ـ كما دل الطالع ـ أن اموت قتيلا بيد ثالث عدو يفلت منى.. وابوكما هو الثالث . فاسمعا : سيأتى صاحب «اللوكاندة» المجاورة فيأخذكما لتأويا لديه ، فلا تعودا الى هذه الدار ابدا . وكلما شئتما أن تعرفا اخبارنا ، فاذكرا لصاحب الفندق اسمى : « كوزما » ، فينبئكما بما اذا كنت على قيد الحياة ! ».

* * *

« وقضينا أياما فى الفندق نهبا للحيرة والأحزان والمخاوف. واذ بدا أن ابانا لم يسع لشر جديد ، ولا عاد الى الدار ، سمح لنا صاحب الفندق بالخروج . وكأنما كنا سجينين استردا حريتهما ، فانطلقنا الى الخلاء.وأصبحنا نقضى نهارنا فى الحقول ، نمرح ونلعب . فاذا رجعنا فى المساء ، تذكرنا أمنا ووحدتنا وخوفنا من والدنا ، فنظل نبكى حتى يشفق علينا النعاس ! .. وفى الأيام التى كانت « كيرا » تمتنع فيها عن الخروج ، كنت أسعى الى ضفة النهر .. ولم تكن هناك ميناء ، ولا كان ثمة حاجز بين المرء والماء . وكنت أجد متعة

فى تأمل القوارب الراسية ، وفى ارســـال البصر الى السفن التركية والأرمنية والرومانية التى كانت تقف بعيدا ، عنـد ملتقى النهر بالبحر .. وكم كنت أتوق الى ركوب الماء والبعد عن العالم بأسره !

« وفى ذات يوم، طلبت الى أحد أصحاب القوارب ان يقلنى الى مقربة من سفينة كانت راسية على بعد ، لأتفرج عليهـا عن كثب . فلما عدنا الى البر ، وجدت شيخا تركيـا بادى الجمال والثراء ، اخذ يتأملنى طويلا ، ثم ســألنى عما اذا كنت تركيا مثله . واذ أنبأته بأننى رومانى ، راح يسألنى عن أهلى ونشأتى ، مبديا عطفا جعلنى آنس اليه . ثم نادى النوتى وأمره بأن يقلنى فى قاربه كلما شئت ، دون أن يتقاضى منى اجرا . وقبل ان ينصرف ، ذكر لى أن بوسـعى ان أصطحب اختى - اذا شاءت - وان نزور يخته ، الذى كان يرسو عند ملتقى النهر بالبحر ، كلما طاب لنا . وما دريت ان هذا الرجل هو الذى ساقه الدهر ليحطم حياتى ، اذ انه كان « نظيم افندى » ، الذى اعتـاد أن يتجر فى الجـوارى والعبيد !

« وكان لطفه كفيلا بأن يحملنى على أن اغرى « كيرا » بأن تصحبنى فى نزهة فى القارب . وبلغنا فى المرة الأولى يخت الرجل ، فتطلعنا اليه مبهورين بعظمته وفخامته ، مما حدا بنا - فى المرة التالية - الى ان نصعد الى سطحه .. اواه ! يا للقلب البشرى من مسكين يستخفه الطرب ، فيعمى عن

القــدر ! .. ان ما ابداه الشيخ التركى من عطف وحنـان وكرم ، جعلنا نتعلق به . وما ان نمى الينا ـ بعد أيام ـ ان خالنا الأكبر قد وقع فى كمين اعده له رجال من أعوان ابى فلقى حتفه ، وان أخاه قد لاذ بالفرار مجروحا ، حتى ضاقت فى وجهينا الدنيا ، وكرهنا رومانيا .

« ولاحظ التركى همنا ، فما زال بنا حتى افضينا اليـه بمأســاتنا ، والدموع تغمر وجـه «كيرا» الجميل ووجهى . واظهر من التأثر والرثاء ماجعلنا نركن اليه، ثم قال : «لاتنسيا انكما من أصل تركى ـ من ناحية أمكما ـ وانى لعلى استعداد لأن أصطحبكما الى (استانبول) ، فلست اشك فى أن امكما قد ذهبت الى هناك لتعالج عينها ! » .. واستهوانا اللقـاء الذى راح يمنينا به ، فلم نلبث أن انصعنا لاغرائه .

« ولسوف أروى لكما فى يوم آخر مالقيت من اهوال فُى سبيل البحث عن أختى التى قدر لها ان تكون حبيســة فى « حريم » أحد القصور ، بعد ان فرقت بيننا مكائد « نظيم افندى » .. وكيف استغل هذا الرجل البغيض سـذاجتى وضعفى ، واتخذنى خليلا .. وكيف هربت منه بعد عامين ، فقضيت اثنى عشر عاما أخـرى فى البحث عن « كيرا » ، حتى اذا يئست عدت الى روماتيا ، فاذا الخال الذى نجا من الموت قد أحرق دار ابى والأب القاسى فيهــا ! .. وهكذا اصبحت وحيدا فى الحياة ، معـدما ، ضـالا ، اتخبط بين الأحداث ! »

لقاء .. فى القاهرة !

• **انقضت** اربع سنوات مذ سمع أدريان قصة « كيرا » من « ستاورو » . ولم يقدر لأدريان ـ طيلة هذه الأثناء ـ ان يعثر على صديقه ، حتى حسب أنه قد مات . وما لبثت الاحداث ان نأت بأدريان عن الوطن . وفى ليلة راكدة الجو، مزهقة للانفاس ، جر ساقيه جرا الى (درب البرابرة) فى (القاهرة) ، حيث كان يقيم منذ شهر . وولج مطعما ومشربا لرومانى يهودى يدعى « جولدشتاين » ، ما كان « أدريان » ليطيق جوه لولا ما كان يجده فيه من كونياك « تزويكا » الرومانى . ولكى يتجنب الاختلاط برواد المطعم، سار الى نهاية المكان ـ حيث كانت بضع موائد قذرة ـ فجلس الى احداها ، واجال بصره فيما حوله .

وبينما كان يتناول طعامه بأصابعه ، وقعت عيناه على شخص منزو فى أحد الأركان ، فأمسك عن الأكل وقداستولت عليه الدهشة ، وهتف فى نفسه : « ما أشد شبه هذا الرجل بستاورو ! » .. ومع أن وجود ستاورو فى (مصر) كان بعيد الاحتمال ، الا ان الشاب أحس بدقات قلبه تتسارع فى عنف ، وراح يتفرس فى الرجل . ثم نهض من مكانه ، وسار اليه ، وبادره وعيناه لا تتحولان عنه : « أهذا أنت ؟ ! » . فتطلع اليه الآخر فى غير عجب، وقال : « أو ماكنت تعرف ؟» وكان لقاء بين الصديقين .. وان هى الا ساعة ، حتى كانا يجلسان أمام قدحين من النبيذ ومصباح يشعل بالبترول، فى الحجرة المتواضعة التى كان أدريان يسكنها . وما لبث

ستاورو ان قال : « اننى لأدرى أن سوء حالى وحده هو الذى يصد صديقى الطيب عن أن يسألنى بقية قصتى ، أو بالأحرى سيرة « دراجومير » فى صباه . ولكنى سأرويه لك، وان نكأت جراحا قديمة أليمة ! »

* * *

قال ستاورو : « كنت فى حوالى الخامسة عشرة من عمرى عندما هربت من « نظيم افندى » فى (استانبول) ، وقد أصبحت فتى جميلا ، ولكنى كنت ساذجا ، خجولا .. وكانت ثيابى وحدها تكفى فى قيمتها لشراء جواد عربى أصيل ، كما كنت أحمل ساعة ذهبية من صنع ساعاتى السلطان ، وقد احاطت بأصابعى خواتم ثمينة ، وعمرت جيوبى بحفنة كبيرة من الليرات التركية الذهبية . على اننى لم أكن فرحا بكل هذا ، فقد كان قلبى مثقلا بالهم ، هم فقدان أختى وأمى ، وهم الحال التى صرت اليها اذ أصبحت مدنس الجسد بالعار . والى جانب الهم ، كان ثمة وهم .. فقد خيل الى – فى سذاجتى وجهلى – اننى لن ألبث ان أجد الحبيبتين اللتين كانتا أغلى من فى الوجود ، بمجرد أن استرد حريتى !

« وكنت من السذاجة والجهل الى حد اننى لم أكن أعرف قيمة النقود ، ولا انواع العملة ، فاستغل بعض من صادفتهم هذا الجهل . أما الذين تورعوا عن ذلك ، فانما تورعوا اذ أوحى اليهم ملبسى بأن أبى أحد « البكوات » ، فخشوا ان ينالهم اذى من سطوته ! واذ هبط الظلام يوم فرارى ، رحت اتخبط على غير هدى، حتى وجدتنى فى طريق منعزل ،

فرحت اسند رأسى الى كل شجرة تصادفنى ، والدموع تنهمر من عينى المحتقنتين، وأنا أهتف : « ماما ! .. كيرا !.. اين انتما ، وقد امسى المساء ، ولست أدرى الى اين اذهب؟»

« وفجأة ، رأيت رجلين يجريان ، وقد حمل كل منهما مشعلا وراح يصيح طالبا افساح الطريق . ثم اقبلت خلفهما عربة مطهمة .. وقبل أن أفطن الى شيء ، هوى سوط الحوذى على رقبتى ، فانطرحت أرضا ، وقد غشينى ألم فظيع .. ثم فقدت الوعى .

« وعندما أفقت ، كان ثمة شيخ فقير يعنى بى ، فآوانى - فى تلك الليلة - فى كوخه . فلما أقبل الصباح ، سألنى ان افارقه الى غير عودة ، اذ ان الذهب والحلى التى كنت احملها ، والثياب التى كنت ارتديها ، كانت كفيلة بأن تجر عليه المتاعب والشبهات .. ولعله كان الرجل الأمين الأوحد الذى قدر لى أن أصادفه خلال فترة طويلة من الزمن !

« وسرت على غير هدى ، حتى وجدتنى عند مقهى أنيق، بدا على رواده أنهم من علية القوم . فخطر لى أن الأغنياء لن يطمعوا فى ذهبى ، ولن يترددوا فى مساعدتى . وتخيرت من القوم اثنين بدت عليهما الطيبة ومخايل النبل ، فاطمأنت نفسى اليهما ، وجلست الى جوارهما ، ثم سألت أحدهما : « معذرة يا سيدى، أين يعالجون ذوى العيون المصابة؟ » .. واذ تطلع الى الرجل فى دهشة ، قلت فى تهيب وتلعثم : «ان امى .. ابى قسا عليها فى رومانيا .. منذ عامين » . وكان أحدهما ضابطا ، فصاح فى صديقه ساخرا : « امرأة قسا عليها زوجها فى رومانيا منذ عامين .. وصاحبنا يبحث عنها

فى استانبول اليوم . هل فهمت شيئا يا مصطفى ! » . فقال الآخر ، وهو يداعب خدى : « أجل ، لندرس الأمر اولا ، ولنغادر المقهى ليتحرر الولد من اضطرابه » . وسرعان ما بارحنا المكان ،فامتنع الضابط عن ان يصعد الى العربة التى تقدمت لتقلنا ، مستهجنا من صديقه اهتمامه بى !. . فأقلعت العربة بالصديق وبى ، دونه !

« وما دريت اننى كنت على أعتاب عشرة شهور قضيتها فى أمانى معسولة ، وأوهام قاسية ، وحرية دونها السجن ، وكرم مدنس .. كرم علية القوم ومترفيهم !.. ومن الانصاف ان أقول ان « مصطفى بك » لم يؤت شيئا من خسة «نظيم»، فقد كان فاتنا ، مؤدبا . وقد أفرد لى غرفة فخمة فى قصره، وخصنى بخادم من عبيده ، وقال بعد ان استمع لقصتى : « ان نظيم لا يفرط فى فريساته بسهولة ، ولكنا سنعرف يوما اين أودع أختك ، وسنبحث عنها ! ». ثم امرنى بأن اخلع ثيابى وحليى ، وان أحتفظ بها فى غرفتى ، قائلا انها لا تليق بمن كان مثلى . واحضر لى ملابس أخرى ، لا تقل عنها فخامة، ولكنها خالية من البهرج .. لكم كان هذا الرجل صادقا فى حبه اياى ، ولكنه كان حبا بث فيه الشيطان انفاسه المسمومة !

« ولقد ادرك مدى حبى لأختى كيرا ، فلم ينقض على وجودى فى قصره شهر ، حتى اقبل يوما يقود فرسا صغيرة، بديعة ، أصيلة ، ولكنها كانت مدللة ، نافدة الصبر مثل « كيرا » ، وقال : « هاك أجمل كيرالينا أستطيع أن اقدمها لك . انها ملك لك ! » . وسرعان ما ألفتنى الفرس وألفتها ،

وأصبحت امتطيها كل يوم وانطلق بها ، يحف بى خادمى من جانب ، ومصطفى بك من جانب آخر ، كل على جواد .. ووجدت فيها عزاء ، كما وجدت فى التدليل الذي كنت محوطا به سلوى !

* * *

« وانقضى الربيع ، واقبل الخريف .. وفى شهر سبتمبر ، خبا آخر أمل لي فى العثور على « كيرا » ، وفى تحقق الآمال التى بثها مصطفى بك فى نفسى . كما ان التحريات التى اجراها — حقا — فى مستشفيات استانبول ، لم ترشد الى اثر لأمى . وعادت الدموع تلازم عينى ، والأسى يعتصر فؤادى ، والوحشة تجثم على صدرى .. فشاء مصطفى بك أن يسرى عنى ، واحضر لى بندقية صيد بديعة ، أهدانيها قائلا انها جديرة بأن تسمى « كيرا الرهيبة » ! .. ولكن محاولاته لم تنسنى غايتى ، فلم أجد بدا من أن ارجوه ان يدعنى انطلق بحثا عن اختى . غير انه رفض قائلا : « وماذا يكون مصيرك اذا تركت هذه الدار ؟ .. انك ساذج وديع كالحمل ، وقد ابتليت بالصبا والجمال ، وهما صفتان تجلبان المتاعب على صاحبهما فى تركيا ! » .. ثم أمر بتشديد الرقابة على .

« وفى ذات يوم ، خرجنا للنزهة على الجياد ، فعولت فى نفسى على الفرار . ودعوته الى السباق ، ولكزت فرسى « كيرالينا » فانطلقت تسابق الريح . ولكنه والخادم لم يلبثا ان لحقا بى . وقال مصطفى بك: « االى هذا الحد مللتنى ؟.. ما الذى ينقصك؟ » . فصرخت فيه : « ألا ترى يا مصطفى بك

ان الحريـة أغلى من العبوديـة ؟ ! » . وكان رده على ، أن نصحنى بأن أتقبل فى انصياع ما يرتضيه لى . فلم يزدنى ذلك الا تصميما على معاودة الفرار !

« واشتدت الرقابة على .. وأصبحت أقضى نهارى فى الصيد حتى مللت ، واقضى ليلى فى غرفة ولي نعمتى الذى فرض نفسه على فرضا . وحاولت أن أرشو خادمى ـ الذى تحول الى حارس ورقيب ـ فأبى الرشوة خوفا من بطش مولاه . ومن ثم رأيت أن أعـول على فرسى مـرة اخرى . وسـنحت الفرصة ونحن فى الصـيد ذات يوم ، اذ اقتضى الموقف ان اكون بعيدا عن القوم ، لأسد الطريق على غزال كنا نطـارده . فلما اطمأننت الى انصرافهم الى المطـاردة ، لكزت فرسى فانطلقت كالريح ، تزداد اندفاعا كلما امعنت فى استحثاثها ، حتى تقطعت أنفاسها ، وكلت سيقانها ، فما لبثت ان كبت .. ووقعت على الأرض ، مغشـيا على .. وعندما أفقت ، كان مصطفى بك الى جوارى !

« واصـابنى مرض شـديد ، تحولت غرفتى خلاله الى مصح .. وكاد مصطفى بك أن يجن اشـفاقا على ، ولكنى رحت أتمنى أن أموت . ولاحظت ان نافذة غرفتى قد سدت بقضبان ، فثرت ، وتولانى هياج شديد ، ورحت أحطم أغلى ما كان يأتينى به من هدايا . ولكن مثابرته على التلطف نحوى ، واسرافه فى الترفق بى ، لم يلبثا ان خففا من هياجى .. وبدأت استرد صحتى وعافيتى . واعتدت ـ فى فترة النقاهة هذه ـ أن اجلس وراء نافذتى ، واسرح بصرى فى الحديقة ، فلاحظت أن ثمة كلبا ضـخما كان يبرز من خلال الأشـجار ، ويقف

وجلا على مسافة من النافذة ، وعيناه تتطلعان فى أسى . وأخذت ألقى اليه ببقايا وجباتى ، فأبى أن يقربها فى البداية متهيبا .. وقلت فى نفسى انه — ولا بد — قد تذوق بدوره ما تذوقت من قسوة الانسان ! .. ورحت أناديه ، واظهر له الود والعطف ، حتى شرع يطمئن الى .. ولكن ، فى بطء وتردد ، مما جعلنى أقارن بين حذره وسذاجتى التى جعلتنى أثق بالناس ، وأوردتنى ما كنت فيه !

* * *

« واذ تعافيت ، عاد مصطفى بك يشركنى سهراته . وأدخل عنصرا جديدا فى التسرية عنى ، هو الخمر ، فكنت أقبل عليها حتى أفقد وعيى .

« وفى ذات يوم ، استيقظت من نومى لأعرف ان مصطفى بك قد رحل فى مهمة طارئة تستغرق عشرة أيام . وكأنما كانت هذه المفاجأة محركا أرسل النشاط عارما فى راسى ، فرحت أفكر فى طريقة للفرار . وكانت دهشتى لتسلل الكلب الغريب الى الحديقة قد جعلتنى أرقبه ، حتى تبينت انه كان يتسلل خلال ثغرة فى أسفل جزء قصى من سور الحديقة ، تتكاثف عنده الأشجار . ولكن ، كيف لى أن أصل الى تلك الثغرة ؟

« وفى الساعة الثانية من صباح ذات يوم ، والكون مستغرق فى النعاس ، حفرت فى قاعدة النافذة فراغا كومت فيه كل ما استطاعت أن تصل اليه يدى من ورق ، ثم أشعلت نارا لم تلبث أن دبت فى خشب النافذة فالتهمته .. وامتلأت

الغرفة بالدخان والوهج ، وبذلت مجهودا جبارا كى لا أصرخ فى ذعر . وأسرعت أجمع ما كنت املك ـ قبل دخولى هذا القصر ـ من حلى ونقود ذهبية ، ثم استجمعت كل ما وهبنى اليأس من جراة ، وقفزت بقوة الى الخارج ، قبل أن يسد اللهب كل الفراغ الذى خلفته القضبان الحديدية بعد احتراق اطار النافذة . وفى غمرة اضطرابى ، عميت عن مكان الثغرة ، فكدت افقد عقلى من الفزع واليأس . ولكننى لم ألبث أن اهتديت اليها ، فزحفت خلالها على بطنى ، وسرعان ما كنت فى الخارج !

« وبعد ساعتين ، كنت قد عبرت البسفور . ومن الضفة الاسيوية رحت أتأمل النـار التى كانت تلتهم القصر على الضفة الأوروبية ! .. وان هى الا ثمانية أيام ، حتى كنت أدخن النرجيلة فى شرفة احد مقاهى (بيروت) ، وقد خيل الى أن الحياة قد صفت لى .. وشرعت أفكر فى خطة للبحث عن « كيرا » .. اختى الحبيبة . ولكن ، هل كان القدر قد كف عن مناوأتى حقا ؟

* * *

« **كنت** قد استأجرت غرفـة فى فندق فوق أحد ملاهى بيروت ، ضـم كثيرا من الفنانين الايطـاليين واليونـانيين والفرنسيين . وفى ردهة ضيقة أمام باب غرفتى ، كانت ثمة غرفة استأجرها رجل وامرأة من المغنين اليونانيين . ويبدو أن المراة قد انتبهت الى سذاجتى ، وخجلى ، ومالى ، فراحت تلقى شباكها حولى . فلما لم تر استجـابة منى ، تمـادت

فى جرأتها ، فاقتحمت غرفتى ذات يوم ، وألقت بنفسها على صدرى . ولم تلق منى الا صدودا أكد لها أننى لا أصلح عشيقا ، فتحولت تبدى اعجابها بما كنت أملك من خواتم ، حتى ظفرت منها بخاتم !

« وعملت على توثيق عرى الصداقة بينى وبين رجلها .. حتى اذا علما أننى لم أكن أحمل أوراقا تثبت هويتى ، راحا يجسمان لي الخطر المحدق بى ، ويبتزان منى المال باسم التستر على ، حتى لم اجد بدا من ان اهرب منهما .. وكانت (دمشق) وجهتى فى هذه المرة .

« وفى دمشق ، رأيت أن أنزل فى ارخص فندق ، متظاهرا بالفقر والمسغبة ، ما دام المال يطمع الناس فيمن كان ساذجا على شاكلتى ! .. وكان يشاطرنى الغرفة التى نزلت فيها رجل غريب ، راح يروى لى همومه ، اذ كان يعيش بلا عمل ، ولا نقود .. واطمأننت اليه فقلت له ، أرد على ثقته بثقة مثلها : « لقد أضعت أوراق هويتى ، ولست أدرى كيف احصل على سواها . أننى على استعداد لأن أمنحك ليرة ذهبية اذا ساعدتنى ! » .. وتهلل وجه الرجل ، وذكر لى أن بوسعى أن ألجأ الى كاتب عمومى من معارفه كان ذا اتصال بالمحاكم ، فسرعان ما يدبر لى من الشهود من يؤكدون شخصيتى لدى السلطات ، فتمنحنى أوراقا جديدة .

« وتمت المهمة بسهولة — فى اليوم التالى — فأصبحت احمل اسم « ستاورو » ، المولود فى (استانبول) ، ومن

رعايا « مولانا السلطان » .. وكبدنى ذلك بضع ليرات ذهبية للكاتب واشهود الزور وللمأمور !.. والظاهر أن زميل الغرفة لاحظ أننى كنت أدس ذهبى فى « الكمر » — وهو حزام عريض كان الأتراك يلبسونه — فظل يرقبنى فى تلك الليلة ، حتى رآنى ادسه تحت وسائدى .. وعندما استيقظت فى الصباح ،كان « الكمر » قد اختفى، واختفى معه صاحبى !.. وكان فيه ثلاث وثمانون ليرة عثمانية ذهبية ، وتسعة خواتم ذات أحجار نفيسة ، وساعة ذهبية !

« وانطلقت أهيم على وجهى كالمجنـــون ، حتى حملتنى قدماى الى ضاحية جميلة تدعى (باب توما) . ثم تجاوزتها، فلم ألبث أن وجدتنى فى غابة .. وظللت أسير على غير هدى ، حتى خلفت الغابة فاذا بى فى الصحراء .. وقضيت ليلتى فى العراء ، ثم واصلت سيرى فى الصباح حتى أتيت قرية ابتعت منها — بشىء من العملات الصغيرة التى تبقت فى جيوبى — ما تبلغت به .. واذ ذاك ارتد الى عقلى ، فكررت عائدا الى (باب توما) . وفجأة ، مرت بى عربة ، لمحت فى داخلها وجها جعل قلبى وشيك التوقف عن الوجيب .. وجه « كيرا » .. أجل ، « كيرالينا » الحبيبة ! .. ورحت أجرى وراء العربة ، وأنا أصيح : «كيرا كيرالينا !..انا دراجومير!» . وابتسمت الشابة ، ورفعت يدها تحيينى ، مما جعل الظن يتحول الى يقين ، فظللت أجرى وراء المركبة الفخمة ، حتى رأيتهـا تغيب وراء أبواب قصر منيف ، يقوم وراء الغابـة المفضية الى (باب توما) ..

* * *

« **وحاولت** ان اندفع وراءها ، فاذا « قواص » فى زى رسمى يعترض طريقى ، ويطردنى . ورحت أدق الابواب الحديدية كالمجنون ، حتى خرج الى بعض الخدم فأوسعونى ضربا ، ثم ألقوا بى بعيدا وانا اشبه بالجثة الهامدة . وعلى هذه الحال وجدنى شيخ يونانى يبيع السحلب ، فعطف علىّ، وعنى بى . وما ان سمع مأساتى حتى أخذ يواسينى ، ثم قال فى حنان وحكمة : « يجب أن تنبذ يا « استاوراكى » فكرة البحث عن أختك بمثل هذه الطريقة المتهورة ، اذ أن انتزاع امرأة من « الحريم » أمر مستحيل . تعال أعلمك كيف تصنع السحلب وتبيعه لتكسب قوتك .. وبابريق السحلب فى يمينك ،والأقداح فى يسارك ، و « باربا ينى » — وهو أنا — الى جوارك ، تستطيع أن تتنقل بين الأسواق حرا طليقا ! »

« وتعلمت صناعة السحلب ، ورحت أطوف مع « باربا ينى » ، الى أن ساقتنا الأقدار ثانية الى مقربة من (باب توما) ، فاذا بى اتسلل — دون أن يشعر — واسعى الى القصر الذى كنت موقنا بأن « كيرا » بين جدرانه . وتسلقت السور ، ثم قفزت الى الحديقة ، ليتلقانى الخدم بالضرب . ثم ساقونى الى السجن .. وكان فى وسع أهل الجاه من العثمانيين — فى ذلك العهد — أن يلقوا بمن يضيقون به فى السجن دون محاكمة ، فسرعان مايغدو نسيا منسيا ، فلا يرى النور ثانية الا بمعجزة ! .. وقد استطاع « باربا ينى »

ان يحقق هذه المعجزة ، اذ سعى لدى بعض ذوى النفوذ ، حتى صدر الأمر بالافراج عنى ، على أن لا تطأ قدماى دمشق ثانية !

* * *

« وقضيت ثمانى سنوات الى جوار هـذا الشيخ الطيب الكريم ، نبيع سحلبنا فى أسواق ديار بكر ، وحلب ، وانقرة ، وارضروم ، ومائة بلد وبلد . ما كان انبله ! .. كان صديقا لا مثيل له ، وخبيرا بالحياة حنكته التجارب واكسبته حكمة وفلسـفة لا تبـارى ! .. ولـكنه لم يلبث ـ اذ طعن فى الشيخوخة ـ ان أصيب بضعف فى القلب ، فهفت نفسه الى الاستقرار . وعندما انتهى بنا المطاف الى قرية (غزير) ـ بلبنان ـ سكن الى « ست قمرة » التى أقمنـا فى غرفة فى دارها ، فمـا كان منها الا أن اقترحت أن يتزوجها « باربا ينى » ، وان تزوجنى ابنتها .. ولكنى اكتشفت أن الفتاة كانت على علاقة بشاب آخر من (بيروت) ، فحز فى نفسى خداعها .

« واذ رأى الشيخ الطيب أساى ، احتوانى فى أحضـانه ، وقال : « او لم تعرف بعد ان الحياة مليئة بالخداع ؟ .. لا بأس ، ففى وسـعك أن تتعلم من جديد . احمل ابريق السحلب ، وهات ابريقى ، ولنرحل ! .. لنرحل ، فان الأرض واسعة ! » . وقضينا ثلاثة أشهر نطوف بالسحلب ارجاء لبنان . وكان « باربا ينى » لا يفتأ يسألنى : « أليست

الأرض واسعة ، والدنيا جميلة يا استاوراكى ؟ » ، فأقول له : « اجل ! .. ما احكمك يا باربا ينى ! »

« ولكن ، هل كانت الدنيا جميلة حقا ؟ .. انها أكذوبة ، فليس للدنيا جمال الا من نبع قلوبنا ! .. انها لا تكون جميلة الا اذا كان القلب مفعما بالسرور . أما اذا غاض السرور ، فان الأرض لاتغدو سوى مقبرة ! .. ولقد قدر لأرض (لبنان) أن تكون مقبرة لقلبى ولجسد باربا ينى . ففى ذات يوم أصابته نوبة قلبية مباغتة ومات، وتركنى للهم والشقاء .

« وكان حرمانى من هذا الصديق الوفى ، هو الذى اثار فى فؤادى الحنين الى أن أعود — بعد سنوات — الى وطنى ، حيث التقيت بالانسان الوحيد الذى أحببته كما أحببت « كيرا » وأمى ، وكما احببت « باربا ينى » .. كما سأروى لك :

* * *

« فى سنة ١٨٦٧ ، عدت الى بلادى ، وقد هدنى فقدانى أختى وافسدتنى حياة المغامرات التى خضتها اثنتى عشرة سنة ، جست فيها خلال الأناضول ، وأرمينيا ، والجزء الأوربى من تركيا .. وكنت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرى ؛ وصرت أمتلك بعض المال ، وأجيد ثلاث لغات شرقية .. وارتحت لأن الذين كانوا يعرفوننى فى صغرى لم يستطيعوا ان يعرفونى اذ ذاك ، فضلا عن اننى كنت احمل وثيقة تثبت اننى من رعايا الدولة التركية ، واستطعت ان اموه على الناس بأن تعمدت عدم اتقان الحديث بلغة قومى .

« ومع اننى كنت أعيش متحررا ، مشردا ، مغرقا فى الرذيلة ، الا اننى لم أكن قد عرفت من النساء سوى امى وأختى .. وكنت شديد الشوق الى النساء ، ولكنى كنت أخشى الاقتراب منهن . وهذا شىء لا تعرفه ، فكم فى الحياة من غبن !.. ان الناس قد تشفق على من ينكب ببتر ساق أو ذراع ، ولكنهم لا يبدون أى اشفاق على من يفقد روح رجولته !

« وقصارى القول اننى لم ألبث - بمجرد عودتى الى رومانيا - أن استأنفت حرفتى .. فكنت أبيع « السحلب » فى الأسواق والمهرجانات ، بعيدا عن (برايلا) . اما فى المدينة ذاتها ، فلم يكن ثمة من يعرف حرفتى . وكنت ابتاع « السحلب » من رجل تركى كتم سرى ، اعتقادا منه بأننى مواطن له . وهكذا كنت اعمل قليلا ، واكسب كثيرا ، وأدخر نقودى فى الحزام الذى كنت الفه حول خصرى .

« وفى ذات يوم ، ساقتنى المصادفة الى ضاحية (اوليتزا كاليمرسك) - فى أطراف المدينة - فاذا بى أعثر على نبيذ جيد لم أشرب مثله منذ أمد طويل ، قدمته لى حسناء ، كانت ابنة صاحب متجر للخمور . فلم ألبث أن اصبحت اتردد على المتجر ، لا من اجل النبيذ الجيد ، وانما حبا فى سواد عينى الفتاة الجميلة ! .. ولكننى كنت حكيما ، فقد كانت أسرتها غنية ، كما انها لم تكن تحب الأجانب . لذلك سعيت للحصول على وثيقة تثبت هويتى الرومانية ، وهى مهمة سهلة فى بلاد « القديس بقشيش » ! .. وبين عشية وضحاها ، لم أعد « استاورو السحلبجى » - أى بائع

السحلب - وانما أصبحت « دومنيل ايسفورانو » ، تاجر السلع النحاسية الدمشقية !

« ولم يكن للفتاة أم ، وانما كان لها أب مسن ، قاس ، يشكو من أوجاع فى ساقيه .. فلم تنقض ثلاثة اشهر ، حتى كنت صديقا للأسرة ، وقد تعرفت على عمة عجوز حلت لدى الفتاة محل الام ، وعلى شقيقين للحسناء أوتيا وفرة فى الجسم والقوة ، فكأنهما جباران ، ولكنهما لم يكونا يقيمان فى الدار .. وأصبحت أشاطر الأسرة مائدتها ، وأملك على الجميع أسماعهم بما كنت ارويه من قصص عن الأناضول ودمشق . ولكن الفتاة كانت أكثرهم شغفا بهذه القصص ، وكانت تذرف الدمع بسخاء اذا تحدثت خلالها عن بعض المتاعب والأحزان التى صادفتنى . ولم ينقض شهران آخران ، حتى كانت الفتاة قد تعلقت بى !

* * *

« **وكانت** بهجة فؤادى « تانكوتزا » هى الوحيدة التى فهمتنى ، والتى احبتنى حبا صادقا . وكثيرا ما كنا نجلس معا فى شبه خلوة ، الى جوار سرير الأب الذى كان يغفو معظم الوقت ، بينما تشغل العمة بمراقبة المتجر . ومع ذلك ، فقد عاودنى الخوف من النساء - وهو خوف نشأ معى منذ صباى - عندما بدأت الفتاة تكشف عن عواطفها ، فما كنت لأطمع فى أكثر من أن تكون صديقة حبيبة .. لأننى كنت مغلول الرجولة !

« وما كان لى أن اطلب يدها ، الا أن اشفى من علتى

بطريقة ما . ولكن شخصا تقدم يطلب يدها فى تلك الأثناء ، فبكت وقالت انها لا تقبل الزواج من سواى . ومن ثم سألنى ابوها رأيى .. وكانت فكرة الزواج ـ فى حد ذاتها ـ كافية لأن تلقى بى فى عذاب دونه الجحيم . واذ لاحظ الأب صمتى واضطرابى ، عزا ما بى الى متاعب بشأن الكسب والعيش ، فراح يمنينى بالعمل فى متجره . ولم تكن « تانكوتزا » تكف عن البكاء ، حتى كوى دمعها قلبى فلم أعد أطيق احتمالا ، وخطبتها الى ابيها !.. وكانت فرحتها ما بعدها فرحة، بينما خيل الى اننى كنت أشبه برجل قضى عليه بالاعدام !

« وعزت الفتاة المسكينة ما اعترانى من وجوم وصمت ـ فى الأيام التالية ـ الى فرط جيشان انفعالات الهناء فى فؤادى. ولكن أمرى لم يلبث أن اثار توجس الأسرة، لاسيما العمة العجوز، فلم يعد امامى سوى احد امرين : اما ان أهرب ، او أصطنع المرح كعهدى من قبل .. وآثرت الحل الأخير ، فاذا البشر يعود الى « تانكوتزا » ، واذا بها اشد اعجابا وفخرا بى منها فيما مضى !

« آه ، لم لم تبق الأمور على هذا الوضع ؟ .. أو لم لم افر من الموقف ؟ .. ما أشد العذاب اذا ما كان أمده طويلا ! .. اننا الآن نبلغ أفظع مراحل القصة .. نبلغ ما سماه صديقك « ميخائيل » بـ « الانحراف » و « الشذوذ » و « الرذيلة » ! .. نبلغ مرحلة كل انواع النحس والشقاء التى يتعرض لها اى انسان تحت اسم الاخلاق ، والعادات والعرف ، والتقاليد .. انواع الشقاء التى تسمم الحياة ، وتعصف بالأبرياء ، فاننى فى عجزى لم أكن أقل « براءة »

من خطيبتى العذراء الطاهرة !

« ذلك لأنه كان من عادة القوم فى بلدى ، فى ليلة الزفاف ، ان يقتحموا على العروسين مخدعهما بعد سويعات من لجوئهما اليه ، فيطردونهما منه . وتتولى نساء - من اهل العروس وممن لسن من أهلها - تفتيش الفراش ، فيقلبنه راسا على عقب بحثا عن دليل عفة الفتاة .. الدليل الذى يحملنه فى زهو ، ويخرجن به الى الملأ من المدعوين يعرضنه عليهم مختالات ! .. بل اننى رأيت فى الطريق من (بيتروى) الى (كازاسو) ما هو أنكى : رأيت غطاء السرير الملطخ بالدم ، مرفوعا على عصا ، يحيط بها موكب من القوم ، ويزفها موسيقى من الغجر يعزف على قيثارة ! .. فهل عرفت يا صديقى ما هو أكثر من هذا وحشية ومجافاة للكرامة الانسانية ؟ .. لا ، ولكننى عرفت كل هذا ، وأكثر من هذا ، يوم حان الزفاف ! .. ولم أستبشع هذه الأعمال النابية فحسب ، بل اننى رحت أرتجف فرقا من لحظة الخطر !

« وكان الاحتفال صاخبا مرحا ، لم يعكره سوى تفكيرى المستمر فى العرف والتقاليد .. ثم حان المساء ، واعد العشاء ، وضمت المائدة حوالى عشرين شخصا . وعند ما لعب الشراب بالرؤوس ، بدأ القوم يروون قصصا سخيفة عن ليالى الزفاف ، ونوادر كل من الجنسين ومآسيهما فى تلك المناسبة .. ونظرت الى « تانكوتزا » فاذا بها ساكنة هادئة ، اما انا فقد استبد بى الخوف والاضطراب .. حتى اذا انتصف الليل ، بدأ القوم يصوبون الى وجهى قذائف من

لباب الخبز ، فلما تساءلت عن السبب ، قالت احدى الحاضرات : « قم فأد واجبك ! »

« واقسم اننى لم ادرك اى واجب كانت تعنى . ولكن القريبة لم تلبث ان قامت مع العمة تعدان العروس للفراش. ثم اقبلت العمة فقبلتنى ، ونهض الأب فقادنى الى المخدع ، وفتح الباب ، ثم دفعنى الى الداخل ، واغلقه . وبرغم انها كانت لحظة من اسوأ لحظات حياتى ، الا اننى لا ازال اذكر راس « تانكوتزا » الجميل ، وقد استقر على الوسادة الناصعة ، وتناثر حوله شعرها الفاحم الغزير .. ثم خررت مغشيا على فى وسط الحجرة !

* * *

« **وظللت** فى بحران الحمى أربعا وعشرين ساعة ، ثم بقيت فى احضان المرض اسبوعين .. ولم ادر ما بدر منى وانا اهذى ، ولكن الذى اذكره ، هو اننى تبينت ـ خلال فترة نقاهتى ـ ان المحيطين بى اخذوا يبذون لى العداء ، وان والد عروسى وعمتها راحا يسألاننى تفسيرا لذلك الخزى الذى جلبته على دارهما . وحاولت أن أتعلل بأننى ضحية سحر خبيث يقيد رجولتى ، ولكنهما ازدادا مقتا لى ، ولم يرثيا لحالى !.. وظللت عشرة شهور محوطا بالكراهية والازدراء ، سجينا فى تلك الدار المفعمة بالحقد والشقاء ، لا اجرؤ على ان اخرج الى الطريق ، فكنت اقضى ايامى منبوذا ، مخلدا الى الصمت . وكان شقيقا عروسى يفدان فى أيام الآحاد

فيوسعاننى تحقيرا . وما لبثا ان شرعا يتكلمان عن الطلاق . وقد يبدو أن هذا كان خير حل ، ولكنه لم يكن كذلك !

« ذلك لأن زوجتى كانت ــ منذ زواجنا ــ قد نأت بجانبها عن اسرتها ، وارتضت أن تعيش بجوارى متحملة التعاسة فى جلد ، دون ما دموع ولا سخط .. كانت تؤمن بأننى ضحية سحر عقد رجولتى فعلا ، فراحت تصلى بحرارة ، وتدعو الله ان يقهر الشيطان ويشفى الزوج الذى ظلت تحبه .. أواه ! كيف لى أن انسى انها كانت الشخص الوحيد الذى ظل يولينى انبل المشاعر الانسـانية فى تلك المحنة ! .. كانت لا تفتأ تحتضننى ، وتقبلنى ، وتدللنى ، وتؤكد لى صدق حبها ، حتى لقد كنت أحس أحيانا بدبيب الرجولة يكاد يسرى فى كيـانى . ولكن ما يخلقه الحب بعناء ، تودى به الكراهية فى لحظة . فما كانت تغادر غرفتنا فى كل صباح ، حتى ينقض عليها الشيخان ــ ابوها وعمتها ــ فينهالان عليها بالأسئلة . فاذا ما امسكت عن الكلام ، راحا يوسعانها نصحا بالتخلى عنى ، والانفصـال .. كأنما كان الأمر « حملة » هدامة منظمة ، دامت عشرة شهور !

« وكدنا نختنق فى هذا الجو .. وبدأ الشقيقان يزدادان خشونة وتحرشـا كلما وفدا على الدار ، فكانا يوسـعاننى اهانة ، ليحملانى على الانفصال عن أختهما .. حتى لم يكن من الشابة المسكينة الا ان سألتنى يوما عما اذا كنت اقوى على ان اعمل واكسب قوتنا ، ثم راحت تحفزنى على الفرار بها ، وترسم الخطـة لذلك . واصبحنا نقضى معظم أوقاتنا

متلاصقين – كأخوين حائرين فى دنيـــا حافلة بالأعداء – نتباحث ، ونتشاور ، والدموع تبلل وجهينا . وكنا اذ ذاك فى أواخر شهر فبراير ، فعولنا على الهرب فى اواخر مارس الى (استانبول) .

« على اننا لم نلبث ان لاحظنا تغيرا فى مسلك ظالمينا .. فقد كف الأب والعمة عن سؤال زوجتى فى كل صباح ، وعن ارهابنا . وقال لى الشيخ – ذات مساء – ان بوسعى ان اخرج مستخفيا لأروح عن نفسى .. ولكن تانكوتزا استحلفتنى – ودموعها تنســاب هامية – بأن لا اغتر بقوله ، واردفت : « قلبى يحدثنى بأن ثمة شرا يرتقبنا ، فلا تخرج ! .. لقد صبرنا عشرة شهور ، فلنصبر بضعة أسابيع اخرى ! »

* * *

« ولكن مصير الانسان مكتوب عليه مقدما . فما ان اقبل الصباح التالى ، ونظرت الى العالم الخارجى خلال النافذة ، حتى تولانى حنين طاغ ، وشعرت كأن جدران الغرفة تطبق على وتخنقنى .. وما زلت بفتاتى حتى سمحت لى بالخروج ، على أن أتزود بخنجرى ومسدسين .. ولم يحدث فى ذلك اليوم شىء ، ولا فى غده . ثم كان يوم الأحد ، فخرجت الى ضفة نهر (الدانوب) ، وعدت منشرح الصدر ، ورحت اعانق تلك التى ظلت عشرة شهور أكثر الزوجات حنانا ، واطهر العذارى !

« وما درينا ان ثمة مأساة كانت ترتقبنا حين هبطنا لنتناول العشاء مع الأسرة . فقد لاحظت تانكوتزا ان شقيقيها غير موجودين ، فسألت عنهما ، وكان جواب أبيها : « لن يلبثا

أن يحضرا »» .. ولكنا لم نمض فى انتظارهما طويلا، فتناولنا العشاء دونهما .. وعندما شرعنا فى تدخين النرجيلة ، اندفع الباب ، وأقبل الشقيقان ومعهما رجل غريب .. يونانى كان صديقا لى فى الماضى ، ثم نهج منهج الأشرار ، وأصبح مجرما

« ووقف الرجل يرمقنى برهة ، ثم قال : « أهـذا هو السيد ايسفورانو ؟ .. وهل قلتما ان السجر قد عقـد رجولته ؟ .. انه ليس سوى « ستاورو » بائع السحلب .. وهو عديم الرجولة بفطرته ، بل انه .. »

« ونطق بكلمة نابية ، فاذا تانكوتزا تطلق صرخة حادة ، ثم تقع مغشيا عليها .. بينما انهالت على اللكمات ، حتى غبت عن الوعى ! .. وعندما عدت الى رشدى ، وجدتنى ملقى على الجليد خارج الدار ، وقد جردت من ثيابى الثقيلة، فلم يبق على سوى قميص .. وكانت أعضائى شبه مشلولة ، ولكنى تحاملت على نفسى بجهد جبار ، وسعيت الى التركى الذى كان يبيعنى مسحوق السحلب فى الماضى ، فآوانى ، وسهر على تمريضى .. وبعد أربعة أيام ، انبأنى ان شباك الصيادين أخرجت جثة « تانكوتزا » من النهر ..

« لقد انتحرت !

* * *

« ومنذ خمس وثلاثين سنة ، وأنا احج الى الضفة اليسرى للدانوب ، فى موعد المأساة من كل عام ، فأناجى تانكوتزا ، وأسألها المغفرة .. عما ألحقته بها ! »

جنات بلادنا كما يراها الأجانب :

سيوه

"الجزيرة السعيدة" التى تعيش فى بحر من الرمال ، بين أحضان التاريخ !

للكاتبة الرحالة "ليلى بلينيس"

. . . .

عزيزى القارىء ..

تطالعك على غلاف هذا العدد ، صورة « ابتسامة من واحة سيوه » ، اختارها لك فنان « كتابى » من بين عشرات من الصور ، التى تمثل نماذج من الجمال فى بقعة من بلادنا ، ما اظن ان الحظ قد ساقك اليها يوما ..

والواقع ان فى بلادنا مواطن كثيرة لا يخطر بالبال انها على قيد الوجود .. وحتى اذا عرفنا بوجودها ، فقل أن تنازعنا الرغبة الى زيارتها .. بل اننى أذهب الى ابعد من هذا ، فأقول ان الرغبة الى زيارتها قدتنازعنا، ولكنا – غالبا – لا نجد ما يشجعنا على اداء هذه الزيارة .. اما لبعد الشقة وعدم وجود الطرق ووسائل الانتقال الميسرة .. واما لاننا نجهل قيمة هذه البقاع والميزات التى تغرى بارتيادها ، واجتلاء مفاتنها ، والتعرف على معالمها ..

ولعل اهتمام السلطات – فى جمهوريتنا – بتنشيط الوعى بالسياحة الداخلية ، يعوض هذا النقص الذى كنا نشكو منه .

وواحة (سيوه) من أكثر بقاع بلادنا اغراء بالزيارة .. فقد كان من جراء عزلتها عن وادى النيل ، على مر الزمن ، ان ظلت تعيش فى أحضان التاريخ ، ملفوفة فى جو من الماضى البعيد .. وان كانت النهضة التى المت ببلادنا قد سرت اليها اخيرا ، فبدات تتململ وتستيقظ من سباتها ..

فتعال نتعرف على هذه الواحة ، التى شبهت بالجزيرة ، وسط محيط من الرمال .

البقعة التى آثرتها الآلهة بالبركة

فى أعماق الصحراء الموحشة ، وفى عزلة عن العمران ، تبرز من خلال السراب لأعين الرحالة الذين يولون ظهورهم ساحل البحر ، عند مرسى مطروح – موغلين فى البادية جنوبا – بقعة عامرة بالخضرة والجو البديع ، فكأنها جزيرة وسط محيط من الرمال ، حتى لقد اطلق عليها مؤلف يونانى لقب : « جزيرة السعداء » !

تلك هى (سيوه) .. أشهر واحات الصحراء الغربية – بل الصحراء الكبرى بأسرها، الممتدة من حوض النيل الى ساحل الأطلسى غربا – وأعرقها تاريخا .. فقد عرفها المصريون من اقدم عصورهم ، وكانوا يضفون عليها قداسة خاصة ، اذ كانوا يؤمنون بأنها بقعة اختارها الاله « آمون » موطنا لوحيه ونبوءاته .. وتقول الأساطير ان كهنة (طيبة) ارادوا ان يهتدوا الى البقعة التى يظهر فيها الاله آمون علامته ونبوءاته ، فأطلقوا حمامة من الوجه القبلى ، مخرت عباب الجو متجهة غربا ، حتى حطت فى أخصب مكان من واحة (سيوه) ، على مقربة من « عين الشمس » .. وهى نبع قال « هيرودوت » يصف ماءه : « كان فاترا فى الصباح ، باردا فى منتصف النهار ، فاترا عند الغروب ، ساخنا يغلى عند انتصاف الليل » !

وحيث حطت الحمامة ، اقيم تمثال للاله « آمون » من صخرة يحتمل ان تكون – فى الأصل – نيزكا او شهابا هوى

من السماء فى هذا الموقع .. ومن هذا التمثال كان الاله « آمون » يصدر نبوءاته ، فأصبحت (سيوه) كعبة يحج اليها المصريون ، وأصبح معبد « آمون » ـ الذى اقيم فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ـ مقصد الكبار والزعماء ، اذ يسعون لاستشارة الاله فى جلائل الأمور . لذلك اشتهرت « الجزيرة الصحراوية » باسم (واحة آمون) .. ويرجح أن تكون قد اكتسبت اسم (سيوه) فيما بعد ، وان يكون هذا الاسم مشتقا من لغة « البربر » .

الاسكندر المقدونى وأسطورة « ابن الاله » !

وظلت سيوه محتفظة بقداستها فى العصر اليونانى ، اذ كان الاغريق يعتقدون أن « آمون » هو الرب الاغريقى «زيوس» . فلما سيطر الرومان على مصر ، اعتقدوا انه الههم «جوبيتر» . ولهذا ظلت الواحة على مكانتها .. وكأنما اراد القدر أن يؤكد أن قداستها حقيقية ، فعندما غزا الفرس مصر ، سمع « قمبيز » عن (سيوه) ، وعما فى معبد آمون من كنوز ، فسعى للبحث عنها . ولكن قواته ضلت فى الصحراء ، وطوتها الرمال ، وظل مصيرها الى اليوم لغزا غامضا .

وهذه القداسة هى التى حدت بالاسكندر المقدونى الى أن يسعى بدوره ـ عندما فتح البلاد ـ الى زيارة (سيوه) والتماس بركة الاله .. وقد كانت له ـ فى هذه المناسبة ـ قصة تنم عن غروره وحبه للعظمة . فقد حدث عندما وصل

الاسكندر الى المعبد ، ان رحب به رئيس الكهنة بقوله ، اى « يا بني » . ولكن الظاهر انه لم يتقن النطق بالكلمات اليونانية كما ينبغى ، او ان الغرور زين للاسكندر ان الكاهن قال : ، أى « يا ابن الاله » ! .. وسواء كان هذا أو ذاك ، فان الاسكندر سارع الى استغلال الفرصة ، فامر بأن يسجل الكتبة أن آمون قد اوحى الى رئيس كهنته بأن القادم ابنه ! .. وكان فى هذا تعزيز للاسطورة التى أحاطت بمولد الاسكندر ، والتى زعمت انه جاء من صلب الرب « زيوس » .. وهى اسطورة قدمها لك « كتابى » - نقلا عن المؤرخ الرسام « ماتانيا » - فى العدد (٣٢) .

ولقد صمت صوت النبوءة اليوم ، وانهار المعبد فلم تبق منه سوى اطلال دارسة .. ولكن النبع لا يزال يرسل ماءه نميرا ، يشيع خريره فى جو الواحة موسيقى هادئة تهفو اليها النفس وترتاح لها الأعصاب ..

حيث سار الاسكندر !

والمسافر الى (سيوه) يسعى فى الطريق الصحراوى الممتد غربى الاسكندرية الى (مرسى مطروح) ، بين بحر لازوردى - الى اليمين - يمتزج بزرقة سماء صافية عند الأفق البعيد ، وشريط من الخضرة الى اليسار ، تتخلله زهور برية تختلط الوانها البهيجة فوق الرمال البيضاء .. وما ان يبرح المسافر (مرسى مطروح) حتى يولى البحر

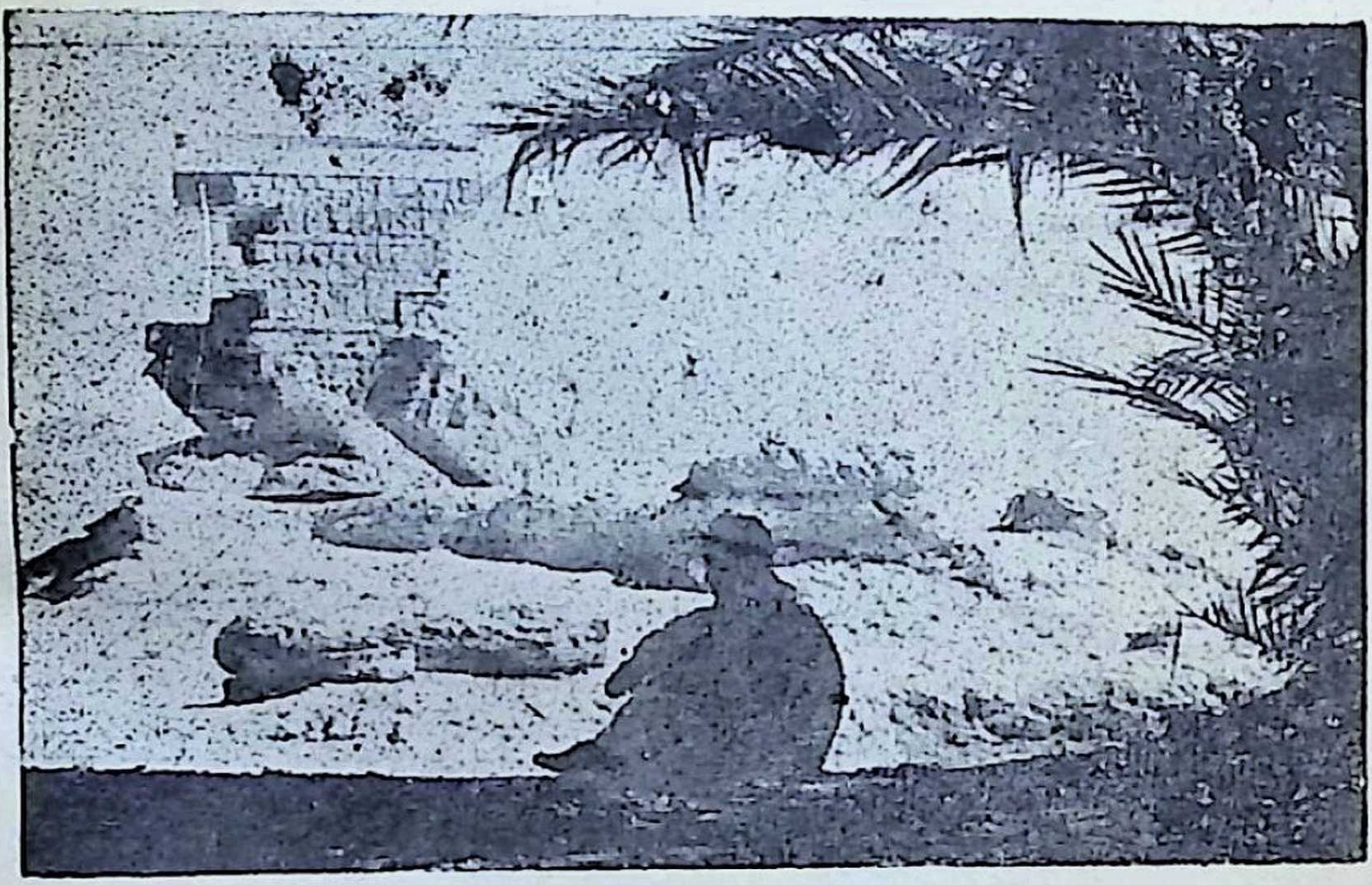

الاطلال الباقية من معبد ((آمون)) الذى حج اليه الاسكندر المقدونى

ظهره ، ويوغل فى الصحراء جنوبا .. وحيث سار الاسكندر وجيشه، تمتد اليوم طريق اسفلتية حديثة . ولكنها لا تلبث أن تنقطع فجأة بعد مائة كيلومتر ، ولا يعود من مرشد للضاربين فى جوف الصحراء سوى الاعمدة التى تحمل اسلاك « التليفون » و « التلغراف » الى الواحة .. وترسم آثار عجلات السيارات – التى ترتاد الصحراء – معالم طريق يستطيع السائق الفطين أن يتبعها .. وهكذا لم يعد ثمة خوف على المسافر من ان يضل فى هذا التيه الرملى الشاسع ، الذى يمتد – فى تواتر ممل – من كل جانب ، لا يتخلله أى مظهر من مظاهر الحياة ، أو أى منظر ينتزع المسافر من

أحضان السأم .

والشمس – طيلة الطريق – تنصب انصبابا ، لا يعترضها ما يخفف وطأتها على المسافر ، ولو بعض المسافة .. فاذا ما مالت الشمس نحو المغيب ، وبدأت تلقى على الأرض ظلال الكثبان والمرتفعات ، تراءت هذه الظلال مضخمة ، غريبة .. فاذا الصخرة الصغيرة تتراءى كالحصن القديم !

وفى الصيف ، يشتد الجفاف فى هذه الطريق المجدبة ، وتبدو الرمال مسودة وكأنما احرقتها أشعة الشمس .. اما فى الشتاء ، فتتخللها بعض البرك المائية التى خلفتها الأمطار ، وقد اسن ماؤها واكتسب الوان قوس قزح . فاذا اقبل الربيع ، جفت الرمال فلا تلبث الريح ان تسفيها وتراكم منها كثبانا ، فكأن سطح الصحراء موج متتابع .. حتى اذا اقبلت زوابع « الخماسين » ، حملت ذرات هذه الرمال لتصفع بها كل ما يصادفها ..

اطلال يلفها الغموض

وتتلاشى الكثبان بسحر ساحر ، اذا ما اشرف المسافر على (سيوه) ، فاذا الأرض سهلة ، ممهدة .. وتبدو الرمال والأحجار ، وقد اتخذت أشكالا غريبة مهولة ، صاغتها ايدى فنانين متهوسين .. وما هؤلاء الفنانون سوى عوامل التعرية والرياح التى تعمل فيها من أسحق العهود .

ويخال المسافر انه الوحيد الذى يتحرك فى عالم ران عليه الجمود !

ثم تنبثق الحياة فجأة ، وكأنما الواحة تستقبل الوافد فى أبهى زينتها ، لتبشره بحياة رغدة هادئة .. فاذا الأرض تنشق عن خضرة يانعة ، والعيون ترسل الماء صافيا نميرا ، والنخيل تبسط ظلالا وارفة ، والطيور تغرد وتصدح ، فتذهب شقشقتها بما ثقل على السمع من صمت طويل .

ويزداد المسافر اقترابا، حتى يبلغ مشارف الواحة، فاذا هو يسير فى طريق تحف به نخيل فارعة ، وماء رقراق — ذات اليمين — و « جبل الموتى » ، مقبرة الواحة ، ذات اليسار .

ثم يبدو منظر عجيب ، يطاول السماء .. انها القرية القديمة ، وكأنما صاغتها أصابع طفل يلهو بالطين .. واول ما يطالعك منها برج مائل بعض الشىء ، تتخلل حافته العليا فجوات ، كما فى حافة التاج .. وحصن منعزل ، واسوار منهارة .. اطلال يلفها الغموض ، وقد تثنت اطواؤها معتمة على الصخور .. شىء واحد لم يمسه الخراب ، ذلك هو مسجد القرية الصغير ، وكأنما شاء القدر أن يقدم للقوم ما يدعم ايمانهم !

وتجد نفسك فى (سيوه) القديمة ، حيث كانت البيوت تشيد على نمط الأبراج ، بعضها فوق بعض ، فى صفوف متعرجة ، وعلى شكل هرمى ، فكأنها — فى مجموعها — خلية ، أو مستعمرة من ابراج الحمام . ونظرا لأنها بنيت من الطين ، فانها تتماسك بمعجزة عجيبة الى حين ، ثم لا تلبث بعض

جوانبها أن تنهار ، وبعضها يتفتت ويتلاشى .. الى أن يهبط المطر غزيرا ، فيكتمل الخراب .

ويبدو هذا النمط من البناء مستغربا . فما كانت بالناس حاجة الى أن يقيموا الدور بعضها فوق بعض ، ولديهم الواحة واسعة ، وكان بوسعهم ان يستغلوا الفضاء المتوفر ليبنوا بيوتا متجاورة ما شاء لهم التجاور ، ما دام أهل (سيوه) قد درجوا على ان يعيشوا متجمعين .

ولعل ايثارهم ان يكون تجمعهم فى أضيق نطاق قد نشأ عن حرصهم على ان لا يتفرق شملهم اذا ما جار على واحتهم مغير .. لا سيما وقد وجدت بعض بيوت خارج الأسوار ، كانت ـ فيما مضى ـ تحمى البلدة .

ولقد اقام أهل (سيوه) ـ فى الزمن الحاضر ـ مساكن بجوار انقاض القرية القديمة . وهى ـ بوجه عام ـ تتألف من طابقين ، ولا تختلف كثيرا عن البيوت المشيدة من اللبن (الطوب النيىء) ، التى تشاهد فى قرى وادى النيل . اما السقوف فتصنع من جذوع النخل . وقد أصبحت الأسرات الموسرة تجتلب الأبواب، والنوافذ ، وألواح السقف الخشبية من (الاسكندرية) . وهذه المساكن نظيفة ومنسقة . على ان (سيوه) القديمة ليست مهجورة تماما ، اذ ان بعض المنازل لا تزال قائمة ، وقد نجت من عدوان الجو المتقلب ، ولا يزال يعمرها بعض الناس . فأنت تصادف فى الحارات الضيقة نسوة ما يكدن يشعرن بأول بادرة تنم عن مقدم غريب ، حتى يسرعن الى الفرار ، متعثرات فى ثيابهن الطويلة .

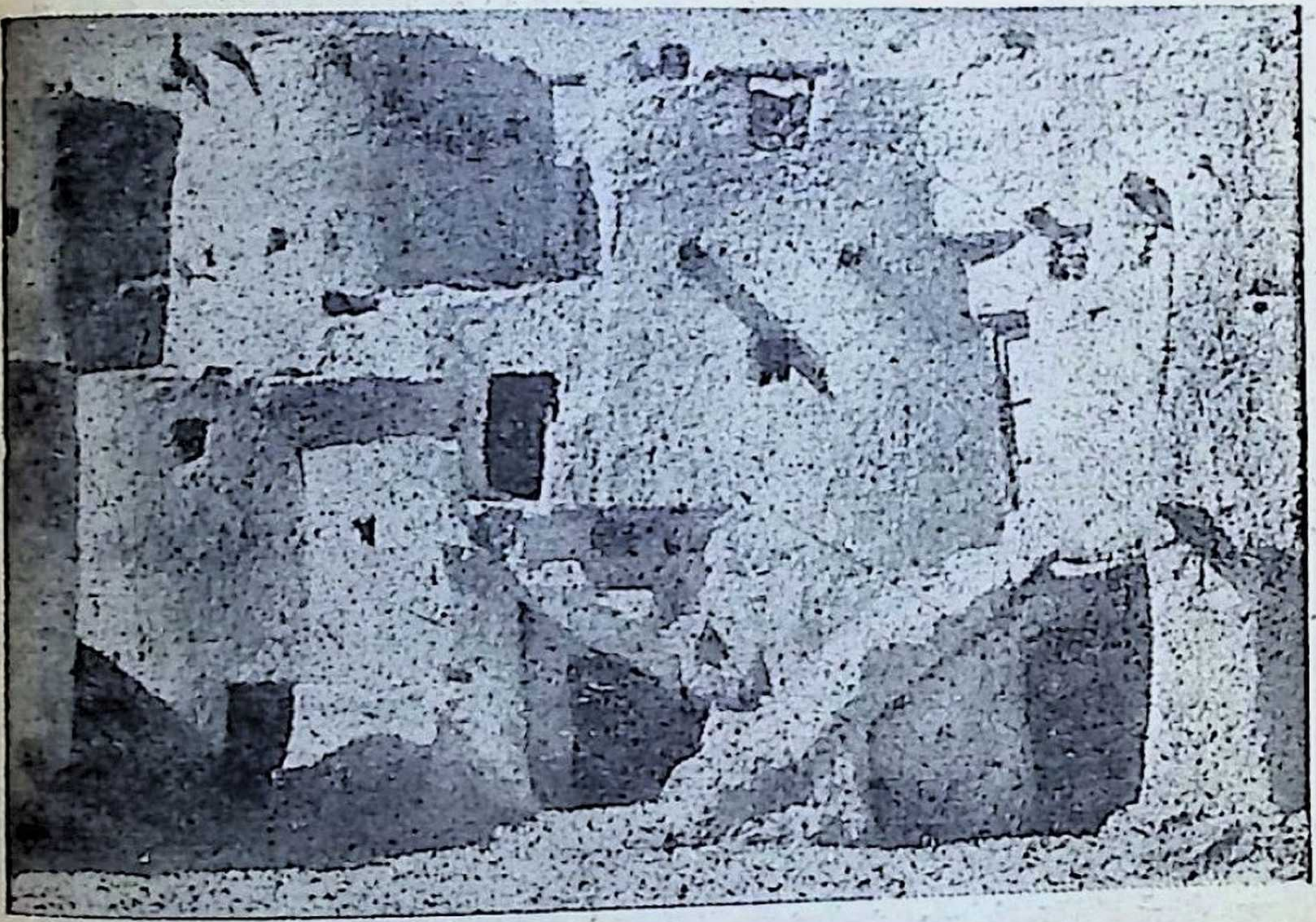

ليست حصونا ، ولا ابراج حمام ، وانما مجموعة من منازل القرية القديمة

قرص من الفضة تتوارثه العذارى

اما الصغار ، فتراهم مثقلين بالتعاويذ . وهم ـ حتى البنات منهم ـ يحلقون شعور رؤوسهم فيما عدا خصلات يتركونها فى غير عناية أو تنسيق . وهذه الخصلات اشبه بعلامات رمزية تنم عن الأولياء الذين وكل الآباء ابناءهم الى رعايتهم ، ايمانا بأسطورة غريبة تزعم انه عندما يدهم الموت طفلا ، فان ملاكا يجذبه من شعره ليرفعه الى الجنة !

وترتدى الفتيات ثيابا طويلة واسعة ، من قماش تتخلله

خطوط راسية ، وكثيرا من الحلى . ولهن عيون جميلة يزيدها الكحل اتساعا وفتنة . اما شعورهن المضمخة بالزيت ، فتنسق على الطراز القديم ، اذ تجدل فى أربع واربعين جديلة تحف بالرأس من جميع النواحى .. وهن يحطن اعناقهن عادة بقلائد من الفضة الثقيلة ، يتدلى من كل منها قرص مستدير - من الفضة هو الآخر - يتأرجح على الصدر .. ولهذا القرص قيمة خاصة ، فهو رمز يوحى بأن الفتاة لا تزال عذراء لم تتزوج . فاذا تزوجت ، خلعت القرص واحتفظت به فى حرز مكين ، لتورثه كبرى من قد تنجب من بنات !

ومع ان الرجل السيوى يمتاز عادة بضخامة الجسم ، وبسمرة أشد من سمرة الشخص العادى من ابناء الاقليم الجنوبى ، فان المرأة السيوية ضئيلة الجسم عادة .. وبقدر ما ترى الرجل بادى الصحة ، ترى المرأة ذات بشرة تختلط فيها السمرة بلون الشمع ، وتبدو كما لو كانت سقيمة . ولعل هذا راجع الى انها تعيش حبيسة جدران بيتها عادة .

ولكى ندرك حياة السيويين حق الادراك ، لا بد لنا من ان نضع نصب اعيننا عاملا حاسما لا غنى عنه . ذلك هو الانفصال التام فى الوضع الاجتماعى لكل من الرجل والمرأة . فالرجل هو العنصر العامل النشيط فى المجتمع ، ومن ثم فان اعماله ومهامه تكسبه سيادة معترفا بها من الجميع . اما المرأة فينحصر وجودها كله فى خدمة الرجل . وهى تظل لغزا للغريب ، اذ لا سبيل لأن ينفذ أحد الى نفسها .

ولما كان السكان فى (سيوه) محدودين ، فان هذه العزلة

المفروضة على المراة ادت الى ان يسود المجتمع قانون اخلاقى غريب .. ففى بعض فترات من الزمن – الى حوالى اربعين عاما مضت – كان زواج الرجل برجل مثله أمرا شائعا ومعترفا به مدنيا . وقد حرمت هذه العادة رسميا ، فانقرضت اليوم تماما .

العزاب يطردون بالليل من البلدة

ومع ذلك ، فلا تزال (سيوه) منقسمة الى شطرين .. ففي القسم الغربى منها تقيم الأسرات ، بينما يسكن القسم الشرقي – وهو القسم المنخفض من الواحة – العزاب .. من شباب ومترملين . وقد جرت العادة بأن يهجر العزاب والأرامل البلدة اذا ما هبط المساء ، ليأووا الى ذلك القسم .

على ان الصغار من الجنسين يعفون من هذه الاوضاع ، فلا تفرض قيود على الجنسين الى سن البلوغ . ومن ثم يرى المرء البنات يخطرن فى القرية ، أو يتسابقن ، او يلعبن فى الشوارع . وهن يتكفلن بأطفال الأسرة من سن مبكرة ، فترى فتيات جد صغيرات يحملن اخوتهن او اخواتهن على جنوبهن او ظهورهن . ولهن كل الحرية فى أن ينطلقن فى جنبات القرية وفق هواهن ، على شريطة ان يكن قد انجزن ما يلقى عليهن من اعمال منزلية . فيرحن يتواثبن فى ساحة القرية مع صغار الصبية ، او يمارسن لعبتهن المفضلة : « الأمه .. الأمه » ، وهى « الاستغماية » التى تطارد فيها بنت بقية اللاعبات ، فاذا استطعن أن يرغن منها وأن يصلن

نموذج من الجمال السيوى : صُغيرة اشرق وجهها بابتسامة تبدد سمرة بشرتها ، وقد نسق شعرها فى جدائل احاطت بالوجه فى شكل هندسى

الى بقعة معينة ـ هى التى تسمى « الأمه » ـ أصبحن فى امان ، ولم يعد للمطاردة حق فى ملاحقتهن ، بل تعود الى التربص بهن ثانية عسى أن تبرح احداهن « الأمه » فتجرى وراءها .. وهكذا حتى تمسك بواحدة تحل محلها فى المطاردة .

ومن الألعاب المفضلة لدى السيويات الصغيرات ، لعبة تتواثب فيها البنات على ساق واحدة ، فى طول الساحة وعرضها ، وهن يرسلن من حلوقهن حشرجة غريبة ـ أشبه بالسعال المكتوم ـ ويتدافعن بالاكتاف . والفائزة هى التى تتمكن من أن توقع غريمتها ارضا ، بعد نضال .. واذ ذاك تلتف الباقيات حولها ، ويحيينها صائحات : « يحيا الديك » !

وهكذا تؤلف الفتيات العنصر المرح الطروب فى القرية ، فهن أشبه بزهور الربيع بين الأطلال !

خمول ولهو للذكور حتى سن المراهقة

كذلك لا يحمل الصبية الذكور أية اعباء او مسئوليات . فلا عمل لهم سوى البطالة واحلام الصبا واللعب ، ومراقبة آبائهم وهم يمارسون الحرف التى يتعيشون منها ، كاستخلاص الزيت من الزيتون ، وجنى البلح ، واستجلاب الماء فى صفائح على ظهور الحمير .. وكثيرا ما يجتمعون حول الشيوخ الذين يروون لهم الحكايات و « الحواديت » ، وهم يفتلون الحبال من الياف النخل .

فاذا لم يرق لهم شىء من هذا ، استلقوا فى ظلال البيوت

ـ على جوانب الحارات ـ وسرحوا أبصارهم فى الفضاء ، يتأملون بهاء الواحة بعيون شاردة تجتذبها رؤى الأحلام .

ويحب الأولاد أن يجوسوا جماعات خلال القرية ، متسكعين فى خمول .. حتى اذا تقدمت بهم السن نحو المراهقة ، وبدأوا يفقدون براءة الطفولة شيئا فشيئا ، حق عليهم ان يطردوا من القرية اذا ما هبط الليل .

وهم فى هذه المرحلة من اعمارهم يطرحون عنهم الخمول رويدا ، ويتخلصون من الدعة الساكنة ، ويصبحون كثيرى الصخب والهياج . وكثيرا ما يقضون امسياتهم حول «الظجالة» ـ كما يطلق على الموسيقيين الشعبيين فى (سيوه) ـ فيغنون

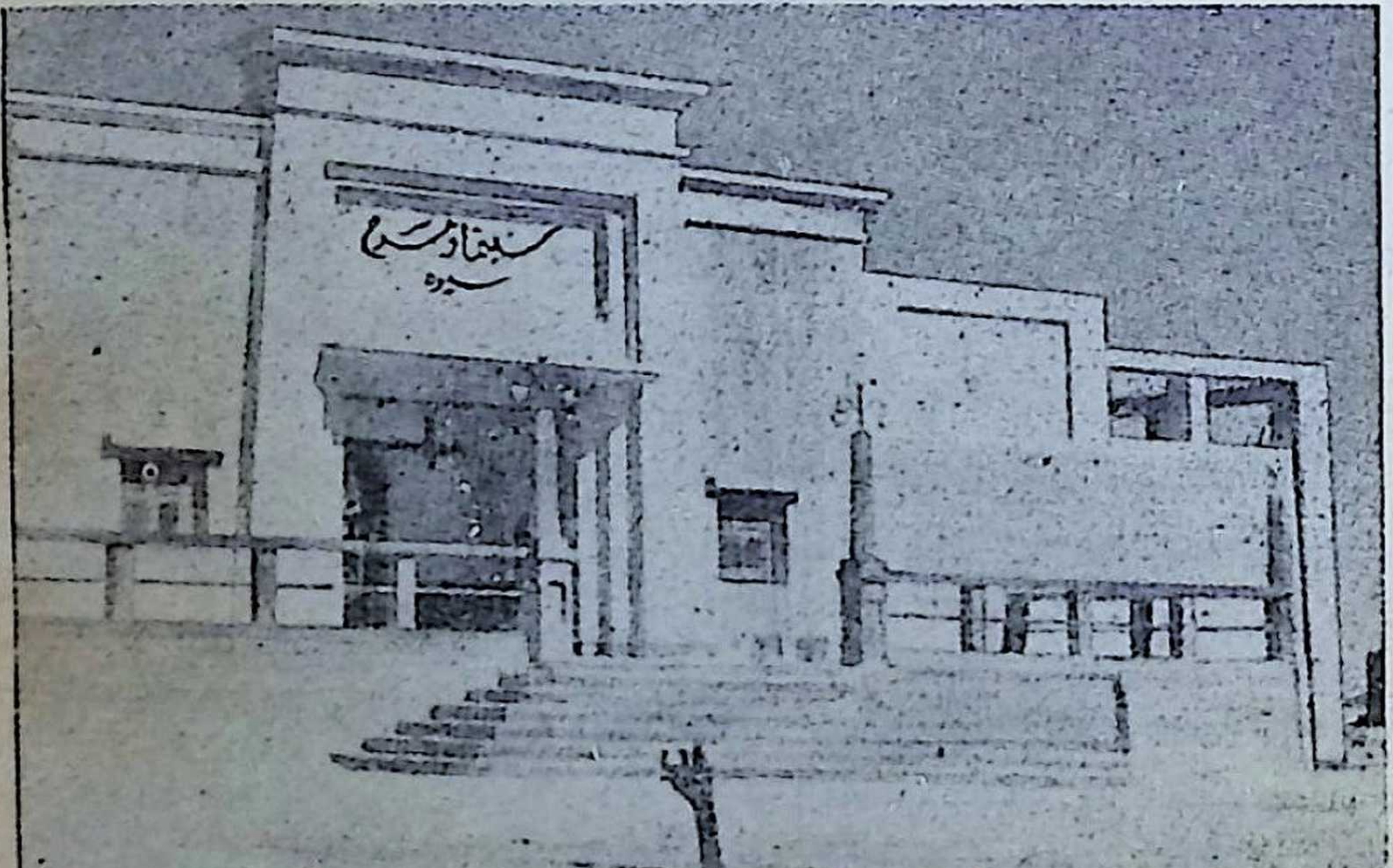

دار السينما : فن العمارة الحديث يغزو جو القدم فى الواحة

على انغامهم ، ويمارسون رقصات عنيفة ، وحشـــية .. ويشربون الخمر الشعبية ، وهى من نقيع البلح المتخمر . وقد يشربون الكحول الأحمر أحيانا ، فيسكرهم ويسلمهم الى نشوة هوجاء لا تنتزعهم منها قوة ما .

وفى ذات يوم ، يستيقظ الشاب منهم على الرغبة فى الزواج تتولد فى نفســه ، فلا يلبث أن يطلق حيـاة اللهو والعبث ، ليصبح من ارباب الأسرات .. وينتقل الى القسم الغربى من الواحة .

« خوفو » تزوج أميرة سيوية

وأهل (سيوه) سلالة من خليط من عدة عناصر : البربر ، والعرب ، واهل الصـــحراء الكبرى — من ليبيين وبدو — والسودانيين . ويصل عدد سكان الواحة الى ٤٥٠٠ نسمة تقريبا .

ومع أن اللون الأسمر يغلب عليهم ، الا ان بينهم كثيرين ينحدرون من سلالات بيضـاء ، ويمتازون ببياض البشرة ، وبالشعر الأصفر ، والعيون الملونة . والذين على هذه الشاكلة ، يحرصون على أن يتزاوجوا فيما بينهم ، ولا يختلطون بالعناصر الأخرى . وهؤلاء البيض ينحدرون غالبا من سلالات اقبلت من الشمال ، عبر البحر الأبيض المتوسط ، وانتهى بها المطاف الى السـاحل الافريقى منذ عهد بعيد ، يرجع الى حوالى ٢٦٠٠ سنة قبل مولد المسيح .

ويروى التاريخ أن الملك الفرعونى « خوفو » — من الأسرة

الرابعة - تزوج من اميرة من بنات الواحة ، انجب منهـا السلالة التى اعتلت عرش الفراعنة بعده !

وينقسم أهل الواحة الى ثمان قبائل : سيوه ، وسيبوكا ، واغورمى ، وخميسـة ، والمراغة ، وزيتون ، وابو شروف ، وقرية أم الزرير . ولكنهم - من حيث السكنى - ينقسمون فى الواقع الى فريقين : سكان الشرق ، وسكان الغرب الذين ينتظمون فى أسرات معروفة ، متحررين من البداوة القبلية .

ويعيش معظم الذين ينجدرون من أصلاب السيويين الأوائل فى قرية (اغورمى) ، حيث موقع القرية القديمة التى كانت تحيط بمعبد «آمون» ، والتى كان يسكنها الكهنة والمرشدون .

عواصف على الواحة الآمنة

ولقد تهدم معبد « آمون » فى مطلع العصر المسيحى ، فكان ذلك نذيرا بزوال العهـد الذهبى للواحـة ، وانهارت مكانتها ، ولم يعد لسكان (أغورمى) ما يدعوهم الى ان يعيشوا بمعزل عن سكان الواحة الآخـرين ، الذين كانوا يقيمون خلف اسوار عالية تقيهم عدوان الغزاة . بيد أن أهل الواحة كانوا يدركون أن هؤلاء من اتباع المعبد الوثنيين ، فلم يسـمحوا لهم بدخـول بلدتهم ، أى الجزء الغربى من الواحة .. ومن ثم انتهى بهم الامر الى الاقامة على ربوة تبعد ثلاثة كيلو مترات الى الشرق .

وعلى مر الزمن ، خفت الجفوة بين أهل الربوة واهـل البلدة ، فتزاوجوا واختلطت انسابهم . بيد ان شقاقا عصف

بالواحة فى أواخر القرن السابع عشر ، من جراء نزاع على الطريق الذى يفصل بين القسمين الشرقى والغربى . فقد ارادت احدى اسرات القسم الشرقى أن توسع دارها بالزحف على جزء من الطريق ، فاحتج جيرانها ، ثم عنفوا فى الاحتجاج . وما لبث النزاع أن انقلب الى قتال ، اشترك فيه السكان عن بكرة أبيهم ، فاصبح حربا اهلية لم يبق فرد الا ساهم فيها ، حتى .. النساء !

وظلت الفتن تعصف بالواحة من آن الى آخر ، والمعارك تتجدد من حين الى حين ، وقد تزعمت كل فريق أسرة كبرى . وكانت آخر المعارك الكبرى فى سنة ١٨٠٦ ، اثر هجوم شنه سكان الشرق .

وفى سنة ١٩٢٣ ، اوشكت المعارك ان تدب من جديد ، اشد عنفا واقسى حدة من ذى قبل . ولكن السلطات تدخلت بنفوذها وجنودها . ومع ان العداء لا يزال بسكن النفوس ، الا أن الحوادث اصبحت تقتصر على الاسرتين اللتين يشب بينهما النزاع . ولعل الأيام لا تلبث أن تطهر النفوس من السخائم ، فان سكان الواحة الجميلة ــ « جنة السعداء » ــ ينحدرون من عناصر مشتركة ، وتجمعهم عادات ، وميول ، وحاجات ، ومصالح واحدة .

نظام خاص لتوزيع الماء

والماء هو العنصر الجوهرى الأول فى الواحة .. انه مصدر الحياة والرخاء . وتقاسم الماء معناه تقاسم ثروة تفوق قيمتها

برع أهل (سيوه) فى صنع سلال ذات نسيج محبوك ، تسمى «المرجونة» .
وهذه حسناء تصب الماء فى احداها لتثبت تماسك اليافها .

كل تقدير . لذلك فقد يكون التزاحم على موارد الماء من أسباب اذكاء الأحقاد والمعارك .

وفى (سيوه) مئات من الآبار والعيون ، فليس لرصيدها من الماء حد ولا نهاية .. انه ينضح من نبات الأرض ، وينبثق من جوف الصخر ، ويفيض من أعماق التربة ، ولا يدرى احد مورده ، فهو محوط بالغموض ، لا سيما والواحة تنخفض عن مستوى البحر بأكثر من ٢١ مترا . ومن أغرب الحقائق ، ان طعم الماء يتغير بالرغم من تجاور العيون والآبار ، فمنه ما هو عذب ، وما هو مالح ، وما هو غنى بمادة الكبريت .

وتقول نظرية قديمة ان ثمة نهيرا متفرعا من النيل ، يجرى تحت سطح الأرض ، ليروى الصحراء .

وهناك نظام لتوزيع الماء ، يسود كل الواحات فى الاقليم الجنوبى ، ويقضى بأن يكون كل مورد — سواء كان بئرا أو عينا — ملكا لجماعة من الناس ، يتقاسمون استخدام مائه فى ساعات النهار والليل . ويعرف كل فرد من هؤلاء الناس نصيبه من الماء ، والأوقات التى يحق له أن يستخدمه فيها لرى ارضه اولا ، وقبل كل شىء . فاذا كان نصيبه اكثر مما تحتاج اليه هذه الأرض ، جاز له أن يقتنى مساحة جديدة يستصلحها ، ويضمها اليها ، ويزرعها . وتتوقف هذه المساحة على مقدار الفائض من الماء ، وعلى الجهد الذى يستلزمه اصلاحها وزرعها . وقد يجوز للمرء أن يبيع قدرا من مائه لأحد جيرانه ، مقابل ان يساعده هذا الجار فى فلاحة أرضه .

والعدالة فى توزيع الماء تتطلب رقابة دائمة كثيرا ما تؤدى الى منازعات . ولدى السيويين سجل مثبت فيه مقادير الماء اللازمة لكل حقل أو بستان بدقة تامة . فاذا باع امرؤ أو اشترى قدرا من الماء ، اثبت البيع أو الشراء فى السجل ، معززا بتوقيعات الشهود . والى جانب هذا السجل العام ، يحتفظ كل مالك بسجل يثبت فيه ـ بأمانة تامة ـ نصيبه من المـاء ، وما يبيعه منه ، أو ما يضـيفه اليه بالشراء ، مع توقيعات الشهود كذلك .

خيرات وفيرة فى « جزيرة السعداء »

وأهم موارد الرزق للسيويين ، هى محصـولات الزيتون والبلح . وكلا الصنفين يخلقان الى جانب الزراعة والجنى نوعا من الصناعة الأولية . ففى ارجاء (سيوه) تنتشر المعاصر لاستخلاص الزيت من الزيتون .

والواقع أن البلح هو المحصول الأول ، اذ أن الواحة تزخر بالنخيل التي تدر محصولا وافرا من أجود انواع البلح . ومن هذه الأنواع ما يجفف ـ كالنوع المعروف باسم «الصعيدى» ـ ومنه ما يدهك ويضغط لتصنع منه العجوة . ويرسل البلح المجفف والعجـوة الى مرسى مطروح ، والاسـكندرية ، والقاهرة .

كذلك يزرع القوم الأرز ، والأذرة ، والشعير ، ولكن بكميات صغيرة ، لا تكاد تفى بحاجة سكان الواحة ، ومن ثم فانهم يستجلبون ما ينقصهم منها من الوادى . وهناك تبادل تجارى

مستمر بين الوادى والواحة . اذ يستجلب الأهالى من المدن — الى جانب المحصولات الغذائية السابقة — الثياب، ويرسلون اليها الزيتون ، وزيته ، والبلح بكميات كبيرة .

وتنتج (سيوه) أيضا — وعلى مر الفصول — الخضر ، والبصل ، والطماطم ، والخيار ، واللفت ، والنعناع ، و « البقدونس » . فضلا عن أنواع جيدة من العنب، والخوخ، والتين ، والموالح ، والرمان ، والمشمش ، والتفاح ، والبرقوق. أما الماشية والأنعام ، فتحفل الواحة بالكثير منها .. فهناك من الدواب الحمير ، ومن الأغنام الماعز والغنم ، ومن الماشية البقر — وان كان قليلا — ومن الدواجن الدجاج والديوك الرومية والحمام والأوز . أما الابل فلا عيش لها فى (سيوه) ، لانخفاضها عن مستوى سطح البحر ، ولأن فيها حشرات لا تصيب سوى الابل .

الشتاء بديع ، والصيف فصل الأوبئة

أما وقد فرض على السيويين السلام ، فانهم يعيشون فى دعة وهناء وراحة بال .. وهم ذوو ذوق مرهف ، فهم يحبون

فى الصفحة المقابلة : وجوه متباينة تصادفك فى (سيوه) .. ففى الصف الاعلى — من اليمين الى اليسار — فتاة من اصل سودانى ، وابتسامة رقيقة على وجه فتاة الغلاف ، وسحنة مصرية خالصة ، ثم وجه شيخ يعزف على مزمار .. وفى الصف الاسفل — فتاة بدوية، واخرى تجرى فى عروقها دماء البربر ، ثم سحنة مغولية ، فمثال لاختلاط الدم المصرى بدم البربر

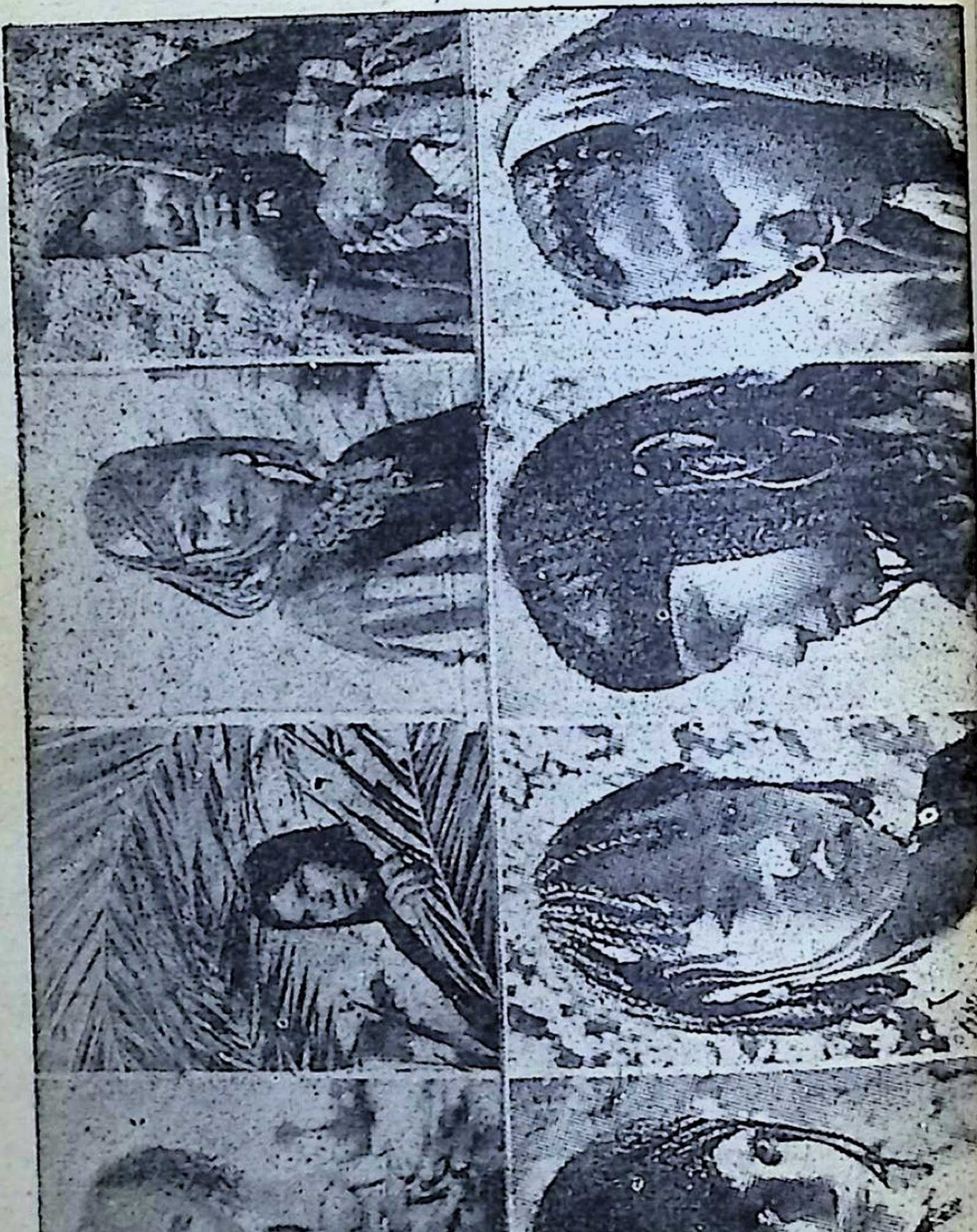

الزهور التى تنبت فى الربيع ، ويزينون دورهم بها وبفروع الأغصان التى تحمل ثمار الفاكهة . وهم يزرعون الورود ويقدمونها الى ضيوفهم اذا ما دعوهم الى موائدهم . وفى اعياد معينة يحيط الأطفال أعناقهم بقلائد من الزهور .

على ان اهل الواحة لا يميلون عادة الى الأعمال الشاقة . وكأنما قدرت الطبيعة هذه الخلة فيهم ، فدبرت لهم موارد سهلة للماء ، ووفرت لهم الماء العذب – رغم وجود كثير من آبار الماء الملح – وانعمت عليهم بتربة سخية .

وبالرغم من ان الواحة منخفضة عن سطح البحر ، وفى جوف الصحراء ، الا أن جوها من اجمل الأجواء فى الشتاء ، ولكن الرطوبة فيها قاسية فى اشهر الصيف ، والحر شديد .. وتتخللها مساحات كبيرة يغمرها الماء ، مكونا بحيرات ملحة عديدة . ومثل هذه الظروف تجعلها مباءة لعدد من الأمراض . فتغزوها الملاريا فى شهر ابريل ، وتثقل عليها مدة اربعين يوما تقريبا ، ثم تعود فى اغسطس ونوفمبر .. وهم يسمونها – فى المرة الأولى – « حمى المشمش » ، وفى المرتين التاليتين « حمى البلح » !

وأهم صناعة محلية عندهم ، هى صناعة السلال . وهم يحذقونها الى حد كبير ، ويصنعون السلال على مختلف الأشكال – من سعف النخل – ويزينونها بأسلاك من النحاس . ومن أشهر السلال التى يصنعونها « المرجونة » ، وهى نوع يستخدم فى حفظ الغذاء للرجال اثناء عملهم فى الحقول ، ويمتاز بمتانة جدرانه وتماسكها . ويبلغ من اعتزازهم به ،

واقبالهم على استخدامه ، ان « المرجونة » جزء من الجهاز الذى تحمله العروس الى بيت الزوجية .

ومن السيويين من يعملون فى صناعة الأوعية من «الفخار» ، وفى صياغة الحلى . كما ان منهم نجارين ، وترزية ، وسائقى سيارات . فان السيارات الكبيرة «الكميونات» ، هى الوسيلة الوحيدة التى يسافرون وينقلون عليها سلعهم الى (مرسى مطروح) ، حيث يستطيعون أن يستقلوا القطار الى مختلف المدن .

ساعة للرب وساعة للجد

ولقد كانت (سيوه) تستقبل – فى الماضى – كثيرا من القوافل التى تفد من شمال افريقيا ، تحمل منتجات بدو الصحراء الكبرى – الطوارق ، والتابو ، والجرانة ، والجزائريين – على مر الفصول ، ليستبدلوها بما يحتاجون اليه . ومن ثم فان الواحة كانت ملتقى أجناس وثقافات متباينة ، كان التفاهم بينها يحتاج الى وسطاء ، ولهذا تخصصت احدى العائلات السيوية فى اتقان لغات هذه القوافل . فما ان كانت أية قافلة تفد ، حتى يستقبلها رب الأسرة ، او احد ابنائه اذا كان هو متغيبا .

وكانت (سيوه) تفيد كثيرا من هذه القوافل ، ان لم تكن كسوق لبضائعها ، فكمحطة يستريح فيها البدو ، فى طريقهم الى مصر او السودان . وقد ادى انقطاعها الى نقص فى دخل الواحة ، وفى نواحى نشاط أهلها :

والحياة فى (سيوه) لم تنسق بعد لتيار المدنية الحديثة ، القائمة على السرعة والضجيج .. لذلك فهى موزعة بين العمل اليومى ، والعبادة ، واللهو .. ساعة للرب ، وساعة للجد ، وساعة للقلب !.. وليس معنى هذا أن لاتقدم ولاتطور هناك ، ولكنه تطور وئيد ، متمهل !

هل تخرج الواحة من عزلتها ؟

ولغة اهل (سيوه) بعيدة عن العربية ، كبيرة الشبه باللغة « الديموتيقية » التى كانت منتشرة بين المصريين فى عهود قديمة . على أن الحكومة انشأت هناك المدارس الحديثة ، وحرمت فيها الكلام بهذه اللغة ..

وكما تختفى اللغة السيوية رويدا بين النشء ، كذلك يختفى الزى التقليدى ، لتحل محله الثياب المدنية المألوفة فى المدارس . ولكن الأناث لا يزلن يحتفظن بالثوب الفضفاض المصنوع من قماش مخطط ، ويسمى « الرومى » .. وهو اسم يدل على أصله ، اذ انه مشتق عن الزى اليونانى . وترتدى الأنثى تحته سروالا — كالبنطلون — موشى بنقوش وتطريزات بديعة .

والفتاة تنسق شعرها — عندما تذهب الى المدرسة — على النسق المألوف لدى بنات الريف المصرى .. ولكنها — فيما عدا أوقات الدراسة — تفتن فى تنسيقه على انماط متوارثة من اقدم العصور ، وتشترك جميعها فى ان الشعر يجدل فى جدائل عديدة من كل جانب ، ثم تنسق هذه الجدائل فى

اشكال هندسية بديعة .. وتستعمل الاناث خليطامن الزيت ـ الذى يكسب الشعر نعومة ـ وعصير يستخلص من قشر التين ، ويمتاز بأنه لزج ، يثبت الشعر .

ومن هذا نلمس أن المدرسة تقوم بدور كبير وهام فى حياة (سيوه) .. فهى بفرضها اللغة العربية على النشء ، تحطم جانبا من أسوار العزلة التى كانت تحيط بأبناء (سيوه) ، اذ ان اللغة وسيلة التفاهم والفكر .. كذلك تنتزع المدرسة الجيل الجديد من الانغماس فى الحياة القديمة ، اذ تفرض الزى على الصبية ، وطريقة تنسيق الشعر على الفتيات .

ولكن .. هل يخرج السيويون حقا من عزلتهم وحياتهم الاسطورية ، فى الغد القريب ؟

الشركة العربية لأنوار النيون والفلورسنت
١٣٣ شارع محمد بك فريد
تليفون ٤٤٧٩٢ - ٤٣٨١٦

ENSEIGNES
DECORATION
ECLAIRAGE
ELECTRICITE
لافتات
زخرفة
انارة
كهرباء

الخالدون

عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة : «لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و «ماركونى» .. و «تشايكوفسكى» .. و «مصطفى كمال» .. ثم «شوبان» .. و «جى دى موباسان» .. و «مختار» و «تشارلس ديكنز» و «بيتهوفن».و «موسولينى» و «شيلى» .. و «بلزاك» و «بودلير» و «دستويفسكى» و «جيته» و «موليير» و «كونفوشيوس» و «الكسندر ديماس» و «ميكيل انجلو» ثم «ارسطو» و «اينشتين» و «فولتير» و «بيكاسو» وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى أقدم لك قصة حياة طبيب فنان هجر المجتمع الاوربى ليكرس حياته لخدمة الافريقيين ، فى ادغال اواسط افريقيا ..

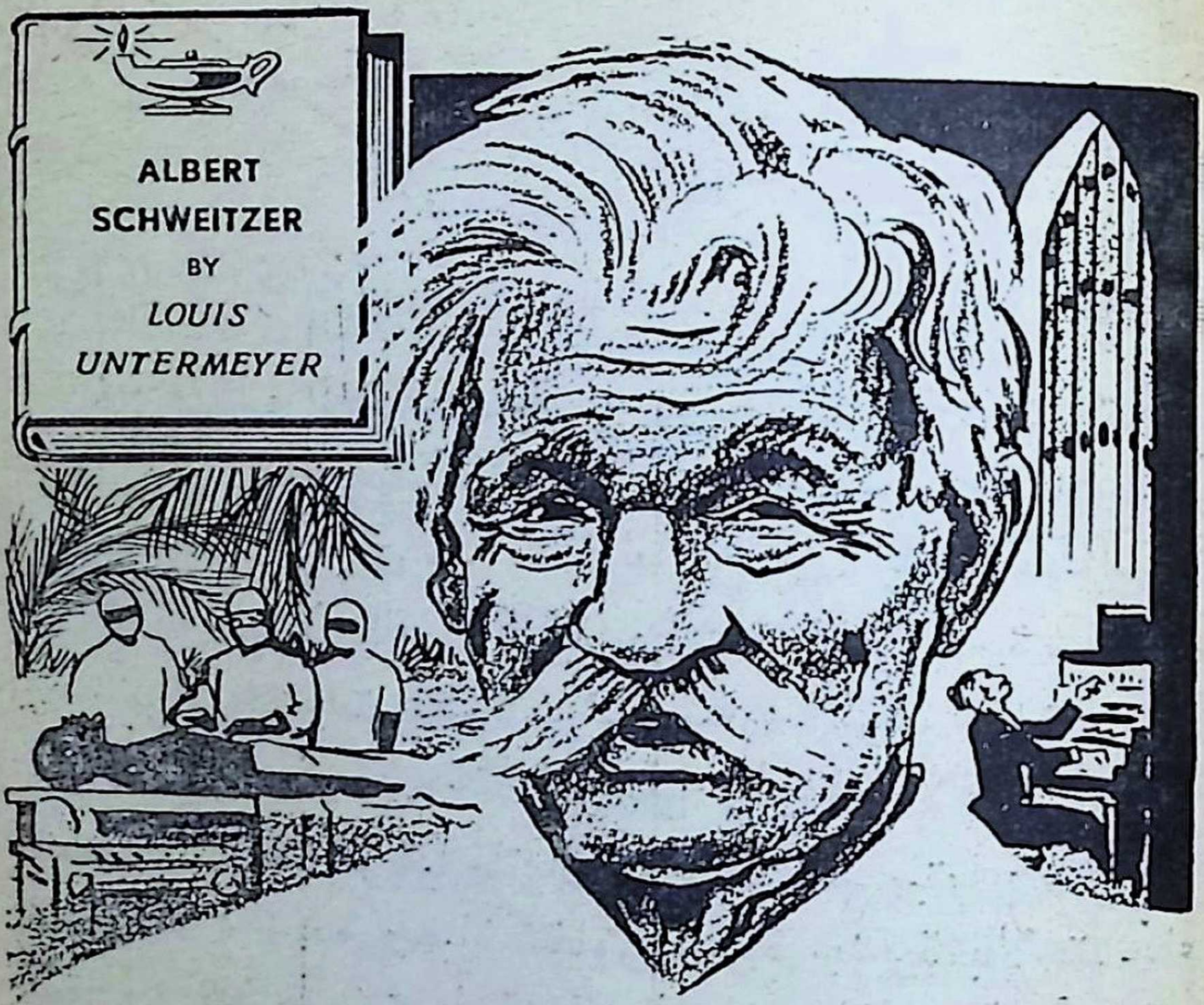

حياة تحتذى!

البرت شقايتزر

الفيلسوف .. والطبيب .. والفنان

الذى هجر مدنية أوربا ليخدم فى أدغال أفريقيا

للكاتب المؤرخ : **لويس ونترماير**

عزيزى القارىء :

فى هـذه الحقبة الهامة من تاريخ البشرية ، التى تحطم فيها شعوب افريقيا أغلال الاستعمار والمذلة ، وتنتزع ـ واحدة بعد الأخرى ـ استقلالها من بين أنياب الغاصبين عنوة .. يسر (كتابى) أن يقدم لك فيما يلى سيرة شخصية فذة من شخصيات عصرنا ، شخصية « ألبرت شفايتزر » ، الرجل الذى كرس حياته لخدمة « المواطن الافريقى » فى وقت كانت فيه افريقيا ماتزال ترزح تحت تسميتها بـ « القارة السوداء » ! .. وحياة شفايتزر حياة جديرة بالاحتذاء حقا .. كان قد شق طريقه فى الحياة موفقا ، وقد أجمعت البوادر جميعا على أن فى انتظاره مستقبلا باهرا ، مشرقا ، يتيح له عيشا هنيئا ، وحياة رغدة .. ولكنه كان يشقى بفكره .. وكان فكره يهيب به ان الانسان لم يخلق عبثا ، وانما خلق ليكون عونا لاخوته فى الانسانية ، وأن واجب المرء نحو البشر جميعا ليس واجبا سلبيا ، يؤدى وراء ابراج عاجية ، وانما هو يتطلب نشاطا عمليا بالفعل .. وان علة تخبط مدنيتنا الحاضرة ، هى انها بعدت عن المثل والقوانين الخلقية ، وما من علاج لذلك الا بتبجيل الحياة

واحتراهها .. وما من سبيل الى ذلك الا بالعودة الى المثل العليا ، بتكريس جزء من حياة كل فرد لخدمة البشر خدمة مباشرة !

هذا هو رسول الانسانية في عصرنا ، الذى دعى لتسلم جائزة نوبل فى السويد، فلم يحرك ساكنا ، لأنه كان منصرفا الى علاج الزنوج فى أواسط افريقيا .. علاج أجسامهم وأرواحهم ونفوسهم !

قديس فى القرن العشرين

• « اننى على خلاف تام مع روح العصر ، لأنها مفعمة بازدراء التفكير .. ومن الممكن تفسير هذا الاتجاه – الى حد ما – بما هو ثابت من أن الفكر ذاته لم يهتد بعد الى الغاية التى يجب أن يضعها نصب عينيه .. والطريق الوحيدة للخروج من هذا التخبط هى أن نعود – مرة أخرى – تحت سيطرة المثل العليا للحضارة الحقيقية » .

هذه الكلمات التى تضع أيدينا مباشرة على العلة التى يعانيها العصر الحديث ، لم تصدر عن فيلسوف يحتبس نفسه فى برج عاجى ، ويحاول أن يبرر عزلته بطائفة من العبارات المبهمة .. وانما قالها مبشر نشيط ، وواعظ عامل ، وموسيقى حذق فن صناعة آلات «الارغن» ، ثم هجر المدنية ،

ونفض يديه من حياة عملية موفقة ، ليقضى ما تبقى له من عمر — ولم يكن قدجاوز الثلاثين — بين اقوام غير متحضرين ، على حافة ادغال لم تنفذ اليها أضواء المدنية ، فى بقاع لايزال العالم يسميها « مجاهل » أفريقيا !

ذلك هو « البرت شفايتزر » ، الذى يعتبر أقرب الناس — فى عصرنا المادى الراهن — الى مرتبة القديسين .. والذى ظفر فى أكتوبر سنة ١٩٥٣ بجائزة نوبل للسلام ، تقديرا لتفانيه الفردى الذى أكسبه لقب « الانسان الذى لا يدانيه احد ، فى القرن العشرين » !

الدين والموسيقى فى دمه !

• **ولد** « البرت شفايتزر » فى ١٤ يناير سنة ١٨٧٥ ، فى (كايزرزبيرج) — باقليم الالزاس الألمانى — من سلالة أنجبت للعالم ، من ناحية أبيه وناحية أمه على السواء ، قساوسة ورجال دين وموسيقيين — (ولعل هذا يفسر لنا اتجاهه الى الدراسات الدينية والموسيقية منذ حداثته ، وتفوقه فى الميدانين على السواء ، وتعلقه بالمثاليات الخلقية والروحية) — فلقد كان جده لأبيه مدرسا وعازفا على الارغن، وواحدا من أشقاء أربعة جمعوا بين هذين العملين معا .. بينما كان جده لأمه راعى كنيسة الزاسية .. وكان أبوه زعيما لأبرشية انجيلية .

ولقد كان « البرت » ثانى أخوة خمسة ، اذ كان له شقيق وثلاث أخوات . ولم يكد يبلغ الخامسة من عمره ، حتى أجاد

عزف الألحان على (البيانو) باصبع واحدة . وبعد عامين ، كان قد حذق عزف الأناشيد الدينية على « الارغن » ، وشرع فى تأليف ألحان من وحى الهامه الشخصى .. الهـام الطفل الذى كان فى السابعة من عمره ! .. ولم يكن قد أتم العـام التاسع من عمره ، حين أخذ يحل محل عازف « الارغن » فى القداسات التى كانت تقام فى كنيسة (جرونزباخ) ، حيث استقرت اسرته بعد مولده بقليل ..

المسيح و « باخ » .. ينقاسمان اعجابه

• **ودرس** « ألبرت » فى عدد من مدارس اقليم (الالزاس) المختلفة ، فكشف ـ منذ البـداية ـ عن ميل خاص للعلوم الطبيعية ، حتى انه راح يتزود منها بما يتجاوز نطاق المناهج المدرسية ، متتلمذا فى هـذه الناحية على الفرنسى « شارل مارى فيدور » ، الذى كان ذا صيت ذائع اذ ذاك .

واذ بلغ الثـامنة عشرة من عمـره ؛ التحق بجـامعة (ستراسبورج) ، حيث انصرف الى دراسة اللاهوت والموسيقى ، مدفوعا باعجاب شديد ، متحمس ، بشخصيتى المسيح وباخ ـ الموسيقى الألمانى ـ على السواء ، ومعا .. اى ان اعجابه بكل منهما كان جزءا مكملا لاعجابه بالآخر !

وأتم دراسته فى (ستراسبورج) وهو فى الثانية والعشرين من عمـره ، فرحل الى (باريس) ليلتحق بالسوربون كى يدرس الفلسفة ، وليستكمل ـ على يدى « فيـدور » ـ مرانه الفنى فى العزف على « الارغن » .. وقـد اكسبته

دراسته فى فرنسا مرونة فى الناحيتين ، ماكانت لتتسنى له لو انه اقتصر على الدراسة فى المانيا .

صرح مشيد بالنغم !

• وأتم « البرت » دراسته الفلسفية بنجاح ، فحصل على شهادته العليا وهو فى الرابعة والعشرين من عمره .. وعين واعظا فى كنيسة القديس « نيكولاس » فى (ستراسبورج)، كما أصبح محاضرا فى الجامعة التى كان طالبا بها ـ جامعة ستراسبورج ـ فى فقه الدين واللاهوت . وقد بهر الأذهان بسعة ادراكه وفهمه لمنشأ وتطور المعالم الدينية ، كموضوع « العشاء الأخير » و « التعميد » . وألهمه هذا أن يضع كتابا بعنوان « بحث فى شخصية المسيح التاريخية » ، ظهرت الطبعة الأولى منه فى سنة ١٩٠٦ . وفى تلك الفترة ذاتها تقريبا ظهر كتاب له خلد فيه ذكر « باخ » ومجده .. وهكذا ظل دائما على وفائه المشترك للشخصيتين !

ولقد خالف شفايتزر ـ فى كتابه عن « باخ » ـ كل من سبقوه فى الكتابة عن هذا الموسيقى الألمانى . فقد اعتاد الكتاب ان يروا فى « باخ » متعنتا فى التمسك بالقديم المأثور ، ولكن « شفايتزر » رسمه فى شخصية الشاعر ، والرسام الذى يرسم اللوحات بالأنغام ! .. وقد قال فى هذا الصدد : « ان موسيقاه شاعرية ، وتصويرية ، لأن غاياتها مستمدة من أفكار شاعرية وتصويرية .. ومن هذه الغايات ، يبرز اللحن أشبه بصرح كامل البناء ، شيد بعبارات من نغم ..

وان روح اللحن لتتجلى كما يتجلى فن العمارة القوطى لو انه تحول الى صوت ! »

حجة فى صناعة الأرغن !

• **واستكمالا** لدراسته لفن «باخ» وأساليب هذا الموسيقى الخالد فى العزف على الأرغن ، وما اكتسبه « شفايتزر » نفسه من حذق وبراعة فى العزف على هذه الآلة وفى صنعها ، وضع كتابه : « فن صناعة الأرغن والعزف عليه ، فى ألمانيا وفرنسا » . واصبح حجة فى تجديد الأطرزة القديمة ، وفى انشاء أطرزة جديدة من هذه الآلة الموسيقية .. حتى لقد كانت تصميمات الأجهزة الجديدة ترسل اليه ليفحصها ويقرها أو يجرى عليها ما يراه من تنقيح وتعديل . وبلغ من شغفه بهذا الفن انه قام برحلات عديدة ليساعد فى تجديد أجهزة « الأرغن » القديمة .. وهكذا أصبح مرجعا فنيا معترفا به فى هذه الناحية . وكان خليقا به أن يرى فى هذه المكانة ضمانا لمورد يكفيه طيلة العمر ، ويطمئنه الى الأعوام المقبلة .. غير انه لم يكد يبلغ الثلاثين من عمره ، حتى اتخذ قرارا عجيبا — ولكنه حاسم — كما يفعل أبطال الروايات !

يدرس الطب .. ليخدم الافريقيين !

• **ويتمثل** هذا القرارفى عزمه على أن يدرس الطب، ليؤهل نفسه للعمل كطبيب .. وأين ؟ .. فى اواسط افريقيا ، فى المنطقة الاستوائية بالذات !

ولقد أذهل هذا الاتجاه أصدقاءه ! .. وحاول أحدهم ان

يعبر عن هذه الدهشة البالغة ، فى عبارات متلطفة ، فقال له: « لقد كنت تنقذ أجهزة الأرغن القديمة فى أوربا ، ويلوح انك تبغى الآن أن تنقذ الزنوج فى افريقيا ! »

على أن آراء أصدقائه ودهشتهم لم تستطع أن تؤثر على تصميمه . فالواقع ان الأمر لم يأته عفو الساعة — وان كان القرار قد اتخذ فجأة — وانما كانت الفكرة قد راودت « شفايتزر » قبل ذلك بسنوات .. بل لقد كان لها أصل راسخ فى أفكاره منذ أيام الدراسة ، اذ كثيرا ما كان يرى ان من عدم الانصاف أن يتاح له عيش هنىء ، وحياة رغدة ، وسط آلام سواه . وقد انتهى — وهو فى الثانية والعشرين من عمره — الى رأى سجله على نفسه ذات صباح : « خليق بى أن أرى ان من حقى ان اكرس حياتى للفن والعلم ، الى ان أبلغ الثلاثين .. وذلك حتى انصرف بكل نفسى — منذ هذه السن — الى خدمة الانسانية مباشرة . فكم من مرة حاولت ان ابت برأى فى المعنى الذى اراه كامنا فى قول المسيح : « من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها » ! .. وقد اهتديت الى الجواب ، فأصبحت أنعم بالسعادة الداخلية ، الى جانب ما أنعم به من سعادة ظاهرية » !

كيف تولدت الفكرة فى نفسه ..

• وكان الفارق الوحيد بين الرأى الذى اهتدى اليه « شفايتزر » — وهو فى الثانية والعشرين — والقرار الذى اتخذه فى سن الثلاثين ، هو انه لم يفكر فى المرة الأولى فى ان

يبرح أوربا .. بل مكث فترة من الزمن يفكر فى رعاية الأطفال المنبوذين ، وفى أن يعلمهم .. ولكن المؤسسات التى كانت مقامة لتتكفل بالمحرومين ، والمهملين ، والمنحرفين من الأطفال، لم تشأ أن تتعاون معه !

ومن ثم ، تحول الى التفكير فى العناية بالمشردين ، والمسرحين من السجون . بيد أنه لم يلبث أن تبين ان من غير الميسور له ان ينفذ هذه الفكرة عمليا ، هى الأخرى .

وفى تلك الفترة التى كان حائرا فيها ، يحاول أن يبحث عن منفذ يلج منه ميدان الخدمات الانسانية ، نشرت مجلة كانت تصدرها احدى جمعيات الارساليات التبشيرية فى (باريس) ، مقالا بينت خلال سطوره حاجة (جابون) — وهى الولاية الشمالية فى (الكونغو) الفرنسية السابقة — الى اطباء .. فما ان فرغ من قراءة المقال ، حتى شعر بأنه قد قدر لحيرته أن تنتهى ، وانه قد عثر على المنفذ المنشود !

الطب وسيلة العمل دون كلام !

• **ولم** يعجب « شفايتزر » من أن يجد اهله واصدقاءه قد اجتمعوا على معارضته والاحتجاج على قراره، فقد تبين ان قلة من الناس هم الذين على استعداد لأن يعملوا بأقوال المسيح ، وان كانوا جميعا يؤمنون بها .. وقد وصف شعوره اذ ذاك ، بقوله : « شعرت بأن مسلك أولئك الذين لم يحاولوا أن يدفعوا قبضاتهم فى قلبى، وانما اقتصروا على أن يعتبرونى شابا غريب الأطوار ، غير مستقر العقل ، فعاملونى — لهذا —

بسخرية مشوبة بالعطف .. شعرت بأن مسلكهم كان نوعا من كرم النفس الحقيقى » !

ولم يعد عند معارفه شك فى اختلال عقله ، حين تبينوا ان رغبته فى الذهاب الى أواسط أفريقيا لم تكن سوى « شطر » من قراره .. أما الشطر الثانى ، فقد تمثل فى انه لم يكن راغبا فى الذهاب كواعظ ومبشر ، وانما ك .. طبيب !.. اذ كيف يعقل أن يتجشم شاب فى الثلاثين من عمره عناء دراسة الطب – وهى دراسةطويلة تستغرق سنوات ليست بالقليلة– لكى يذهب فيدفن نفسه وعلمه فى « مجاهل القارة المظلمة » ؟ .. وكان رد شفايتزر عليهم : « انما رغبت فى أن أدرس الطب ليتسنى لى أن أعمل دون أن أتكلم . لقد انسقت سنوات للكلام ، ولبيت النداء لأكون مدرسا للاهوت وواعظا ، وإنا مغتبط . أما فى هذا الشكل الجديد للنشاط ، فلن أقتصر على الكلام عن دين المحبة ، وانما سأطبقه عمليا ! »

عيادة فى .. « عشة » الدواجن !

• **وهكذا** عكف « شفايتزر » – خلال السنوات السبع التى اعقبت ذلك – على دراسة الطب . ولكن هذا لم يشغله عن الناحيتين اللتين شغف بهما من قبل– الدين والموسيقى– ولا عن الشخصيتين اللتين كانتا ترتبطان بهما : المسيح ، وباخ .. فمضى قدما فى أبحاثه فى علاقة شخصية المسيح بالتاريخ ، كما أعد – بمعونة « فيدور » – خمسة أجزاء من دراسة وافية لموسيقى « باخ » وأساليبه الفنية الأرغنية .

وعندما أوشك أن يتم دراسته الطبية ، تزوج من « هيلين

بريسلاو» ، وهى ابنة أحد علماء التاريخ .. حتى اذا استكمل فترة العمل كطبيب امتياز ونائب فى المستشفى ، واتم بحوثه فى امراض المناطق الحارة والاستوائية ، رحل مع زوجته الى (لامبارينى) ، وهى قرية صغيرة فى أواسط أفريقيا كانت تحت سيطرة الفرنسيين .

وكانت الظروف هناك كفيلة بأن تثبط همة اى شاب فى مقتبل الشباب ، فما بالك بشفايتزر وهو يجتاز أوسط الشباب ؟ !.. فلم تكن البنايات - التى كان مقررا أن يمارس فيها خدماته الطبية - قد شيدت بعد ، وكانت حجرة العيادة اشبه بـ «عشة» للدواجن، ملحقة بمسكنه.. وكان الحر شديدا لا يطاق . وفوق كل هذا ، لم يستطع « شفايتزر » - لفترة من الزمن - ان يعثر على أفراد من الأهالى يصلحون لأن يعدهم كممرضين وخدم فى العيادة !

دكتور فى الطب وفى الدين ..

• **على ان** نبأ وصول طبيب الى (لامبارينى) لم يلبث ان انتشر ، فسرعان ما اقبل المرضى من مسافات - كانت تصل احيانا الى مائتى ميل ! - ينشدون معونة هذا الطبيب فى مقاومة عللهم .. ولم تنقض فترة طويلة، حتى الفى «شفايتزر» نفسه قد تجاوز نطاق الأمراض التى كان قد أعد نفسه لعلاجها - وهى : الملاريا ، ومرض النوم ، والديسنطاريا ، والبرص ، التى تعتبر أشد الأوبئة استفحالا هناك - فاذا هو مضطر الى ان يجرى عمليات جراحية لعلاج الفتق ، والقرح ، ومرض الفيل .. الخ

وكأنما لم تكن كل هذه المهام كافية ، فراح الارساليون (المبشرون) يلحون عليه فى أن ينفض الغبار عن مؤهلاته كدكتور فى العلوم الدينية ، حتى أقنعوه بالعمل كواعظ ومبشر .. ولم يكن ثمة بد من أن يستعين – فى ذلك – بمترجم ينقل عظاته الى لسان القوم ، فوجد فى هذا تجربة جديدة ، وصفها بقوله : « كان عملا مجيدا ، جليلا .. ان أعظ اناسا لم يعرفوا شيئا البتة عن المسيح وبولس الرسول ، بأقوالهما » !

وحتى فى هذه الظروف ، لم ينس الشخصية المكملة للمسيح – فى مثله العليا – فكان يعكف فى أوقات فراغه على اتمام الأجزاء الثلاثة الباقية من مؤلفه عن أساليب « باخ » الفنية فى العزف على الأرغن .. كما كان يصون مهارته فى العزف على هذه الآلة ، بالاستعانة ببيانو جهز خصيصا لهذه الغاية !

يؤلف كتابا وهو فى المعتقل

• **ولم يكن** «شفايتزر» وزوجته – التى أصبحت ممرضته وسكرتيرته وذراعه اليمنى – قد قضيا عاما فى أفريقيا ، عندما اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى . ولما كانا من رعايا المانيا ، فان السلطات الفرنسية اعتقلت الزوجين بوصفهما « من رعايا الأعداء » ! .. وقد وصف شفايتزر شعوره ازاء هذا العمل ، فى كتابه : « من حياتى وفكرى » ، بقوله : « ولقد كان من الأمور التى استعصت على ادراك الأهالى ، أن يأسر البيض بيضا آخرين ، ويضعوهم تحت سلطان جنود

من السود ! » .. كانت مفارقة غريبة فى سلوك البيض ـ الذين يزعمون أنهم رسل النور والمدنية ـ حيرت أولئك الزنوج الرازحين تحت وطأة الاستعمار وركامات الجهل !

وازاء هذه الأزمة التى رأى العالم المتحضر يخوض غمارها ، نشط ذهن « شفايتزر » وراح يفكر فى عالم مجنون تدفعه مدنيته الى أن يحارب نفسه .. ولم يكن قد انقضى عليه يومان فى المعتقل ، حين شرع فى وضع كتاب جديد : « فلسفة المدنية » !

« تبجيل الحياة » .. سبيل انقاذ الانسانية

• **ولم** يقع بصره على العالم القائم خارج المعتقل ، الا بعد ستة عشر شهرا ، حين سمح له بأن يعود مريضة ـ كانت زوجة لأحد المبشرين ـ على أكثر من مائة ميل .. ويروى « شفايتزر » هذه القصة فيقول :

« .. وجلست على سطح النقالة النهرية (الصندل) مغرقا فى التفكير ، أكافح فى سبيل الوصول الى المعنى الأول الشامل للقوانين الخلقية .. المعنى الذى لم أكن قد اكتشفته فى أية فلسفة . ورحت أملأ ورقة بعد ورقة ، بجمل غير متصلة ولا مترابطة ، لمجرد البقاء مستغرقا فى المسألة . وفى ساعة متأخرة من نهار اليوم الثالث ، فى اللحظة التى كنا نشق فيها طريقنا خلال قطيع من أفراس البحر ـ عند غروب الشمس ـ أومضت فى ذهنى ، على غير توقع ولا قصد ، عبارة « تبجيل الحياة » .. فاذا الباب الحديدى يتداعى ، واذا الطريق خلال الغابة الكثيفة تتجلى . ووجدت سبيلي

الى الفكرة التى يجتمع فيها التأكيد الايجابى للدنيا والأخلاق ، جنبا الى جنب . وأصبحت أعرف أن تقبل الدنيا والحياة – على ضوء القواعد الخلقية – مع المثل العليا للحضارة التى تنتظم جميعا فى هذا المعنى ، يستند الى أصل ومنبت فى الفكر البشرى » .

وسنسوق اليك – فيما بعد – شرحه لفلسفته هذه ..

يعتقل فى مستشفى للامراض العقلية !

• **وأصبح** « تبجيل الحياة » هو الشعار الذى يشد ازر « شفايتزر » وهو يجتاز المحن والضائقات .. فكان عدته وعتاده عندما شحن على ظهر احدى السفن الى أوربا ، واودع فى معسكر الاعتقال الفرنسى فى (جاريسون) ، ثم فى معسكر (سان ريمى) ، حيث انزل فى مبنى كان يوما مصحا لذوى الأمراض العقلية ، وقد أودع فيه – ذات مرة – الرسام المعروف « فان جوخ » .

وما ان حانت الهدنة ، حتى بدا أن « شفايتزر » قد ادخر – خلال فترة اعتقاله – قوة بدنية وروحية . فأصبح اكثر اصرارا وعزيمة على أن يذهب الى حيث كانت الحاجة ماسة اليه .. الى أواسط أفريقيا .

وأخذ يقيم حفلات يعزف فيها على الأرغن ، ويلقى المحاضرات ، ليجمع اكتتابات تمكنه من أن يستأنف عمله فى (لامبارينى) ويواصله . وقد طاف بسويسرا ، والسويد ، والدانيمرك ، وانجلترا ، فى سبيل هذه الغاية ..

ولم يلبث ان رحل عائدا الي أفريقيا .. الي (لامبارينى) .

الموسيقى والمحاضرات لجمع الاكتتابات

• وأصبحت حفلات العزف على «الأرغن» ، والمحاضرات، هما وسيلتاه فى سبيل اداء مهمته الانسانية . فكلما احتاج مستشفاه الى أدوية أو ادوات طبية ، قام بجولة فى ارجاء أوربا ،فعزف على أقدم أراغنها واضخمها ، والقى المحاضرات فى كل مكان ، وجمع الاكتتابات اينما حل .

وفى سنة ١٩٤٩ ، رحل الى الولايات المتحدة – للمرة الأولى فى حياته – ليلقى المحاضرات فى الاحتفال بالذكرى المئوية للشاعر الألمانى الأكبر « جيته » .. وهو الاحتفال الذى أقيم فى (آسبن) ، بولاية كولورادو .

وطار صيت « شفايتزر » ، وذاع حديث العمل الانسانى الذى يقوم به . فلما قامت مؤسسة الفنون القومية – فى امريكا – باستفتاء بين الفنانين والموسيقيين والمؤلفين فى ثمانى عشرة دولة – فى سنة ١٩٥٠ – فاز شفايتزر دون الجميع بلقب « رجل القرن العشرين » !

قط وحشى يسهر حول مصباحه !

وكان خليقا به أن يهنأ بهذا الفوز ، فهو – برغم كل شيء – انسان ! .. بيد انه كان اهنأ نفسا ، واكثر فخرا ، بنجاح رسالته ، واتساع المؤسسات التى اقامها فى افريقيا .. كذلك كان من دواعى غبطته فى الحياة ، ان تبين ان ابنته الصغيرة كانت تشاطره حبه لكل الكائنات الحية ، فاتخذت من ستة من « الشمبانزى » وخمسة من الظباء ، زملاء للعب فى ساحة المستشفى فى (لامبارينى) !

وقد كتب أحد الذين فازوا بمنحة « شفايتزر » التعليمية ـ وهى منحة انشئت لتكريمه حين بلغ الخامسة والستين ـ يصف أحد مناظر الحياة فى (لامبارينى) ، فقال : « فى الساعة السابعة والنصف رن الجرس ايذانا بموعد الفطور ، فخرجنا الى عالم غريب .. وياله من عالم ، تجد فيه تحت سقف البيت وحوله ، معرضا حقيقيا للحيوانات : دجاج ، وأوز ، وديكة رومية ، وقطط ، وكلاب ، وماعز ، وظباء ، وطيور ، الخ .. وهناك طائر من نوع « البليكان » ، يعتبر تقيا مخلصا فى تقواه ، فهو يعود يوميا ليختلط بالطيور والوحوش التى تلتف حول الدكتور شفايتزر ، وكأنها فى قداس دينى .. انه بحق نسخة أخرى من القديس فرانسيس الأسيسى ! وفى الأمسيات ، عندما ينصرف الدكتور الى فلسفته ، يستلقى حول مصباحه قط مخطط باللونين الأبيض والأصفر ، كان قد أنقذه وهو هرير صغير .. »

المتشائم .. المتفائل !

• **ولا يزال** الدكتور شفايتزر يحتفظ بشعره غزيرا ـ وان كان الشيب قد ساده ـ برغم تجاوزه العام الرابع والثمانين من عمره .. ولا تزال عيناه الزرقاوان لامعتين ، تنظران الى العالم فى تسامح وسماحة وثقة ، برغم ما تريانه فى كل يوم من مظالم وعدم انصاف .. على انه غير مقتنع بأن هذا العالم هو خير عالم ممكن .. بل انه ليرى نفسه أحيانا مثاليا موزع النفس .. فهو متشائم مما رآه فى حياته عن الانسانية ، ولكنه متفائل بفضل ما يخالجه من آمال فيما يرجو أن تصبح عليه

هذه الانسانية .. وهو يقول : « اننى فى حكمى على الموقف الذى يجد فيه الجنس البشرى نفسه – فى الوقت الحاضر – متشائم . فلست أقوى على أن أحمل نفسى على الايمان بأن هذا الموقف ليس من السوء بالدرجة التى يبدو عليها . بل اننى أشعر – فى دخيلتى – بأننا فى الطريق التى ستحملنا – اذا واصلنا السير فيها – الى « عصور وسطى » من لون جديد ! .. ومع ذلك ، فأنا متفائل .. » !

شطر من حياة الفرد للمجموع

• وعلام يبنى تفاؤله ؟ .. على امكان أن يسترد الفكر والقواعد الخلقية قوتها على الروح البشرية . وهو يبين هذا بقوله : « لو وجد رجال يتمردون على روح عدم التفكير ؛ وتتوفر لهم القوة الكافية لتمكين المثل العليا للرقى الخلقى من أن تشع منهم كقوة ، فسوف تبدأ الروح نشاطا سيكون من الضخامة بحيث يوقظ استعدادا عقليا وروحيا جديدا فى الجنس البشرى .. فبالنسبة لكل امرىء ، مهما تكن الحال التى يجد نفسه عليها فى الحياة ، تفعل القوانين الخلقية لتبجيل الحياة ما يلى : « انها تدفعه دون توان الى الاهتمام بجميع المصائر والأقدار البشرية الأخرى ، التى تمضى حوله فى مجراها .. وتدفعه الى أن يمنح نفسه – كانسان – للانسان الذى يحتاج الى زميل من البشر . فهى لن تدع رجل العلم يعيش لعلمه فقط ، ولو كان علمه يجعله عظيم النفع .. ولن تدع الفنان يعيش لفنه فحسب ، ولو كان بفنه يمنح الكثيرين شيئا ما .. وهى لا تسمح لصاحب الجد ، الجم المشاغل ، أن يظن أنه بألوان نشاطه فى مهنته قد حقق كل

مطلب مفروض عليه .. انها تطالب الجميع بأن يكرسوا شطرا من هذه الحياة لأخوتهم فى البشرية » .

هذه سبيل انقاذ المدنية !

• **هذا** المطلب ، هو لب فلسفه شفايتزر : « تبجيل الحياة » . ولكنه ينطوى على ما هو أكثر من مجرد « التبجيل » . انه يدعو الى حياة عاملة ، وليست سلبية .. حياة يكون فيها الأخذ والبذل فى مرتبة ثانوية ، اذ تتقدم عليهما المشاركة .. أن يتشارك بنو البشر ، فيخصص كل منهم قسما من حياته لخدمة اخوته .

انها رسالة جديدة ، وان كان الحكماء والمصلحون والفلاسفة قد رددوها فى عصور سالفة .. وهى تكتسب جدتها من انها تبرز فى عالم طغت فيه المادة على الأخلاق والروح والفكر ، فشغلت كل انسان عن اخوته من البشر !

وفى أكتوبر سنة ١٩٥٣ ، ظفر « شفايتزر » بجائزة نوبل للسلام ، تقديرا لهذه الرسالة الجليلة التى كرس لها حياته ، والتى جعلته فريدا ، « لا مثيل له فى القرن العشرين » .. « رجل القرن العشرين » حقا !

ومع ما فى هذا من تقدير عالمى عظيم الشأن ، فان « شفايتزر » لم يذهب الى السويد ليتسلم الجائزة ، وليتقبل التكريم .. بل ضن بالوقت الذى تستغرقه الرحلة ، اذ كان جد منصرف الى الآدميين المجهولين ، الذين لا حصر لهم ، والذين يعتمدون على عونه وارشاده وخدماته .. فى أواسط افريقيا !

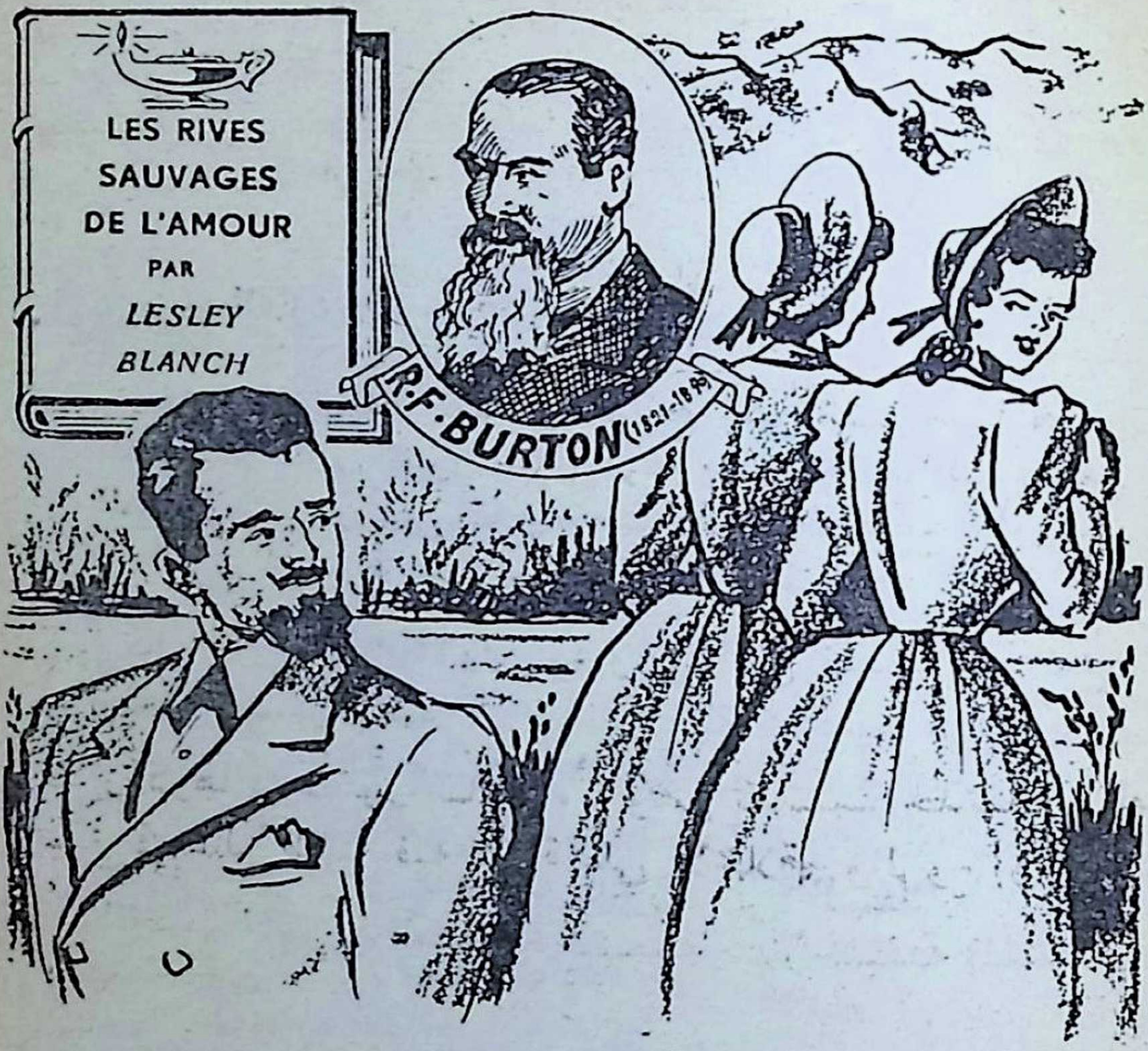

شواطئ الحب الضارية!

أسيرة الحب

قصة حياة ومغامرات الرحالة الذي جاب أقطار الشرق "رتشارد برتون"

للكاتبة الفرنسية "ليسلي بلانش"

تلخيص : ماهر مينا

عزيزى القارىء ..

هذه هى ثالثة القصص الاربع التى تضمنها هذا الكتاب ، والتى تدور حول اربع نساء مغامرات عشقن الشرق فتمردن على اغلال مجتمعهن ـ المجتمع الاوروبى فى القرن التاسع عشر ـ وتقاليده ..

وكانت القصة الاولى ـ وهى التى نشرت فى العدد (٨٤) ـ عن المغامرة الفرنسـيـة « ايميه دوبوك دى ريفيرى » ، ابنة عم الامبراطورة الفرنسية «جوزفين»، التى اختطفهـا القراصنة واهدوها الى « بابا محمد » حاكم الجزائر ، فأهداها بدوره الى السلطان « عبد الحميد الأول » العثمانى، لينجب منها خليفته السلطان « محمود » ..

أما القصة الثانية ـ التى نشرت فى العدد (٨٦) ـ فكانت عن مغامرة من أصل روسى ، دفعهـا النزوع الفطرى للتصوف الى اعتناق الاسلام ، واغراها حب المغامرات بالتنكر فى ثياب الرجال ، ثم راحت تضرب فى الصحراء ، حيث صادفت غراما جامحا ، ومغامرات عنيفة ، الى ان اغرقها سيل ـ فى الصحراء ! ـ بعد ان صارت شخصيتها اسطورة لدى الجزائريين ..

واليوم ، اقدم لك ثالثة بطلات « شواطىء الحب الضارية » ..

ذو القسمات العربية السمراء .. أمنيتها الوحيدة !

كانت تعرف غايتها منذ فجر صباها ، فاتجهت اليها بكل كيانها وجوارحها ، تدفعها قوة دافقة أشبه بقوة الآلة البخارية ! .. وابدا لم تستشعر بعد ذلك أى احساس بالشك او الندم يجعلها تتطلع الى الماضى فى ألم وحسرة . كانت روحها تهفو الى الشرق ، وتتوق الى الهجرة اليه ، فلما وقعت أنظارها على « ريتشارد برتون » ، ولمحت قسماته العربية السمراء ، ونظرته التى تشبه نظرة الفهد المتربص ، ادركت على الفور انه رجل احلامها الذى بعثت به الأقدار لكى يشاركها حياتها ، ويحقق امانيها ! فأخذت تتابع انباء رحلاته وتنقلاته الخارقة ـ فقد كان من أكبر الرحالين فى عصره ـ حتى اذا ماقدر لها أن تلتقى به بعد غياب طويل ، كان قد صار مثلها الأعلى ، وأضحى عالما قائما بذاته يملأ قلبها العاشق .. وقد كتبت الى امها ، بعد ذلك ، تصف لها مبلغ حبها له وتعلقها به : « اننى أريد ان اعيش معه ليل نهار .. حتى آخر أيامى ! .. ولو كنت رجلا ، لتمنيت ان اكون ريتشارد برتون . ولكن ، بما اننى لست سوى امرأة ، فانى أريد ان أصير زوجة له ! » .. فلقد كانت رغبة عارمة تلك التى تسلطت على قلبها وعقلها ، فجعلتها تصر على الا تفارق حبيبها قط فى الحياة .. وفى الموت !

نبوءة العرافة الغجرية !

كانت « ايزابيل ارندل » تنحدر من أسرة انجليزية لم تكن على شىء كبير من الثراء ، ولكنها كانت من اعرق الأسر

الكاثوليكية التى عرفت فيما مضى بقوة سلطانها ونفوذها فى انجلترا . وقد ولدت « ايزابيل » فى لندن ، بيد انها مالبثت ان انتقلت مع أسرتها الى الريف حيث قضت طفولة هادئة بريئة حفلت بألوان اللهو والمرح التى تسخو بها حياة الريف وتجود على من يعيش فى رحابها . فقد رات أسرة ايزابيل ـ قبل ان تبلغ الفتاة وشقيقاتها السن التى تؤهلهن للظهور فى المجتمع اللندنى ـ أن تهجر لندن مؤقتا ، فتقيم فى منزلها الريفى باقليم (اسكس) ، توفيرا للنفقات الطائلة التى تتطلبها الحياة الاجتماعية الصاخبة فى لندن . وفى الغابات الشاسعة التى كانت تحيط بالبيت الريفى الهادىء ، تولد فى قلب الفتاة ـ لأول مرة ـ حب غامر للشرق ، وشوق طاغ الى ارتياد بلاده الساحرة !. . كانت ايزابيل تجتاز فترة عصيبة من فترات المراهقة ، وكانت فتاة عنيدة ، شديدة التحفظ ، تميل الى العزلة ، حتى انها كثيرا ما كانت تؤثر أن تقوم بنزهاتها فى الغابة بمفردها بعيدا عن شقيقاتها . وفيما كانت تقوم ذات صباح باحدى نزهاتها اليومية ، وقع نظرها فجأة على مخيمات تسكنها بعض قبائل الغجر . . فتملكتها سعادة جامحة ، واقبلت على تلك القبائل تمضى معها أياما بأكملها وسط كهوفها ومغاورها المتناثرة فى غابات اسكس ، اذ كانت تشعر بقوة لا سبيل الى مقاومتها ، تدفعها نحو هذا الشعب الحر الغامض !

وسرعان ما توثقت الروابط بين ايزابيل ورجال الغجر ونسائهم ، فاذا بها تحتل مكانة كبيرة فى قلوبهم ، وتظفر بحبهم وثقتهم . وذات يوم ، التقت ايزابيل بعرافة من نساء

الفجر تدعى « هاجر برتون » ، فطلبت اليها أن تكشف لها عن طالعها ، وتنبئها بما يخبئه لها المستقبل . فقالت لها العرافة: « لسوف تعبرين البحار ، وتقيمين فى عين المدينة التى يوجد فيها « نصيبك » . بيد انك لن تعرفيه ! .. وستقوم عقبات كئود فى طريقك ، وستنشأ ظروف تعرقل مساعيك ، حتى لسوف تكونين فى حاجة الى كامل شجاعتك ، وعزمك ، وفطنتك ، لكى تستطيعى التغلب عليها ! .. وستحملين اسم قبيلتنا ، وسيكون ذلك من دواعى فخرك وزهوك .. اما حياتك فستحفل بالرحلات والتنقلات . وستكونين انت وزوجك روحا واحدة فى جسدين .. لن يقدر لهما أن يفترقا قط ! »

وما أن عادت الأسرة الى لندن حتى اخذت تتهيأ لاطلاق ايزابيل فى الاوساط الاجتماعية التى يلتقى فيها علية القوم . وسرعان ما راح طلاب الزواج يلاحقون الفتاة ، وقد بهرتهم فتنتها ، واستهوتهم عراقة نسبها ، فتقدموا الى ذويها يطلبون يدها ، وكل منهم يمنى نفسه بالفوز بالفتاة الفاتنة . على ان ايزابيل ما كانت لتعيرهم التفاتها بل كانت تلقاهم دائما باستخفاف وعدم اكتراث ظاهرين ! .. وعبثا حاولت والدتها وعماتها — بالتوسل تارة وبالتقريع تارة اخرى — ان يثنينها عن موقفها ، فقد كانت ثمة مشروعات اخرى تملأ راس الفتاة وتشغل قلبها المرهف !

وما كان فى وسع ايزابيل ان تطلع احدا على سر طالعها الذى كشفت لها عنه ذات يوم العرافة « هاجر » . فقد كانت تخشى أن تثير بذلك اشمئزاز شباب لندن المترف الذى

كان بدوره يبعث الامتعاض والملل فى نفسها الحائرة ! .. وانقضى موسم النشاط الاجتماعى ، وبانتهائه تبدد أمل اسرة « ارندل » فى العثور على زوج صالح لايزابيل ، فقررت الرحيل مرة أخرى بعيدا عن لندن ، توفيرا للنفقات ، واستعدادا لمواجهة الموسم التالى ! .. وأبحرت ايزابيل مع أسرتها الى مقاطعة « بولونى » بفرنسا ، التى كانت حينذاك ملتقى المجتمع الانجليزى الذى أخنى عليه الدهر .. وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسافر فيها ايزابيل بعيداً عن موطنها . بيد أن المقاطعة الفرنسية ما كانت لتشبه من قريب أو بعيد ذلك الشرق الاسطورى الذى طالما داعب خيالها وملك عليها شغاف قلبها ، فلم تعرف فيها تلك السعادة التى قدر لها أن تغمر كيانها فيما بعد .. تحت سماء الشرق !

لقاء .. على ضفة النهر !

ولبثت الأسرة فى (بولونى) عامين خيم عليهما التقشف ، والملل .. والفراغ . وكان لابد لتلك الحياة اليومية الرتيبة أن تبعث السأم فى قلب فتاة كايزابيل شديدة الحساسية ، تتحرق شوقا الى أن تحيا حياة حافلة متجددة ، ما من سبيل الى تحقيقها الا فى بلاد الشرق الساحرة البعيدة !.. على أن ذكرى الطالع الذى كشفت لها عنه المراة الغجرية كانت لاتفتأ تحيى الأمل فى نفسها المكتئبة ، فراحت تتذرع بالصبر ، وتملأ فراغها بالقراءة ، وتسجيل مذكراتها التى ضمنتها صورة واضحة لفتى أحلامها وحبيبها المجهول الذى تستطيع معه أن تحقق نبوءة العرافة « هاجر » !

وقد كتبت ايزابيل فى مذكراتها تصف حبيبها المرتقب بقولها : « ان فتى أحلامى طوله ١٫٨٠ متر ، جسمه خال من الشحم تماما . وهو عريض المنكبين ، قوى العضلات ، يشبه هرقل فى قوته .. وله شعر أسود ، ووجه لفحته الشمس ، وجبهة تنم عن الذكاء ، وعينان سوداوان رائعتان .. اريده جنديا وانسانا فى وقت واحد .. طبع على أن يأمر .. وأن يطاع ! »

واذ انتهت ايزابيل من تحديد « مستقبلها » ، ورسم صورته على هذا النحو ، لم يبق أمامها سوى العودة الى حاضرها البغيض .. والانتظار ! .. لكن انتظارها لم يطل .. ففيما كانت تتنزه ذات يوم مع احدى شقيقاتها على ضفة النهر ، اذا بها تجد نفسها فجأة وجها لوجه أمام «نصيبها» . ومن عجب انها عرفته على الفور . وقد كتبت بعد ذلك تصف هذا اللقاء بقولها : « .. ذات يوم ، لمحته مقبلا فى اتجاهنا .. كان عريض المنكبين ، قوى العضلات رغم نحوله .. وكانت له ملامح عربية صميمة ، وفم ينم عن قوة العزيمة ، وذقن يعلوها شارب أسود كثيف .. ولعل اكثر ما استرعى انتباهى فى هيئته هو عيناه السوداوان الواسعتان اللتان كان ينبعث منهما بريق يخترق جسمك اختراقا .. وحينما نظر الى ، شعرت بأننى قد نومت تنويما مغناطيسيا ، حتى اننى — بعد ان ابتعدنا عنه قليلا — استدرت نحو صديقتى وغمغمت : لسوف يتزوجنى هذا الرجل ! »

ولم يكن ذلك الغريب الذى لفحت الشمس ملامحه سوى « ريتشارد برتون » .. وأبدا لم يساور الشك ايزابيل بعد

ذلك فى أن هذا اللقاء انما قد حدث تحقيقا لنبوءة العرافة الغجرية ! .. وفى اليوم التالى ، التقى ريتشارد بالفتاتين مرة أخرى ، اذ تعمد الشاب أن يتبعهما ، حتى اذا ما اقترب منهما اخرج من جيبه قطعة من الطباشير ، وكتب بها على جدار أحد المنازل القريبة يسألها : « هل لى أن اتحدث اليك ؟ » .. فتناولت ايزابيل الطباشير الذى كان قد تركه بجانب الجدار ، وكتبت تجيبه : « كلا ! فان هذا خليق بان يغضب والدتى ! » .. على أن والدتهما لم تلبث ان علمت بالأمر ، فعنفت ايزابيل تعنيفا شديدا ، وقررت عدم السماح للفتاتين بالخروج وحدهما بعد ذلك الحادث !

بيد أن هذا اللقاء قد بدا — مع ذلك — فى نظر ايزابيل نوعا من الايحاء الالهى ، حقق كل مايجيش فى صدرها من آمال .. فقد ايقنت أن هذا الرجل ، هذا « الحبيب » ، ليس مجرد حلم وانما هو حقيقة واقعة ، وانه يعيش قريبا منها بل ويستنشق عين الهواء الذى تستنشقه هى ! ولم يكد ينقضى أسبوع ، حتى تم التعارف بينهما . وما ان سمعت ايزابيل باسمه حتى سرت فى بدنها رعدة شديدة ، وأخذت نبوءة « هاجر » تطن فى اذنيها مرة أخرى : « لسوف تعبرين البحار ، وتعيشين فى عين البقعة التى يوجد بها « نصيبك » دون أن تدرى ، وستحملين اسم قبيلتنا .. وسيكون ذلك من دواعى فخرك ! »

وسرعان ماغمر ايزابيل فيض من الحب الطاغى ، أشبه بحمى عارمة تضعضع الجسم وتهد الكيان ، جعل الفتاة تعيش فى غيبوبة تامة عن كل مايدور حولها . واذ تدهورت

صحتها ، تملك الجزع والديها ، وقد يئسا من معرفة سبب علتها ، فأمرا باستدعاء الطبيب .. فاذا هو يشخص مرض الفتاة بأنه مجرد « سوء هضم » لا خطر منه على حياة المريضة ، ثم أخذ يعالجها على هذا الاعتبار . على ان ايزابيل كانت تتخلص من الحبوب التى يعطيها لها الطبيب لمعالجتها ، بالقائها فى النار ، اقتناعا منها بعدم جدواها فى شفاء أوجاعها . ومع انها كانت تعانى من مرضها آلاما مبرحة ، فقد ظلت تؤمن ايمانا لا يتزعزع بنبوءة الغجرية .. وبنصيبها ، فراحت تكرس وقتها لتلاوة الصلوات ، وقراءة كل ما كانت تقع عليه عيناها مما يكتبه برتون عن رحلاته وتنقلاته !

أول رحالة أوربى عاش فى (مكة)

وغادرت الأسرة (بولونى) عائدة الى لندن ، دون ان تتمكن ايزابيل من رؤية برتون مرة أخرى . وكان هذا قد بدأ سلسلة رحلاته ـ التي اثارت اذ ذاك دويا شديدا ـ حول بلاد الشرق . فقد كان أول رحالة اوروبى تطأ قدماه مدينة مكة ، ويعيش بين قومها يدرس حياتهم وتقاليدهم ، ثم يضع كتابا مفصلا يتضمن وصفا شاملا لتلك الرحلة الجريئة ، لم يلبث ان جلب له شهرة واسعة . وكانت ايزابيل تتابع فى زهو أنباء مغامرات حبيبها ، وقد اخذ قلبها يهفو الى اللحاق به ، والتخلص من حياة الركود والملل التى كانت تحياها فى لندن !.. وكتبت فى مذكراتها تقول : « اننى جد فخورة بما حققه من نجاح ومجد .. بيد اننى اعيش وحيدة ، وبلا

حب ! .. ترى اليس لى من امل ؟ الن يقدر لي ان اشارك برتون حياته ؟ ! ».

وكان « ريتشارد برتون » ينحدر من أب ايرلندى يدعى الكولونيل جوزيف برتون ، ومن أم انجليزية بسيطة المظهر . وكان جده - لوالدته - يريد أن يترك له كل ثروته التى تبلغ ٥٠٠ الف جنيه . بيد ان والدة ريتشارد كان لها اخ غير شقيق تكن له ودا كبيرا ، فرفضت أن يكون الميراث من نصيب طفلها ، آملة بذلك ان تتيح الفرصة لذلك الأخ كي يرثه ! .. بيد ان الجد أصر على ان يحسم الأمر على النحو الذى يراه ، فأمر باعداد العربة ليتوجه الى مسجل العقود لتسجيل الوصية . على أنه ماكاد يبرح المنزل حتى سقط ميتا بتأثير نوبة قلبية حادة ! .. وبذلك حرم الطفل من ان يرث المبلغ الكبير ، فكانت هذه اول حالة من حالات النحس العديدة التى كتب عليه أن يصادفها فى حياته ، وأن يعانى منها الشىء الكثير !

وقد ألف ريتشارد حياة التنقل والاغتراب منذ طفولته المبكرة . اذ راحت أسرته تتنقل بين انجلترا وسائر البلاد الأوروبية الأخرى سعيا وراء الثروة ، وبحثا عن أسباب العلاج والاستشفاء لرب الأسرة المريض .. وكان ريتشارد وشقيقه ادوارد واخته ماريا ، أولادا مشاغبين جلابين للمتاعب .. على انهم اذا كانوا قد حرموا نعمة التربية السليمة القويمة، فقد استطاعوا - بفضل ما كانوا يتمتعون به من حرية وانطلاق - أن يتعلموا الشىء الكثير أثناء اقامتهم الطويلة فى

مدينة نابولى . فقد تدرب الشقيقان على استخدام السيف والغدارة ، اذ كانت المبارزة هوايتهما المأثورة .. وما ان بلغ ريتشارد التاسعة عشرة من عمره حتى أرسل الى جامعة اكسفورد ، على حين التحق ادوارد بجامعة كيمبردج . ولم يكن ريتشارد تلميذا مجدا فى كليته ، بل كان يضيق بكل ما يحيط به من قيود دراسية . وكان شديد الولع بالاطلاع، شغوفا ــ بوجه خاص ــ بتعلم اللغة العربية . بيد ان مدرس هذه اللغة كان لا يفتأ يؤنبه وينهره لكثرة أسئلته بعد انقضاء فترة الدرس ، محاولا التهرب بحجة ان مهمته تقضى بتعليم الفصل كله لا تلميذ بمفرده . واذ ذاك اضطر ريتشارد الى الاعتماد على نفسه وحدها ، فلم يكد ينقضى شهران حتى كان يجيد اللغة العربية الى أبعد حدود الاجادة !

على أن هذه الموهبة ما كانت لتساعده فى شىء على النجاح فى العلوم الأخرى .. فلما ابدى لوالده رغبته فى الخروج من الجامعة والالتحاق بالجيش ، رفض أبوه الاستجابة الى طلبه ، عاقدا العزم على ادخاله السلك الكهنوتى .. فاستولى اليأس على ريتشارد الى درجة جعلته يقرر الاتيان بعمل يؤدى الى فصله نهائيا من الجامعة ، حتى يضع أباه أمام الأمر الواقع !.. واستطاع أن يبلغ غايته فى غير ما مشقة كبيرة ؛ واضطر والده فى نهاية الأمر أن يذعن لرغبته ، ولكن لما كان الحاقه بفرقة ضباط الأسر الارستوقراطية يتطلب من النفقات ما لا قبل لاسرته به ، فقد تقرر ضمه الى الجيش الهندى ، فأبحر الى بومباى فى شهر يونيو عام ١٨٤٢ .

خيبة الأمل تلاحقه من الهند الى السند !

على انه ما لبث ان أصيب فى الهند بخيبة امل لا تقل عن تلك التى صادفها فى اكسفورد . فقد كانت الحرب المندلعة بين الهند وأفغانستان قد انتهت لتوها قبيل وصول سفينته الى الميناء ، فلم يعد ثمة جيش عامل ، ولا كانت هناك أية حملات أو معارك ، مما جعل ريتشارد يشعر بملل قاتل . وسرعان ما تبين ان الترقى فى الجيش كان يتطلب اما نفوذا وشفاعة ، أو الماما باللغات ، فعكف على دراسة اللغات خلال أوقات فراغه المتسعة ، حتى تمكن - خلال أعوام قلائل - من اتقان اللغة الفارسية وعدد كبير من اللغات واللهجات الهندية المختلفة !

وكان قائد الفرقة التى ألحق بها ريتشارد ضابطا يدعى « شارل نابييه » . وكان يحكم منطقة السند ، ويسعى للقضاء على العادات السيئة وأسباب الفساد المتفشية فيها، توطئة لتنفيذ برنامجه الاصلاحى الكبير . وفيما كان نابييه بصدد تنفيذ مشروعاته ، تبين ما كان ريتشارد يتحلى به من مواهب نادرة ، فعينه على الفور مترجما رسميا له ، وراح يعهد اليه بعدة مهمات سرية دقيقة ، كان أهمها ان أمر ريتشارد بأن يتسلل متنكرا الى بيوت العاهرات المنتشرة فى السند ، وأن يضع تقريرا مفصلا عما يشاهده هناك من أساليب وعادات كان يهم الحكومة الوقوف عليها !.. وقد عاد بورتون من مهمته بتقرير واف بالغ القيمة تضمن كل ماكانت السلطات تريد معرفته من بيانات ومعلومات . بيد ان نابييه ما لبث أن استدعى فجأة من الهند ، فنسى التقرير - فى

غمرة مشاغله ـ بين الأوراق والملفات . وما ان وقعت أنظار الرؤساء الجدد على ماجاء فى التقرير ، حتى صبوا جام غضبهم وسخطهم على واضع التقرير . وأسقط فى يد ريتشارد ، وتبدد كل ما راوده من آمال فى الترقى ، فأعرض عن هذه الأمور ، وانصرف الى دراسة الدين الاسلامى حتى صار حجة فيه !

غير ان هذه الهواية ما كانت لتملأ الفراغ الذى كان ريتشارد يحس به فى حياته العسكرية . وما ان قرر رؤساؤه ابعاده عن فرقته ، بحجة ان الخدمة العسكرية لم تعد تناسبه ، حتى انهار ، واعترته حمى عنيفة كادت تودى بحياته . فبادر أصدقاؤه بحمله الى أول سفينة عائدة الى وطنه !

المغامرة التى خلدت اسمه !

على أن رجالا فى صلابة برتون لا يموتون يأسا وهم لم يتجاوزوا بعد السابعة والعشرين من عمرهم !.. فما ان عاد الفتى الى لندن ، وأخذ يسترد قواه ، حتى شرع فى وضع عدة كتب عن البلادالتى شاهدها . وسرعان ماعاودته هوايته القديمة التي طالما جعلته يتطلع الى ارتياد أقصى بقاع العالم .. كان يريد ان يستكشف افريقيا ، ويجتاز الصين ويوغل فيها حتى يبلغ التبت، ويحج الى الأراضى الاسلامية المقدسة فى مكة .. ولكن لما كانت أجازته لم تنته بعد ، فقد سافر الى بولونى ـ حيث كانت توجد ايزابيل ـ وراح يقضي هناك معظم وقته فى التدرب على المبارزة !

ثم قرر ريتشارد القيام بمغامرته الكبرى التى قدر لها ان تخلد اسمه ، وتضعه فى مصاف أولئك الذين مازالوا رمزا للاقدام والنجاح أمثال ماركو بولو ، وكريستوفر كولومبس ، وليفنجستون . فقد استقر عزمه على زيارة مكة كعبة الاسلام .. تلك المدينة التى لم يكن يجترىء احد من غير المسلمين على أن يطأها بقدميه . ووافقت الجمعية الملكية الجغرافية على مشروع رحلته الى الجزيرة العربية ، ولم تلبث شركة الهند الشرقية أن وافقت بدورها على منحه التصريح اللازم !

وما ان انتهى ريتشارد برتون من استعدادات الرحيل ، حتى انطلق ميمما شطر القاهرة ، بعد أن تنكر فى ملابس احد المسلمين الأفغانيين ! .. وبعد سلسلة من المغامرات ، استطاع الرحالة الشاب بلوغ المدينة المقدسة . وقد احتفظ برباطة جأشه فى احلك اللحظات واحرجها ، وتمكن — برغم ما كان يحيط به من مخاطر — من أن يسجل مشاهداته وملاحظاته خلسة، وأن يصف الكعبة الشريفة وصفا تفصيليا دقيقا . وبلغت المغامرة ذروتها عندما اشترك فى أداء فريضة الحج ، وارتدى ثياب الاحرام ، تحدوه روح التقديس والرغبة فى الاستكشاف !

مغامرته الخطرة فى اثيوبيا

وغادر ريتشارد برتون مكة ، وبدلا من أن يعود الى انجلترا لينعم بالاستقبال الحافل الذى كان من المرتقب ان تلقاه به بلاده ، ويجنى ثمار نجاحه وانتصاره ، ويحظى بما هو اهل

له من اكبار وتقدير ، أعرض عن كل ذلك ، مؤثرا العودة الى عالمه الصغير بالجيش الهندى فى (بومباى) !

ولكن ما ان استقر به المقام فى الهند ، حتى عاوده مرة اخرى حبه للترحال والمغامرات . فأخذ يفكر فى القيام برحلات جديدة .. وكانت مدينة (هرر) باثيوبيا تشتهر فى ذلك الوقت بأنها قلعة منيعة ، ما من رجل أبيض حاول اقتحامها الا ولقى فيها حتفه . وبدأ « برتون » يتحرق شوقا لزيارتها . ولما كانت هذه المدينة ذات اهمية استراتيجية بالغة – لأن ميناءها الرئيسى (بربرة) كان يعتبر أهم ميناء على الساحل الغربى للمحيط الهندى ، فقد عكفت شركة الهند الشرقية على دراسة مشروع « برتون » فى اهتمام . ولكن حماسها كان مشوبا بالحذر والتحفظ ، فوافقت على منحه تصريحا بالقيام بالرحلة ، ولكنها رفضت امداده بأى مبلغ من المال !

ولم ييأس برتون – فى تلك المرة أيضا – بسبب افتقاره الى المال اللازم ، بل راح يتهيأ للرحلة ، ثم انطلق فى طريقه الى (هرر) ، يصاحبه ثلاثة من زملائه الضباط الذين عينوا لمعاونته فى مهمته !

وبدأت الرحلة بداية موفقة بعض الشىء ، اذ تنكر برتون فى ملابس أحد التجار المسلمين . حتى اذا ما بلغ (هرر) ، دخلها دون ما عقبات ، حيث استقبله الأمير استقبالا طيبا .. وما ان انتهى من جمع المعلومات التى كان ينشدها ، حتى عاد الى صحبه الذين كانوا فى انتظاره فى معسكرهم خارج المدينة . بيد انهم مالبثوا ان وقعوا فى كمين نصبه لهم

بعض الأهالى ، فنشبت معركة حامية بين الفريقين ، قتل خلالها أحد أعوان برتون ، على حين استطاع برتون نفسه أن يلوذ بالفرار مع زميليه الباقيين ، بعد أن أصيب اصابة خطرة !

وما ان عادوا الى الهند ، حتى شكلت لجنة تحقيق للنظر فى الحادث . وبدلا من أن تشيد هذه اللجنة بشجاعة برتون، انحت عليه باللوم ، محملة اياه تبعة ما وقع له ولرفاقه !.. وسرعان ما عاد برتون مرة أخرى الى بلاده ، وقد حطمه المرض والاعياء . ولم يكن يسرى عن نفسه اكتئابها ، سوى انه استطاع – برغم كل شىء – ان يشاهد ما كان يصبو الى مشاهدته ، وأن يجمع المواد اللازمة لكتابه الجديد !

الفقر فى كنفه .. خير من ملك العالم !

وفى أحد أيام شهر اغسطس ، وبينما كانت « ايزابيل » وشقيقتها تتنزهان فى احدى الحدائق العامة بلندن ، وجدتا نفسيهما فجأة – أمام ريتشارد برتون مرة أخرى .. وعرفهما الشاب على الفور .. واخذ بعد ذلك يلتقى بهما كل يوم ، فيمضى بعض الوقت فى صحبتهما . وما هى الا أيام قلائل ، حتى تقدم الى ايزابيل يسألها عما اذا كانت تقبله زوجا .. وأردف قائلا لها : « لا تتعجلى فى الرد ، بل تريثى .. فانك بصدد اتخاذ قرار حاسم يتوقف عليه مستقبل حياتك ! » ولكن ايزابيل بادرت مجيبة : «لست فى حاجة الى التفكير ، فمنذ خمس سنوات وانا افكر فى الأمر .. وانى لأوثر

ان اعيش معك على كسرة خبز ، على أن أصير ملكة العالم بأسره وانا بعيدة عنك ! .. ولهذا فانى أجيبك من الآن بالقبول ! »

وقدر لايزابيل أن تعيش على ذكرى تلك اللحظات السعيدة حقبة أخرى من الزمن حفلت بطول الترقب والانتظار ، اذ رأى ريتشارد – قبل ان يتم الزواج – ان يقوم برحلة جديدة الى افريقيا، قاصدا هذه المرة استكشاف منابع نهر النيل . ولعل ايزابيل قد كرهت اذ ذاك القارة الافريقية ، واعتبرتها منافسا حقيقيا لها ، سلبها حبيبها . فقد كتبت فى مذكراتها تقول : « أبحر ريتشارد وخطبتنا لاتزال سرا مطويا بيننا . ولكنه لم يذكر لى تاريخ رحيله .. فقد كان يكره لحظات الوداع ! » ..

والواقع انها كانت – يوم رحيله – فى المسرح تشاهد احدى التمثيليات ، فاذا بها ترى ريتشارد فى الجانب الآخر من القاعة ، وقد أخذ يحدق فى وجهها فى اصرار . ولكنه لم يوافها عندما لوحت له بيدها ! .. وفى تلك الليلة حلمت بأنه كان يقف بجوار مخدعها وهو يقول : « وداعا يا صغيرتى المسكينة .. لقد حانت ساعة الرحيل .. ولكن لا تبكى ! » . ثم اشار الى ساعة الحائط ، فاذا بها تعلن الثانية صباحا . واخرج رسالة من جيبه وضعها فوق المنضدة قائلا : « هذه الرسالة لشقيقتك وليست لك ! »

ومن أعجب الأمور ، ان رسالة وصلت من « برتون » فعلا، فى صباح اليوم التالى .. وكانت الرسالة موجهة الى شقيقة ايزابيل ، ولكن برتون طواها على رسالة أخرى لخطيبته ، اعرب فيها عن ألمه لفراقها ، ولكنه رأى ان رحيله بهذه

الصورة يخفف من عذابها .. ثم أكد لها أن زواجهما سيتم فى سنة ١٨٥٩ ، وانه انما اضطر اضطرارا الى الرحيل بعد أن تلقى معلومات سرية تحمله على مبارحة انجلترا فورا ، دون أن يلمحه أحد . ثم أخبرها انه غادر مسكنه فى لندن فى الليلة السابقة فى تمام الساعة العاشرة والنصف — وهى عين اللحظة التى رأته فيها بالمسرح — وانه أبحر من ميناء ساوثامبتون فى الساعة الثانية صباحا .. نفس الساعة التى رأته فيها أثناء الحلم !

وطوت ايزابيل الرسالة ، ثم علقتها حول عنقها .. وعادت الى صلواتها فى انتظار رجوع الحبيب الغائب !

رب صدفة .. !

وانقضت شهور دون أن تتلقى ايزابيل أية رسالة من برتون . ومع انها لم تكن تتوقع قط ان ترد اليها أية رسالة منه من وسط افريقيا ، فقد راحت تبعث اليه بسيل من رسائلها الملتهبة التى تفيض حبا وولها ولهفة الى لقاء قريب !

وذات صباح ، قرأت ايزابيل فى الصحف أن ريتشارد برتون قد غادر افريقيا فى طريق عودته الى الوطن . فتملكتها سعادة غامرة ، وراحت تترقب وصوله فى شوق وصبر نافد . وسعت — ذات يوم — الى احدى صديقاتها ، فلم تجدها بالمنزل ، ورأت أن تنتظرها حتى تعود . ولم تكد تمر دقائق ، حتى رن جرس الباب الخارجى . وسمعت ايزابيل الخادم يفتح الباب .

وفجأة ترامى الى سمعها صوت جعل كيانها يهتز ويرتجف .. وكان صاحبه يسأل : « هل لى أن أحصل على عنوان الآنسة أرنديل ؟ » . وانفرج الباب ، وكم كانت دهشة ايزابيل عندما رأت أمامها .. ريتشارد برتون ! ولم يشعر الحبيبان الا وكل منهما فى أحضان الآخر . ولما افاقا الى نفسيهما ، غادرا المنزل ، واستقلا أول عربة صادفتهما ..

وعاودا لقاءاتهما فى كل يوم . وكان من الطبيعى ان تثار مسألة الزواج، بيد أن الأمر ما كاد يعرض على أسرة ايزابيل، حتى أبدت والدتها رفضا قاطعا صارما ، مقررة ان ريتشارد ليس أهلا لابنتها ، فهو لا يملك ثروة ، فضلا عن انه ليس كاثوليكيا .. ولم يسع ايزابيل سوى الاذعان لمشيئةوالدتها، برغم ما ملأ قلبها من حزن وأسى . على انه مما خفف همها ولوعتها ، انها راحت تحيط ريتشارد بعطفها ورعايتها ، وتساعده على استرداد صحته التى كانت قد انهارت انهيارا شديدا أثناء رحلته الطويلة المضنية !

تختبر عواطفها ٩ أشهر .. ثم تختار !

ولو كانت ايزابيل تعلم أن الأقدار تدخر لها فراقا جديدا عن حبيبها ، لما أبدت تلك اللهفة فى العناية به ومساعدتهعلى استرداد صحته . اذ ما ان أحس ريتشارد بأنه قد استرجع قوته بعد متاعب رحلته الأخيرة ، حتى استقر عزمه على السفر الى امريكا !

وعلى عادته ، عمد الى مبارحة لندن فجأة ، حتى لا يضطر الي توديع ايزابيل ومشاهدة عذابها ولوعتها . علي انالفتاة

شعرت – يوم رحيله – بانقباض غريب ، واحساس دفين بأن ريتشارد قد رحل دون أن يخبرها .. وما هى الا فترة وجيزة ، حتى تلقت منه رسالة يبلغها فيها بأنه سيغيب عن انجلترا تسعة أشهر ، وان عليها – بمجرد عودته – أن تتخذ قرارها ، فتختار نهائيا بينه وبين والدتها ! .. فاذا لم تكن من الشجاعة بحيث تقدم على الزواج منه ، رحل الى الهند لغير رجعة ، وكان بينهما فراق لا لقاء بعده !

وامضت الفتاة الأشهر القلائل التى أعقبت سفره ، وهى تتهيأ لتلبية رغبته ، وتعد عدتها للزواج الذى كانت تتحرق شوقا لاتمامه !

وكان ريتشارد قليل الكتابة اليها ، فظلت تفتقر الى أخباره طوال مدة اقامته فى أمريكا . غير ان الشك لم يساورها فى عودته اليها . وما ان حل عيد الميلاد ، حتى سافرت الى الشمال لقضاء سهرات العيد مع أولاد عمها . وفيما كانت تجلس الى « البيانو » – ذات مساء – وقع نظرها فجأة على نسخة من صحيفة « تايمز » وضعت فوق البيانو ، وقد نشر فى احدى صفحاتها نبأ يعلن ان ريتشارد برتون قد وصل الى لندن عائدا من امريكا .

وكادت ايزابيل ان تطير فرحا ، بيد انها استطاعت ان تتمالك نفسها ، ثم راحت تتساءل : « ترى لماذا لم يكتب الى يخبرنى بموعد عودته ؟! » .. وادركت أن عليها ان تعود فورا الى لندن مهما يكلفها ذلك من ثمن . فلم تكد تفرغ من العزف ، حتى هرولت الى غرفتها ، واخذت تعد حقائبها فى عجلة محمومة ، ولم تجد مشقة كبيرة فى الاهتداء الى عذر يبرر لأقاربها سبب

عودتها المباغتة . وسرعان ما ودعتهم ، وقد أحست بالارتياح لنجاحها فى تركهم دون أن يستطيع أحد أن يكشف عن سرها !

ووجدت « ريتشارد » فى ثورة عارمة ، يشكو من انه قد انتظر أربعة أعوام ، فبات عليها ان تبت نهائيا فى أمر الزواج منه . ثم سألها : « أنت على استعداد لاعطائى ردك الآن؟! »

— كل الاستعداد .. لنتزوج فى غضون ثلاثة أسابيع !

ولما عرض ريتشارد الأمر على أسرة ايزابيل ، وافق والدها فى الحال . بيد ان امها أصرت على الرفض . واذ ذاك قررت ايزابيل ان يتم الزواج سرا ، والا يحضره أحد من أفراد أسرتها ! .. وراحت تعد نفسها لحياتها الجديدة كما تعد الفتاة نفسها لدخول الدير ! .. فوضعت عدة قواعد تذكرها بواجباتها كزوجة ، وترسم لها المسلك الذى يجب أن تلتزمه لتصير زوجة مثالية تحظى بحب زوجها ورضائه الدائمين !

وما ان حل يوم ٢٢ يناير عام ١٨٦١ ، حتى تحقق حلم ايزابيل . ففى فجر ذلك اليوم ، غادرت منزل أسرتها بحجة اللحاق ببعض أصدقائها لتمضية يوم فى الريف . وودعت والديها اللذين لم يرتابا فى الأمر .. واستبشرت خيرا عندما قالا لها : « اذهبى يا ابنتى .. وليباركك الله ! »

وكانت ثمة عربة تنتظرها على مسافة قريبة ، وقد ضاقت بما تحمله من حقائب ولفائف . فاستقلت ايزابيل العربة ، واتجهت الى الكنيسة ، حيث كان ريتشارد فى انتظارها ، وهو يدخن سيجارا طويلا فى انفعال ظاهر ..

ولما انتهت مراسم الزواج ، ذهب العروسان لتناول الغداء عند صديق قديم للأسرة . ولم يلبثا — فى المساء —

ان انتقلا الى المسكن الذى كان ريتشارد قد استأجره فى حى (سان جيمس) ! .. فلما أصبح اليوم التالى ، كتب برتون رسالة مقتضبة الى والد ايزابيل يخبره فيها بأمر الزواج ، ويعتذر عن الطريقة التى تم بها .. فاضطرت الأسرة الى أن تبارك الزواج - انقاذا للمظاهر أمام المجتمع اللندنى - ودعت ايزابيل وزوجها الى قضاء عدة سهرات مع أفرادها !

كتب الفراق عليهما ، حتى بعد الزواج !

وكانت المشكلة التالية التى تحتم على الزوجين مجابهتها والتغلب عليها ، هى مشكلة المال . فان شركة الهند الشرقية كانت قد قطعت عن ريتشارد ما كانت تدفعه له من مكافآت مالية ، بعد أن اهتدت الى وسيلة تتيح لها الاستغناء عن خدماته !

وبعد جهود مضنية ، نجح برتون فى الحصول على وظيفة صغيرة بالقنصلية البريطانية فى (فرناندو بو) على الساحل الغربى لافريقيا . وكانت تلك المنطقة مشهورة برداءة جوها وسوء أحوالها المناخية ، حتى لقد عرفت اذ ذاك بأنها مقبرة لموظفى وزارة الخارجية ! .. على انه كان مضطرا الى أن يقبل هذه الوظيفة حتى لا يموت جوعا .. فضلا عن انه كان يأمل أن تفتح امامه افاقا أوسع فى المستقبل .. ورأى ان يترك ايزابيل مع اسرتها فى لندن ، فقبلت على مضض !

ومرت ستة عشر شهرا عانت خلالها ايزابيل ما عانت من جراء فراق زوجها . ولما تبينت أنها لن تقوى على البقاء بعيدة عنه أكثر من ذلك ، راحت تسعى لدى معارفها من

المسئولين فى وزارة الخارجية ، متوسلة لنقل زوجها الى وظيفة أخرى أو منحه اجازة . وكان لتوسلاتها اثر السحر ، فلم يلبث ريتشارد أن منح ــ على غير ارتقاب ــ أجازة بعثت الفرحة فى نفسه ، وأتاحت له العودة الى لندن ، حيث استطاع أن يقضى مع ايزابيل سهرات عيد الميلاد وحفلاته !

بيد أن الفراق كان مقدرا لهما .. فما لبثت أن انتهت اجازة ريتشارد . واذ ذاك استولى القنوط على ايزابيل ، واخذت تتوسل اليه أن يصطحبها ، فلا يتركها بمفردها فى لندن بعيدة عنه . واضطر ريتشارد الى الاستجابة لرغبتها ، فسمح لها بأن تسافر معه حتى جزيرة (ماديرا) بالمحيط الأطلنطى ، الواقعة فى طريق رحلته الى (فرناندو بو) ، على أن تعود بعد ذلك الى لندن !

وكانت تلك أول رحلة تقوم بها ايزابيل فى صحبة زوجها ، وأول مرة تنعم فيها بالحياة وتذوق طعما للسعادة مع الرجل الذى طالما أحبته وتمنت أن تعيش فى كنفه . وأمضيا فى تلك الجزيرة وقتا شاعريا جميلا ، جعلهما ينسيان ما مر بهما من محن قاسية ، ويغفلان عما ينتظرهما من فراق اليم !

وبعد أيام قليلة لم يكد الحبيبان يشعران بها فى غمرة سعادتهما ، انطلق ريتشارد يتابع طريقه الى مقر عمله ، بينما قفلت ايزابيل عائدة الى لندن ! .. وانقضى عامان تخللتهما فترات طويلة من الفراق ، ولحظات لقاء خاطفة فى (ماديرا) . وكان ريتشارد قد بدأ يسأم وظيفته ويضيق بها ، وان حرص على الاضطلاع باعبائها فى دقة أشبه بدقة العسكريين . وقد

دفعه الملل الى معاقرة الخمر والاقبال عليها ، بيد أن الشراب عجز عن التسرية عنه ، والتخفيف من عذابه وأشجانه !

ولم تلبث وزارة الخارجية ان عهدت اليه بمهمة دقيقة ، اذ أوفدته لدى ملك (غينيا) ، كى ينشىء علاقات معه ، ويجمع معلومات عن بلاده . وقد نجح فى مهمته الى أبعد حدود النجاح ، مما جعل الوزارة توافق على منحه اجازة يقضيهافى انجلترا . وما أن عاد الى وطنه ، حتى استقر عزمه على السعى لدى المسئولين لنقله الى وظيفة بأحدى البلاد الأخرى . وكللت مساعيه بالنجاح ، فقررت وزارة الخارجية أن تسند اليه منصبا جديدا فى (سانتوس) بالبرازيل ، مما اثلج قلب ايزابيل ، فتهيأت لمصاحبة زوجها الى حيث تعيش معه فى مقر عمله الجديد ..

وفى (ريو دى جانيرو) ، استطاع الزوجان أن يظفرا بمكانة مرموقة فى المجتمع البرازيلى ، وان يحققا نجاحا ديبلوماسيا ملحوظا جعلهما يحظيان بعطف امبراطور البرازيل وصداقة وزير انجلترا المفوض ، فأصبحا موضع حسد سائر أعضاء القنصلية، الذين لم يظفروا ــ على طول اقامتهم ــ بما ظفر به القادمان الجديدان من حظوة ونجاح ..

نوبات نفسية .. وتصرفات شاذة !

وفى تلك الحقبة ، بدأت تعترى ريتشارد نوبات نفسية جعلته يضيق بعمله ، ودفعته الى الابتعاد عن عمله أسابيع طويلة . وكانت ايزابيل ــ خلال فترات غيابه ــ تعكف على

القيام بمهامه ، وانجاز ما يطرأ من مسائل عاجلة ، حتى لا تعلم وزارة الخارجية بأمر غيابه !

وفى خريف عام ١٨٦٧ ، تغيب ريتشارد عن عمله اربعة أشهر متتالية ، دون أن يعلم احد شيئا عن مكان اختفائه !.. واستبد الجزع بايزابيل ، وراحت تتوجه كل يوم الى شاطىء البحر ، فتسأل البحارة وتستفسر منهم ، علها تقف على أخبار زوجها الغائب . وكان أشد ما تخشاه أن يكون ريتشارد قد وقع فريسة للمرض ، أو تعرض لاعتداء من بعض قطاع الطرق ، بسبب ما كان يحمله معه عادة من مبالغ طائلة من المال !

وفيما كانت تفكر فى ايفاد حملة للبحث عنه بعد أن طال انتظارها ، اذا به يعود على ظهر احدى السفن ، وهو فى حالة ارهاق واعياء يرثى لها . واقتادته ايزابيل الى الريف على الفور ، قبل ان يقف احد على أمره . وهناك تبينت انه مصاب بمرض حاد فى الكبد . فأخذت تسهر عليه فى تفان واخلاص حتى بدأ يشفى ويسترد قواه شيئا فشيئا .. الا انه كان قد اضحى حطاما ، فبدا وكأنه شيخ فى الستين من عمره !..

على انه لم يكد يجتاز فترة النقاهة ، حتى صارح ايزابيل باعتزامه الاستقالة من منصبه والسفر الى (شيلى) و (بيرو) ، لكى يشترك فى الحرب التى كانت مستعرة الأوار فى ذلك الوقت فى (براجواى) . وعبثا حاولت ايزابيل أن تثنيه عن عزمه . فقد اصر على أن تسبقه هى الى انجلترا ،

وتحاول أن تعثر له على وظيفة أخرى هناك ، ريثما يتمكن من اللحاق بها . ومع انها كانت قلقة من أجله ، متحسرة على عشهما الجميل الذى شيداه فى البرازيل ، الا انها لم تضج بالشكوى .. ولعلها كانت تعلم أن صحة زوجها قد انهارت نهائيا ، وانه لم يعد يقوى على الابتعاد عنها طويلا فى تنقلاته ، بعد أن صار أشبه بشبح يحاول القيام برحلة وهمية !

نبوءة العرافة تتحقق !

وحين عادا الى لندن ، وجدا فى انتظارهما مفاجأة غمرت قلبيهما فرحا وسعادة . كانت وزارة الخارجية قد قررت تعيين برتون فى أحد مناصب قنصليتها العامة بدمشق ، بمرتب سنوى قدره ألف جنيه استرلينى ! .. وبذلك قدر لبرتون أن يعيش مرة أخرى بين العرب الذين طالما أحبهم وتعلق بهم . وكان الأمل يراوده فى انه قد ينقل بعد ذلك الى القسطنطينية أو المغرب ، اذا هو أظهر كفاية فى مزاولة منصبه الجديد فى دمشق !

ا بيد انه — حتى فى تلك اللحظات التى كانت السعادة تسود فيها حياة برتون — كانت ثمة غيوم تتجمع وتتراكم ، فتكاد تقضى على آماله ، وتحول بينه وبين بلوغ أعز امانيه . اذ لم تلبث أن قامت اعتراضات — من كل جانب — على هذا التعيين ، بدعوى أن برتون لم يكن أهلا للمنصب الجديد . ويبدو ان سوء الحظ كان يلاحقه ، اذ كان « لورد ستانلى » — وزير الخارجية الذي اختاره لهذا المنصب باعتباره أصلح

الناس له ـ قد فارق منصبه بسقوط الوزارة .. وكان الوزير الجديد « لورد كلارندون » يكره برتون ، فتأثر بافتراءات اعدائه الكثيرين ، وأخبره بأن تعيينه فى هذا المنصب لا يخلو من مخاطرة من جانب الوزارة ، وانه لن يسعه الموافقة عليه ما لم يتعهد بالتزام التحفظ والحذر البالغين فى تصرفاته ونزعاته الشخصية ..

وبذلك رحل برتون الى دمشق وقد استحوذ عليه الحزن والاكتئاب ، تاركا ايزابيل فى لندن لتصفية بعض الأمور، على ان تلحق به بمجرد انتهائها منها ! .. وفعلا ، لم تلبث ايزابيل أن لحقت به ، وقد امتلأت نفسها غبطة ، اذ قدر لها أخيرا أن تزور بلاد الشرق ، وأن تحقق نبوءة العرافة الفجرية التى لم تفارق ذكراها مخيلتها لحظة واحدة ..

واندفع الزوجان فى غمار حياتهما الجديدة فى حماس بالغ ، وراحا يقيمان ـ لأول مرة فى دمشق ـ حفلات الاستقبال ، ويدعوان اليها أناسا من مختلف الأجناس والطبقات ، لعل أشهرهم كان الأمير « عبد القادر » بطل الجزائر وزعيم ثورتها ، الذى كان قد تحرر من منفاه فى فرنسا ، واتخذ دمشق مقرا له !

على أن حب ريتشارد للمسلمين ودفاعه عنهم كانا خليقين بأن يحرماه من تأييد الوالى التركى ومؤازرته ، بل لعلهما قد جرا عليه عداءه وخصومته . اذ اعتبره الوالى متآمرا خطرا يهدده فى نفوذه ومكانته ، فراح يبعث بالتقرير تلو التقرير الي الباب العالي ، وقد حشا تقاريره بوقائع انطوت على

شيء كثير من التحامل والتجنى على برتون . وكان الباب العالى يبادر ــ بدوره ــ بارسال تلك التقارير الى لندن، التى أخذت تفكر جديا فى استدعاء مبعوثها من دمشق !

وما أن حل يوم ١٦ أغسطس عام ١٨٧١ ، حتى أصدرت وزارة الخارجية قرارا عاجلا مفاجئا باستدعاء برتون فورا ، دون سابق انذار أو ايضاح ! .. وأمعنت وزارة الخارجية فى تعسفها ، فأوفدت خليفة « برتون » الى دمشق ، قبل أن تخطر هذا بالأمر . وكان ريتشارد وايزابيل حينذاك يقيمان فى مقرهما الصيفى فى بلدة (بلودان) ، فوصلتهما رسالة مقتضبة من نائب القنصل الانجليزى ببيروت، يبلغهما فيها نبأ استدعاءبرتون الى لندن ، ووصول خليفته الى دمشق فى الليلة السابقة !

واستولى الذهول على ريتشارد وايزابيل . وهرول هو عائدا الى دمشق على صهوة جواده ، بينما بقيت ايزابيل فى بلودان تنتظر عودته ، وقد تولاها انزعاج بالغ . ولم تلبث أن تلقت رسالة من ريتشارد يؤكد لها فيها النبأ ، ويطلب اليها اللحاق به ! .. وكان هذا القرار ــ بالنسبة لايزابيل ــ بمثابة قرار باخراجها من الجنة . بيد انها استطاعت أن تتمالك نفسها ، وتكظم غضبها وحزنها ، ريثما تحل الساعة التى تستطيع فيها أن تسوى الأمر مع وزارة الخارجية !

ورحل برتون عائدا الى انجلترا ، بعد أن ترك ايزابيل فى دمشق لتسوية بعض المسائل المالية . وفى يوم ١٣ سبتمبر ، غادرت هي الأخرى دمشق نهائيا . ومع أنها كانت شديدة

التأثر لما أبداه العرب نحوها من شعور الود والوفاء ، فانها آثرت ان ترحل تحت جنح الظلام .. دون أن تودع أحدا !

ترجمته الكاملة .. لألف ليلة و ليلة !

ولما وصلت ايزابيل الى لندن ، الفت ريتشارد محطما يائسا ، يأبى — فى اصرار — السعى لمقابلة المسئولين بوزارة الخارجية وتبرير موقفه أمامهم .. فعولت على أن تكافح بمفردها من أجل نصرة قضيته ، وراحت تتصل بدوائر الوزارة ، حيث كان لها فيها اصدقاء عديدون ، محاولة اقناعهم بتأييدها ومؤازرتها فى المعركة التى تخوضها .. واستطاعت ، بعد جهود مستميتة ، ان تنال عطف الصحافة والرأى العام ، وأن تفلح — فى النهاية — فى حمل وزارة الخارجية على اعادة النظر فى أمر زوجها ! .. واذ كتب اليها المسئولون يسألونها عما اذا كان زوجها يقبل تعيينه فى (تريستا) ، بادر ريتشارد بالقبول بعد أن أوشكت موارده ان تنفد نهائيا !

على انه لم يقدر للزوجين ان يجدا فى تريستا السعادة التى سبق أن صادفاها فى دمشق ، اذ بدت لهما حياتهما الجديدة رتيبة مملة ، فشرعا يقومان بسلسلة من الرحلات الطويلة بعيدا عن تريستا ، بحثا عن الترفيه والاستجمام !

وفى عام ١٨٨٣ ، أرسلت وزارة الخارجية الى برتون خطابا تطلب اليه فيه أن يقوم بالبحث عن جثة أستاذ مستشرق ، كانت قد اوفدته للتفاوض مع بعض الزعماء العرب ، ولقى مصرعه فى مكان ما بصحراء سيناء . وجزعت

ايزابيل خشية أن يكون زوجها فى حالة صحية لا تسمح له بالاضطلاع بالمهمة الموكولة اليه. بيد أن ريتشارد طيب خاطرها، ثم رحل ميمما شطر سيناء . ولم تطل غيبته ، اذ سرعان ما عاد وقد امتلأت نفسه مرة أخرى يأسا ومرارة من جراء موقف وزارة الخارجيــة حياله .. فلقد استطاع ــ بعد جهود مضنية ــ العثور على جثة الأستاذ القتيل ، بيد أن الوزارة ما لبثت ان قررت فجأة ابعاده عن الصحراء ، بعد أن اوفدت من يحل محله لانجاز المهمة التى كان ريتشارد على وشك أن ينتهى منها على الوجه الأكمل !

وبدأت حالة برتون الصحية تتدهور سريعا ، واذ ذاك عكف ــ بمساعدة ايزابيل ــ على جمع مسودات ترجمة قصص « ألف ليلة و ليلة » ، التى كان قد قام بها أثناء رحلاته ومغامراته فى بلاد الشرق . ووجد فى هذا العمل ما يسرى عنه ، ويخفف من الحزن والأسى اللذين أخذا يتملكانه فى السنين الأخيرة .. وما أن صدرت ترجمته الكاملة لقصص ألف ليلة ، حتى لقيت نجاحا لم يكن يتوقعه ، واحدثت ضجة كبيرة فى الدوائر الأدبية بلندن ، فانهالت الأموال عليه ، وراحت دور النشر تتودد اليه ، وتتنافس على شراء حقوق طبع الكتاب !

واذ ذاك كتب ريتشارد الى وزارة الخارجية يطلب اليها نقله من (تريستا) ، وتعيينه فى احد المناصب بلندن ، أو ــ فى حالة تعذر الاستجابة الى طلبه ــ أن تحيله الى التقاعد مع منحه معاشا كاملا ..

وجاء رد وزارة الخارجية سريعا ، وفيه تخبر برتون

بموافقتها على احالته الى التقاعد بعد خمسة أشهر . واغتبط برتون وايزابيل للنبأ ايما اغتباط ، وراحا يعدان عدتهما لمغادرة تريستا والعودة الى لندن : ولكن ريتشارد أصيب فجأة بجلطة دموية فى قدمه — فى ليلة ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٠ — فاستدعت ايزابيل الطبيب على عجل . ولكنه قرر — بعد ان فحص المريض — ان ليس فى حالته ما يدعو للانزعاج . ولم تمض ساعات قلائل ، حتى أحس ريتشارد بأنه يختنق . وحاول الطبيب اسعافه ، بيد ان أدويته لم تفلح فى وقف التدهور السريع فى صحة المريض . وما ان لاحت تباشير الفجر ، حتى كان ريتشارد يحتضر بين ذراعى ايزابيل . وسرعان ما نظر اليها هامسا : « لقد هلكت ! » .. ثم لفظ آخر انفاسه !

فراق .. الى حين !

• وعادت ايزابيل حزينة الى لندن حيث كانت شقيقاتها فى انتظارها . واذ نقل نعش برتون عن طريق البحر ، توجهت الى ميناء ليفربول حتى تكون فى استقباله ، على الرغم مما كان يعتريها من ضعف وهزال ! ... ولما وصل النعش ، لم تستطع أن تتمالك نفسها ، فاندفعت نحوه ، ثم ألقت بنفسها عليه ، وراحت تقبله فى حرقة وهى تصرخ وتنتحب .. وأبت الا أن تدفن جثمان زوجها فى مقبرة خاصة صغيرة المساحة ، حرصت على أن تظللها بمخيم على الطراز العربى ، تعلوه شرائط ذهبية !

.. ثم استأجرت مسكنا فى لندن ، وراحت تشغل وقتها

بمراجعة كتب برتون وأوراقه . وعند ما فرغت من اعداد طبعة جديدة من كتاب « ألف ليلة وليلة » ، ومن تهيئة سائر الكتب الأخرى – التى وضعها زوجها عن البلاد التى زارها – للطبع ، أحست بارتيـاح كبير ، وأدركت أن فى وسعها ان تموت اخيرا فى سلام ، بعد ان انهت مهمتها ، وأدت رسالتها نحو زوجها ..

وما لبث المرض ان اخذ يلاحق ايزابيل بصورة مطردة ، عجلت بخطواتها نحو نهايتها المحتومة .. ولم يمهلها المرض طويلا . فلم يحل يوم ٢١ مارس عام ١٨٩٦ ، حتى أسدل الستار على قصة حياتها الحافلة .. وقد دفنت – كمـا أوصت قبل وفاتها – بجوار ريتشارد .. فى تلك المقبرة التى يظللها المخيم العربى ! .. وعلى باب المقبرة ، وتحت اللوحة الصغيرة التى كتب عليها اسم ريتشارد برتون ، نقشت هذه العبارة المقتضبة : « ايزابيل .. زوجته ! »

وبذلك لحقت ايزابيل بحبيبها فى مثواه الأخير ، وكأنمـا أرادت ان تلازمه فى الموت كما لازمته فى الحياة ، بينما راح يتردد – عبر السنين البعيدة – صدى نبوءة الغجرية التى قالت لها ذات يوم : « لن يكتب عليكما فراق قط ، وانمـا ستظلان روحا واحدة فى جسدين ! »

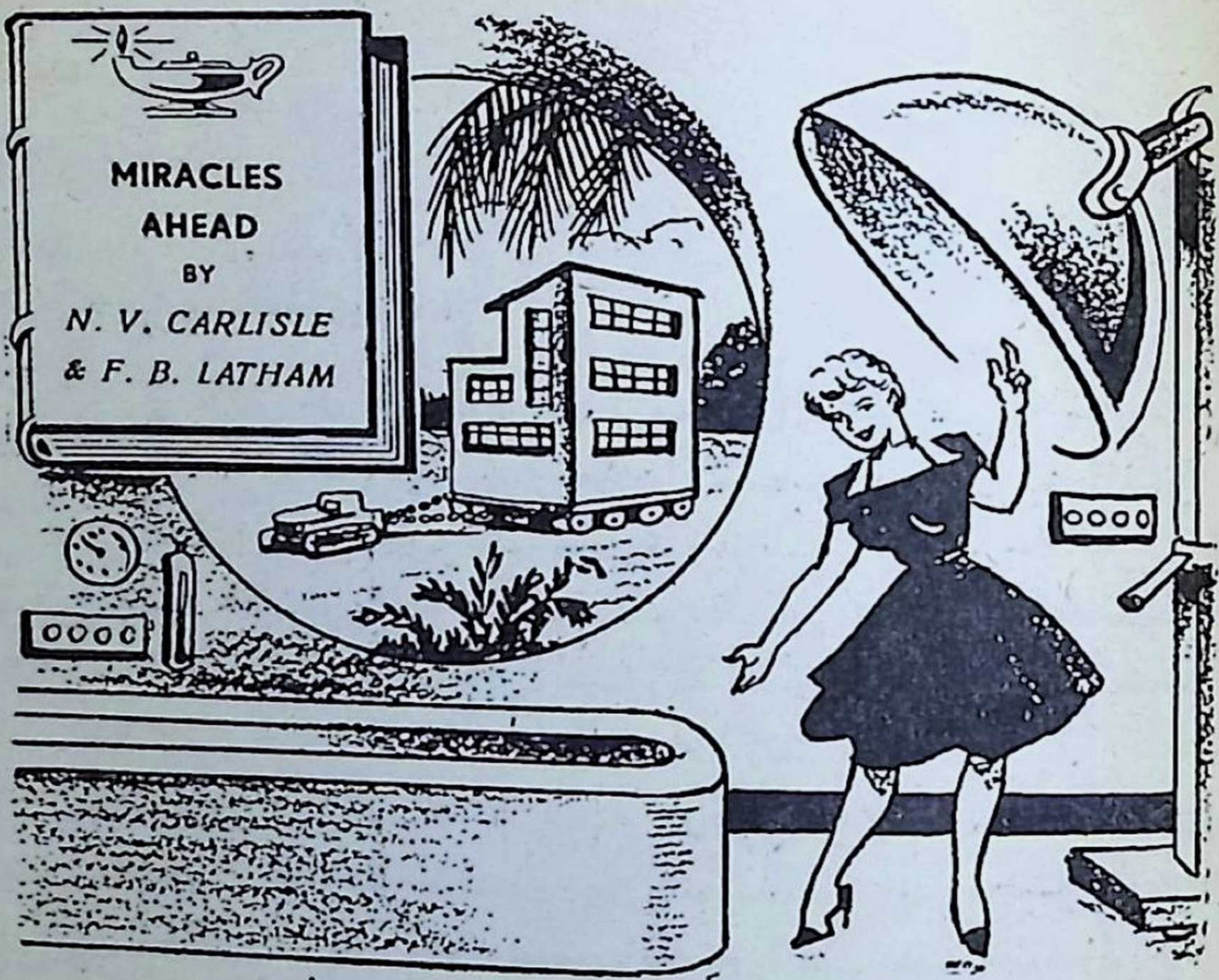

معجزات المستقبل القريب!

قصة الروائع التى يعدها العلم لتيسير الحياة لك .. كما يتنبأ بها المهندسان الفنيان الإنجليزيان:

نورمان كارليل ، وفرانك لاثام

تلخيص : فوزى الشتوى

عزيزى القارىء ..

• منذ حوالى شهرين ، شهد العالم تجربة جديدة فى « الديموقراطية » وتمكين الشعب من أن يناقش مشكلاته ، ويدرس شؤونه ، ويرسم خطط حياته .. تجربة المؤتمر العام للاتحاد القومى ، الذى اجتمعت لجانه وناقشت مسائل أصدرت فيها قرارات لن يلبث مجلس الأمة أن يحيلها الى قوانين ..

ولقد شهدت « لجنة الفنون والآداب » بالذات مناقشة حامية بصدد دور الصحافة العربية فى نشر الثقافة العلمية ، فى عصر أصبح العلم فيه هو الموجه الأكبر لحياة الانسان ..

وأنت تعلم ان « كتابى » كان سباقا الى ادراك قيمة العلم ، وأهمية الملم القارىء العادى بالحقائق العلمية . وقد اعتدت أن أقدم لك – فى كل عدد تقريبا – كتابا علميا ، يراعى فى تلخيصه تبسيط لغته وشرح المصطلحات والنظريات العلمية التى تتخلله ، ليتيسر لأقل القراء الماما بالدراسات العلمية أن يفهمه ويفيد منه .

واليوم أقدم لك كتابا جديدا ، شيقا .. واكثر ما يشوقك منه ، هو انه يبصرك بما يعده العلم لك فى الغد القريب ..

مسكن .. حسب المزاج !

ما أكثر المعجزات التي يرتقب أن يتمخض عنها المستقبل ! .. ولعل أهمها بالنسبة اليك، هو «المسكن» .. فلنبدأ به !

لسوف يتسنى لك فى الغد القريب ان تشكل مسكنك وفقا لحجم أسرتك وحاجاتها ، وتبعا لذوقك ومزاجك .. تماما كما تختار لون « بذلتك » ، وطرازها ، وكما تشكلها وفقا لحجم جسمك ، وتبعا لذوقك .. بل لسوف يغدو بوسعك أن تضيف اليه مزيدا من الحجرات اذا شئت !

ذلك لأن مساكن المستقبل ستعد مقدما على شكل جدران وقطاعات تشتريها أو تستأجرها من التجار ، ثم تقيمها وتنسقها فى المساحة المتاحة لك ، سواء كانت هذه المساحة فى أرض فضاء ، أو طابقا فى احدى البنايات . اذ ان فن الهندسة المعمارية يتجه الآن الى أن تكون البنايات مجرد هياكل مقسمة الى طبقات ، دون حجرات .. أى مجرد أعمدة وسقوف . وبدلا من ان تستأجر مسكنا ، ستقتصر على استئجار ٥٠ أو ١٠٠ متر مربع فى أى طابق شئت ، ثم تقيم فيها الفواصل والجدران التى تقسمها الى حجرات وردهات والآن ، تعال نتصور بناء المنزل بعد سنوات قلائل !

لسوف تبدأ باختيار الموقع ، وشراء الأرض أو استئجارها .. فان سهولة اقامة المبانى ستغريك بعدم الارتباط بموقع ثابت ، ومن ثم فسوف ينتشر تأجير الأرض الفراغ ..

ولن يكون عليك ـ بعد ذلك ـ سوى ان تقصد بائع المساكن الجاهزة ، فتختار الطراز الذى يروق لك ، والتصميم الذى يلائمك ، وألوان الجدران التى توافق ذوقك . ولا يلبث العمال ان يذهبوا الى الأرض لتخطيطها واقامة اساس بسيط

من الأسمنت المسلح . ثم تنقل أجزاء « الفيلا » فى سيارة الى هناك ، فتقام الجدران والسقوف والمرافق فى سويعات قليلة .. ذلك لأن المرافق — دورة المياه وملحقاتها — ستكون جاهزة فى قطاعات يمكن توصيلها ، فى دقائق ، بأنابيب المياه الممتدة فى جدران خاصة .. بل ان أحواض الاستحمام والغسيل وما اليها من الممكن أن تغيب داخل الجدران فى أوقات عدم استعمالها ، توفيرا للفراغ الذى تشغله ..

ومن الجائز ان تستخدم مواد لاصقة لسد الثغرات التى قد تنشأ عن توصيل أجزاء الجدران والأركان ، وبذلك يتيسر تفادى تسرب التيارات الهوائية ، والبرودة ، والحر ، الى داخل المسكن ..

ويرى الخبراء أن هذه المساكن ستوفر لكل انسان — غنيا كان او فقيرا — المسكن الملائم لظروفه وحاجاته . كما أن سهولة نقلها ستكون ميزة تفوق كل الميزات .

درس من قدماء المصريين

ويقول المهندس « جورج فردريك ريك » — الاخصائى في التصميمات الحديثة للمساكن — ان أهم ما ينشده الناس فى مساكنهم ، هو ان تكون دافئة فى الشتاء ، معتدلة الجو فى الصيف .. وهذا أمر يمكن توفيره اذا ما درسنا خير السبل لاستغلال أشعة الشمس وخاصية بخر الماء .

ويتوقع « ريك » أن تكون واجهات منازل الغد من الزجاج .. وليس على المهندس الذى يقيم اى منزل سوى ان يدرس اتجاه أشعة الشمس بالنسبة للموقع ، ومدى ميلها فى فصول السنة . وعلى أساس هذه الدراسة ، تقام الواجهة المقابلة لمصدر أشعة الشمس من الزجاج ، ويمد السقف العام للمنزل نحو عشرة سنتيمترات فى الهواء ، وفقا لزوايا ميل

اشعة الشمس . فمن المعروف أن الأشعة يشتد انحرافها شتاء ، بينما تكون قريبة من الوضع الراسى صيفا . ومن ثم فان الجزء البارز من السقف يحجب الأشعة الرأسية فى الصيف عن جدران المسكن ونوافذه ، بينما يكون الانحراف – فى الشتاء – أشد من ان يصده البروز ، فتصل الأشعة الى النوافذ وتتسرب الى داخل البيت . وهكذا تلعب الحافة البارزة من السقف دورا كبيرا فى تكييف جو المنزل . ويزداد هذا الدور قيمة اذا روعى فى تلك الحافة أن تكون متحركة ، بحيث يمكن التحكم فى درجة ميلها .

أما الافادة ببخر الماء – وهو تحول الماء الى بخار بفضل حرارة الجو وحدها – ففكرة مأخوذة عن قدماء المصريين ، اذ كانوا يبسطون على سطوح مساكنهم وبر الصوف ، وينضحونه بالماء . فاذا ما انصبت عليه أشعة الشمس ، تبخر الماء وصعد فى الهواء حاملا معه الحرارة ، مما يلطف درجة الحرارة فى داخل المسكن .. ومن الممكن أن تزود المساكن – فى المستقبل القريب – بجهاز يتيح للمرء اذا ما ضغط زرا ، أن ينشر الماء على السطح الخارجى لمنزله ، فلا يلبث أن يتبخر بحرارة الشمس .

الاضاءة فى مساكن الغد

ويرى الاخصائيون ان مساكننا الحالية متخلفة عن نهضتنا العلمية .. فلا يزال الغبار يتسرب اليها ، ولا نزال أبعد ما نكون عن الافادة الصحيحة من ضوء الشمس نهارا ، ومن الضوء الكهربائى ليلا ، ومن الآثار التى تحدثها الألوان على نفوسنا وأعصابنا .

ولقد أصبحت الاضاءة ترتبط بالألوان الى حد كبير . فبالضوء يمكن تحويل لون الى آخر . فاللون الأبيض – مثلا –

يتحول الى لون ازرق هادىء ، اذا سلطت عليه ضوءا من مصباح ازرق .

ومن أهم عوامل الاضاءة الحسنة ، ان يكون الضوء موزعا توزيعا عادلا فى شتى انحاء الغرفة . وقد تقدم — حديثا — فن توزيع الضوء ومصادره ، بحيث يتسنى تخفيف وهج الضوء ، وتجنب وجود زوايا معتمة .

ومن أهم المبتكرات الحديثة ، التي تحتل مكانة ممتازة فى عالم الاضاءة ، مصباح « الفلوريسنت » الذى يتألف من انبوبة زجاجية طويلة ، رفيعة ، تحوى كمية من الزئبق ، كما انها مبطنة من الداخل بغشاء من مادة الفوسفور التى يصدر عنها الضوء عندما تتعرض للأشعة فوق البنفسجية . ولهذا يكون ضوء « الفلوريسنت » فى بياض ضوء الشمس .

وانت فى العادة لا ترى الأشعة فوق البنفسجية ، ولكنك ترى آثارها عندما تتعرض للشمس مدة طويلة ، اذ تصاب بشرتك بالالتهابات . وهذه الأشعة مسئولة أيضا عن انتاج فيتامين « ج » فى جسمك ، ولسنا بحاجة الى الحديث عن اهمية هذا « الفيتامين » وفائدته .

ومن الجائز انك رأيت المصباح القاتل للميكروبات ، فهو مبنى على الفكرة نفسها ، بيد ان الزجاج يستبدل فيه بنوع معين لا يطلى من الداخل بمادة الفوسفور ، فتنطلق منه الأشعة فوق البنفسجية دون حجاب .. وهى قاتلة للميكروبات .

لا غبار ، ولا دخان ، ولاضوضاء

ومن الاختراعات التى ظهرت ، ولكنها لا تزال بعيدة عن متناول المستهلك العادى ، أجهزة تكييف الهواء المزودة بأدوات امتصاص الغبار . وقد ابتكرت فى عام ١٩٣٤ ، وتتألف من

اسلاك من مادة « التنجستين » ، وألواح من الصلب يمر الهواء من بينها . فاذا تخللتها ذرات من الغبار ، فانها تصير موجبة الشحنة الكهربائية ، فتلتصق كالمغناطيس بالألواح السالبة الشحنة .

وقد قال مكتشف هذه الفكرة ــ المهندس «جايلورد بينى» ــ انها لا تستهلك سوى ثلاثة فى المائة من التيار الذى يستهلكه جهاز تكييف الهواء ، فى الوقت الذى توفر علينا فيه نفقات أخرى . اذ ان خلو المسكن من ذرات الغبار يبقى الستائر والأغطية نظيفة مدة اطول، ويعفى من نفقات الصابون والغسيل والاستهلاك .

وقد ادخلت عدة تحسينات على هذه الأجهزة ، واستخدمت بطريقة عملية مريحة فى بعض الجهات الصناعية الموبوءة بدخان المصانع الذى يتسلل من أدق الفتحات التى لا تراها العين .

وهناك اختراع آخر ينقى الهواء من دخان المصانع ، ثم يستخدم الدخان الذى يتصيده ، فيحوله الى وقود . وقد أضيف هذا الجهاز الى الأفران ــ على سبيل التجربة ــ فاستطاع ان يحرق ٩٠ فى المائة من السناج (الهباب) ، ووفر بذلك ما يعادل ٢٥ فى المائة من الوقود المستهلك .

ويتوقع الخبراء أن يتمكنوا ــ فى القريب ــ من تحسين هذا الجهاز ، حتى يستطيع استهلاك كل السناج الذى يتناثر فى الجو ويتسرب الى صدورنا ويعلق بملابسنا واثاث منازلنا ومفروشاتنا .

وليس من شك فى ان الضوضاء من اسوأ الظواهر التى صاحبت المدنية الصناعية .. وقد عكف الخبراء منذ أيام الانقلاب الصناعى على محاولة التخلص من هذه الضوضاء .

واهتدى خبراء الهندسة المعمارية الى كثير من فنون تخفيف وطأة الأصوات وامتصاص حدتها ، باستخدام مواد للبناء عازلة للأصوات ، أو تكوينات هندسية تقاوم ترددها . ولذلك نراهم يحرصون الآن على تجنب بناء جـدران متوازية او مستقيمة رأسية ، بل يجعلون الجدران وقطع الأثاث مقوسة او ذات أشكال انسيابية . كما يزودون المداخل ويكسون الجدران بمواد عازلة للصوت .

التدفئة والتهوية

كذلك تقدمت دراسـة وسائل التدفئة الى حد كبير ، فأصبحنا نستغنى عن « المدافىء » بفضـل ما عرفناه عن ظاهرة التسرب الحرارى . ففى كثير من المبانى الحديثة ، تمد الأنابيب فى داخل الجدران ، لتحمل البخار أو المـاء الساخن . وليس معنى هذا ان تكون درجة حرارة الجدران مرتفعة بشكل ملحوظ ، بل يكفى أن تكون مرتفعة عن درجة الحرارة العادية . فمن القوانين الطبيعية أن الحرارة تنتقل من اى جسم الى أى جسم آخر اقل منه حـرارة . وان الجسم البشرى ينتج من الحرارة اكثر مما هو بحاجة اليه ، فلا بد له من أن يتخلص من الحرارة الزائدة بأن يجعل ما حوله يمتصها .

واذا كانت درجة حرارة الجـدران منخفضـة أكثر من اللازم ، فانها تمتص كثيرا من حرارة جسمك ، وبالتـالى تجعلك تحس بالبرد . أما اذا كانت حارة أكثر مما يجب ، فانها تطرد بعض حرارتها ليمتصها جسـمك . ومن ثم فلا بد من أن تكون حرارة الجدران فى الشتاء اعلى من حرارة الجسم البشرى ، والعكس فى الصيف . وهذا هو ما يعكف الخبراء اليوم على دراسته . وهم يفضلون طريقة مد انابيب

التدفئة فى الجدران ، لأن الحرارة فى هذه الحالة توزع فى المكان كله ، ولا تتركز فى منطقة معينة . وبذلك لا يتعرض الساكن للتيارات الباردة ، وما يترتب عليها من أمراض البرد والنزلات الشعبية . ومن البديهى ان حرارة الشمس ستستغل فى هذا المجال على نطاق واسع . ومن الجائز أن تغنينا فى المستقبل عن استخدام اى وقود فى هذه العملية .

مخترعات تخفف عن ربة البيت أعباءها

وبيت المستقبل قليل الأثاث . ويرى المهندس « جيلبرت رود » أن الاتجاه الى أن تكون قطع الاثاث متصلة بالجدران بحيث تطوى فى داخلها - عندما لا تكون ثمة حاجة الى استخدامها - سيزداد فى أوسع نطاق . وسيترتب على ذلك تخفف الأسرة من أعباء اقتناء الأثاث ، ومن متاعب نقله كلما انتقلت من مسكن الى آخر ، اذ أن معظم قطع الأثاث ستصبح أجزاء من الجدران ، وبالتالى من المسكن .. تستأجر معه ، وتترك فيه عند انقضاء اجل الاستئجار .

على أن اكبر فائدة تترتب على ذلك ، هى أن تغييب الأثاث فى الجدران - فى غير اوقات استعماله - سيزيد من الفراغ داخل الغرف . ويقول الباحث « رودسجون جيبنجس » ان الاكثار من الأثاث فى المساكن يرجع الى حالة نفسية لدى الانسان فى العصور الخالية .. فقد كمن فى الوعى الباطن لديه ، ما كان يساور الانسان البدائى من خوف من الأماكن الخالية . وحان الوقت الآن كى يتخلص الانسان - فى عصر الذرة والصواريخ - من هذا الاحساس الدفين ، اذ توفرت فى المجتمع أسباب الحماية والأمن .

ومما سيساعد على التخفف من اعباء الأثاث ، ان اخترعت

اخيرا حشيات تنفخ عند الاستخدام ، وتفرغ لتطوى فى أصغر حيز اذا ما فرغ الانسان من حاجته اليها . وتصنع هذه الحشيات من مواد صناعية لا يتلفها الماء والصابون والمطهرات ، مما يعفى ربة البيت من كثير من أسباب التعب والقلق اثناء قيامها بتنظيفها .

نصيب الحمام والمطبخ من جهود العلماء

ولسوف يكون لحمام البيت نصيب من عناية العلم فى بيت الغد .. فالى جانب ما سيدخل على نظام الماء الساخن من تحسينات ، سيزود الحمام بمصابيح الأشعة فوق البنفسجية لتغذية الجسم ببعض الفيتامينات الضرورية . كما ان الأرضية ستظفر بنظام للتدفئة يقيك مضار السير حافيا فى الحمام ..

ويرى « ولتر داروين تيج » ان الحمامات ستجهز بآلات للغسيل تقوم بغسل ثيابك وتجفيفها وكيها بينما تنعم بلذة الاستحمام .

والثلاجات الكهربائية .. ان من أبرز ما يضايقك فيها ان كثرة فتحها يؤثر على الجو الداخلى فيها ، مما يزيد من الطاقة الكهربائية التى تستهلكها . ولهذا يعمل الفنيون على ابتكار ثلاجات على شكل أدراج ذات واجهات زجاجية ، ولكل منها درجة حرارة معينة تناسب نوعا من الأطعمة التى تحفظ فيها .. فتوضع الخضر فى درج ، واللحوم فى آخر ، والسمك فى ثالث . وخلال الزجاج تستطيع رؤية مكان الشيء الذى تريده ، فتفتح الدرج الذى يضمه ، دون سواه.

كذلك يضع الخبراء تصميمات تمكنك من الحصول على قطع الثلج بالضغط على زر بأحد الأدراج ، فتتساقط هذه القطع واحدة بعد اخرى من فتحة خاصة ، وكلما سقطت

قطعة انسياب الماء ليملأ مكانها « أوتوماتيكيا » . وبما ان الدرج لا يفتح ، فان الماء الجديد سرعان ما يتحول الى ثلج ، مما ييسر توفير المقادير الكافيه منه فى الحفلات .

ولقد وضع « وليام هامبى » تصميم مطبخ حرص فيه على توفير أسباب الراحة لربة البيت ، فنسقه بطريقة تجعل كل شىء فى متناول يدها . فعندما تطهو الطعام ، تجد شتى معداته وأوانيه فى متناولها دون ان تغادر مقعدها .

وفى مثل هذا المطبخ بمعداته ، تستطيع ربة البيت أن تطهو عدة اصناف من الطعام فى وقت واحد ، دون ان تخشى احتراق اى منها ، لأن أوانى الطهو والأفران ستكون مزودة بأجهزة حساسة لضبط الحرارة ، حتى اذا تم نضج اى لون من الطعام ، توقفت حرارة الموقد بطريقة آلية .. بل ان الأوانى ذاتها ستصنع بطريقة دقيقة تتحكم فى البخار فلا تستغرق عملية طهو الطعام وقتا يذكر .

والمطبخ عند المهندس « هامبى » من أهم اجزاء المنزل الحديث ، ولهذا يجعله متسعا ، ويلحق به غرفة المائدة فلا يفصلها عنه سوى حاجز صغير . والهدف هو تيسير مهمة ربة البيت فى تقديم الطعام لأسرتها دون مشقة . كذلك سيجهز المطبخ بجهاز آلى يتولى غسل الأواني وتجفيفها .. بل ووضعها فى الأماكن المخصصة لها .

« الألومنيم » .. هذا المعدن العجيب !

أما وقد اطمأننت الى مسكنك فى الغد القريب ، فتعال نتجه ــ فى جولتنا ــ اتجاها آخر !

لقد تعود معظمنا أن يتقبل آيات التحسن والتقدم فى المخترعات الهامة ــ كالتليفون ــ والمكتشفات التى اصبحت من ضرورات الحياة ــ كالكهرباء ــ دون أن يفكر فيما وراءها

من اشياء تيسر الحصول عليها والافادة منها ، كالمركبات ـ او السبائك ـ المعدنية التى تدخل فى صنعها .. والواقع ان المواد الخفيفة ، المتينة التى نحصل عليها من هذه المركبات ، ستكون ذات اثر كبير فى حياتنا المقبلة ، اذ انها ستدخل فى صناعة معظم الأدوات والمعدات التى نستخدمها ، فتجعلها غير ما هى عليه اليوم .

ومن هذه السبائك « الألومنيم » .. فلقد أدت ظروف الحرب الماضية الى تقدم كبير فى صناعة هـذه المادة المركبة ، والحصول منها على سبائك متينة وصلبة وخفيفة ـ فى آن واحد ـ لصناعة الطائرات الضخمة . وقد امتاز الخليط المعدنى الجديد بمقدرة فذة على احتمال درجات الحرارة بين ٦٥ تحت الصفر و ١٥٠٠ درجة مئوية ، مما ساعد على تحسين محركات الطائرات ، وانتاج المحركات النفاثة التى تظل بعض اجزائها فى غرفة الاحتراق دون ان تنصهر بفعل الحرارة الشديدة .

و « الألومنيم » من أكثر المعادن انتشارا على سطح الأرض ، ولكنه لا يوجد نقيا ، بل يكون متحدا مع مواد غيره . وقد بذل العلماء مئات المحاولات فى عشرات السنين لتيسير استخلاصه بنفقات معقولة . وكان أول الموفقين فى هـذا السبيل « فردريك ووهلر » ، الذى تمكن من استخلاص المعدن نقيا فى عام ١٨٢٧ . ثم ادخل الفرنسى « سانت كلير ديفيل » ، تحسينات على طريقته ، فى عام ١٨٥٤ .

واجتذب هذا المعدن الجديد انتباه الامبراطور « نابليون » الثالث فرأى انه يصلح لصنع خوذات الجنود ودروعهم ، واخذ يشجع « ديفيل » حتى تمكن ـ فى عام ١٨٥٩ ـ من خفض نفقات استخلاص الرطل من المعدن ، من نحو ١٠٠ جنيه الى أربعة جنيهات .

وبعد سبع سنوات اقتفى كل من الباحثين « تشارلس

مارتن هول » الأمريكى و « بول هيردلت » أثر « ديفيل » . وتمكن كل منهما من اكتشاف طريقة رخيصة لاستخلاص المعدن بنفقات لا تتجاوز ٤٠ قرشا للرطل الواحد . وباستمرار الدرس والتجارب ، هبطت نفقات الحصول على « الألومنيم » النقى الى ثلاثة قروش للرطل ، وقفز انتاجه العالمى من ١٫٦ طنا — فى عام ١٨٨٦ — الى نحو ٣ بلايين من الأرطال فى الأعوام الأخيرة . وكانت الكهرباء هى أهم عامل لاستخلاص المعدن النقى ، مما روج صناعته فى المناطق الغنية بالتيار الكهربائى مثل كندا .

وبمواصلة عمليات التحسين ، أمكن صقل صناعة « الألومنيم » وتكوين مخلوطات معدنية جديدة ، يؤلف فيها العنصر الأول ، مما أفاد الصناعة الى حد كبير . وكانت مادة « الدورالومين » من أهم المواد فى صناعة الطائرات . وهى تتألف من خليط من «الألومنيم» والنحاس و «المجنيزيوم» . ومن مميزات هذا الخليط قدرته العجيبة على التحمل ، فهو يفوق سواه بنحو ٢٥ ٪ .

كنوز فى البحار

وماء المحيط من أغنى الموارد فى العالم بالمواد المعدنية . ويمكنك أن تقدر ضخامة هذه المواد اذا عرفت أن وزن الميل المكعب من ماء المحيطات يقدر بنحو ٤ بلايين و ٥٠٠ مليون طن : منها حوالى ١٥٥ مليونا من الأطنان من ملح الطعام ، ونحو ١١٫٧ مليونا من أملاح اخرى كمادة الصوديوم ، و ٣٢ مليون طن من أملاح المجنيزيوم ، و ٦ ملايين من الكلسيوم .. فضلا عن المعادن الأخرى التى تجرفها مياه الأنهار من طبقات الأرض التى تمر بها وتنقلها الى البحار .

ومن الممكن استخلاص هذه المواد من ماء البحر ، دون

ما عقبة سوى ضخامة كميات الماء التى يتحتم امتصاصها من ماء المحيط لاستخلاص المعادن منها .

وقد جرب الخبراء استخلاص مادة « البرومين » من المحيط ، فكانت المياه تنقل الى خزانات ضخمة ، تسلط فيها غازات خاصة تتحد مع « البرومين »، ثم ينقى الخليط الناتج، وتستخلص منه المادة. ولكن التجربة أثبتت ارتفاع نفقات هذه الطريقة ، اذا قورنت بالحصول على المادة من بعض البحيرات الداخلية التى يقل انصباب الأنهار فيها ، مثل البحيرات الملحة (سولت ليكس) بأمريكا ، وبحر قزوين فى روسيا ، والبحر الميت فى فلسطين . فان قلة موارد هذه البحيرات من الماء ، وشدة ما تتعرض له من البخر، جعل الأملاح تترسب فيها بنسب كبيرة أتاحت استغلالها بنفقات زهيدة . كذلك ادى تقدم علم الكيمياء فى السنوات الماضية الى استخلاص بعض مواد البحر بنفقات زهيدة .. فاستخلصت مادة « المجنيزيوم » باستخدام الأحماض والتيار الكهربائى ، اذ أنهما اذا أطلقا فى خزان به ماء من البحر، طفت المادة على سطح الماء على هيئة « كلورور المجنيزيوم » ، التى يسهل علاجها بعدئذ للظفر بكل من المجنيزيوم والكلورور نقيا ..

وبهذه الطريقة امكن استخلاص طن من « المجنيزيوم » من كل ٨٠٠ طن من ماء البحر . وبالتحسينات التى يجرى ادخالها ، يتوقع خبير المعادن — الدكتور « هارنجتون » — ان يتسنى الحصول من ماء البحر على ما يكفى كل حاجة العالم من هذه المادة ، التى صارت ضرورية فى صناعة المعادن الحديثة ، التى تجمع بين المتانة وخفة الوزن ، والتى أصبحت تفضل « الالومنيم » . اذ ان الرطل منها يكفى لصنع عمود قطره نصف بوصة ، وطوله ١٦٠ سنتيمترا ، فى حين ان

الرطل من « الألومنيم » يعطى عمودا طوله ١٠٥ سنتيمترات فقط . أما العمود الذى يصنع من رطل من الصلب ، فلا يتجاوز طوله ٣٥ سنتيمترا .

ويضاف « المجنيزيوم » الى « الألومنيم » لصنع كثير من اجزاء السيارات والقذائف . اذ أن خفة وزن هذا الخليط المعدنى ، وقوة مقاومته ، تجعله من افضل المعادن لصنع وسائل النقل .

الحديد والصلب ومساحيق المعادن

وشملت الاكتشافات الحديثة معدن الحديد ، الذى يعد اكثر المعادن انتشارا على سطح الكرة الأرضية ، اذ توجد خاماته مختلطة بالاكسوجين . ويستخلص الحديد بحرق الخام مع « الكربون » الذى يمتص « الاكسوجين » ، ثم يسهل تحويله الى صلب بتخليصه من الشوائب ، واضافة النسب الملائمة من الكربون . وتتراوح درجة صلابته تبعا لعمليات تبريده . فمنه ما يبرد فجأة فى الماء أو الزيت ، ومنه ما يبرد ببطء . وفى فترة الحرب ، عرف العلماء عدة طرق جديدة لزيادة مقاومة الصلب باضافة معادن اخرى اليه كالمنجنيز ، الذى يضاف الى « الألومنيم » ايضا لزيادة صلابته .

وهناك عشرات الأنواع من الصلب . ومنها « صلب الكروم » الذى يمتاز بأنه لا يصدأ ، فضلا عن مرونته وشدة صلابته .. و « صلب النيكل » الذى عرف بشدة مقاومته لعوامل التآكل ، فصنعت منه الجسور ، والمدافع ، ودروع السفن والمصفحات .. وهناك « صلب التنجستين » الذى تصنع منه ادوات قطع

المعادن ، والذى لايتأثر بالحرارة مما جعله من أفضل المعادن فى صناعة المصابيح ، ويشاركه فى مقاومة الحرارة « صلب المولوبيديوم » . وكل هذه المخلوطات المعدنية وغيرها حديثة عهد فى ميدان الصناعة، ولكنها تحتل مكانتها بسرعة ، فتيسر للانسان أجهزة وادوات كانت مستحيلة فى الماضى.. وبفضلها تقدمت صناعة الطائرات النفاثة ، والسيارات ، والآلات الصناعية التى يسرت انتاج الأجهزة بنفقات قليلة فأصبحت بعض الكماليات ضرورات لا غنى عنها .

وقد أدت ظروف الحرب الماضية ، ونقص الخامات ، الى التوسع فى ابتكار المخلوطات ـ أو السبائك ـ المعدنية لتعويض هذا النقص .. حتى الذهب والفضة تحولا عن الاتجاه الذى سارا فيه كمعدنين ثمينين لم يكونا يصلحان الا للزينة، إذ وجد الخبراء ان نفعهما يزداد اذا ما أضيفا الى المعادن الأخرى . فبفضل الفضة تسنى زيادة سرعة وسائل النقل ، اذ أضيفت مادتها الى « البلى » المعدنى .. كما إضيف الذهب الى بعض اجهزة المعامل الكيميائية لأنه قليل التأثر بالأحماض .

كذلك ادت ظروف الحرب الى الافادة من المساحيق المعدنية، بصبها فى قوالب خاصة ، تحت ضغط معين ، وفى درجات حرارة أقل من درجات انصهار معادنها . وبذلك يصير المسحوق كتلة متماسكة ، تصنع منها آلاف السلع .. كأجزاء الطائرات ، والسيارات ، وأجهزة الراديو ، والقاطرات ، والمدافع ، والدبابات . فضلا عما فى هذا من تخفيض لنفقات الصناعة ، اذ أن المساحيق تصب فى قوالب بشكل الجزء

المنشود ، دون حاجة الى العمال الفنيين المدربين الذين يستلزمهم تشكيل المعدن العادى .

ويقول الخبير الانجليزى « روبرت ماركس » ان الزمن لن يطول حتى تصنع الساعات وأدق الأجهزة بهذه الطريقه التى توفر الجهد والمال .

دراجات من الورق وحرير من الفضلات

ولن يطول بك الزمان حتى تحصل من الورق على بديل للخشب وعدد كبير من المعادن . فقد توصل خبراء الورق الى انواع غريبة من حيث الصلابة ، والمتانة ، وعدم الاحتراق ، ومقاومة الأحماض الكيميائية وغيرها . ويقدر عدد الانواع المعروفة من الورق بنحو ١٥ ألف نوع ، تصلح لشتى الأغراض .. فيصنع منها الأثاث ، والجدران، والملابس ، وورق الكتابة، والنشاف . وأكثر هذه الأنواع تصنع من الياف عديمة القيمة التجارية ، ولكنها تعالج بالوسائل الكيميائية والصناعية لتعطيك النوع المطلوب .

ويقول الدكتور « هارفى دافيز » - مدير احد المعاهد الفنية فى امريكا - ان كل فضلات العالم مواد هامة يمكن تحويلها الى نوع من الورق يمكن استغلاله فى غرض من الاغراض .. حتى الدراجات ستصنع فى المستقبل من الورق المقوى المصنوع بشكل يجعله فى قوة الصلب . وقد شاهدنا كثيرا من التحول الذى طرأ على صناعة الورق ، فأصبح يستخدم فى صناعة اكواب للشرب ، واوعية لطهو الطعام ، اذ ان بعض انواعه يحتمل الحرارة الى درجة ٥٥٠ مئوية !

والصناعة والكيمياء لاتقفان عند حد ، فالتوسع فى دراسة خواص الخشب والفضلات الزراعية أحدث تغييرا جوهريا فى

مسألة الخامات الثمينة ، فصارت مخلفات الحقول من اثمن هذه المواد .. فمن عيدان حطب القطن ، وقش الأرز ، ونشارة الخشب ، واية فضلات بروتينية ، تستطيع الظفر بقائمة طويلة من المنتجات الضرورية للانسان .. كالحرير ، والورق ، والمطاط ، والكحول .. وعشرات من المواد التى لا غنى عنها .

وقد بدأت هذه المحاولات عند ما شعرت ألمانيا بأن امريكا وانجلترا تحاولان خنقها اقتصاديا ، عقب الحرب العالمية الأولى ، فراحت تبحث عن موارد محلية للخامات .. وما لبث العلماء ان وجدوا أن الخشب مورد غنى للخامات، اذ استطاعوا ان ينتجوا منه بعض المواد الغذائية ، والوقود ، والسلع الضرورية التى كان نقصها سببا فى هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى .

وكان الفضل الأكبر فى استغلال الخشب للعالم الالمانى « جوهان البرخت فون مونروى » .. وكان انسانا مغمورا ، ولكن علمه بخصائص الخشب ، ودقائق التحولات التى يمكن ان تطرأ على مادته، جعلته فى مقدمة الباحثين لتدعيم الصناعة فى المانيا عن طريق الكيمياء ، واستغلال الخواص الأساسية لمادة الخشب، وهى : **البروتين** أو المادة الغذائية التى تستطيع بعض الأحياء الميكروبية الدقيقة أن تعيش عليها، وتحولها الى سمن صناعى او مواد وقود او سكر ! .. وفى هذا الصدد قال العالم الألمانى « برجيوس » — الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء — ان فدانا مزروعا بالغابات يعطى خمسة أمثال السكر الناتج من فدان مزروع بالبنجر .

خمسة اتجاهات لاستغلال الخشب

ولقد فطن « هتلر » الى قيمة الخشب ، فنظم عمليات استغلاله فى خمسة اتجاهات لانتاج :

١ - مواد وقود صلبة وسائلة ، تصلح لانتاج المطاط الصناعى والبنزين .. وكلاهما لازم للمجهود الحربى ..

٢ - طعام للانسان وللماشية ، كالسكر والمواد الغذائية البروتينية ..

٣ - مادة « السليلوز » ، أساس صناعة المنسوجات والورق .. ومنها ظهرت عشرات الألياف الصناعية لانتاج الحرير والصوف وغيرهما من المنسوجات ..

٤ - مواد بناء تصلح لعمل الأكواخ المتنقلة، وجدران المنازل، وبعض أجزاء الطائرات .

٥ - مواد كيميائية وبقايا تصلح لعدد من الصناعات الكيميائية . ومنها استخرجت مواد لاصقة كالغراء ، واخرى تضارع الفحم فى الأهمية .

ومن تلك الفترة بدأ العالم يرى عجائب الكيمياء ، فكل مادة تتحول الى مركباتها الأساسية، ثم تتحول الى مواد اخرى نافعة .. فشاهدنا عشرات من انواع النسيج التى لم تكن تخطر ببال، والتى أوتيت مميزات هامة .. فبعضها يدفىء الجسم ، وبعضها يرطبه ، وبعضها متين أو صلب، وبعضها رقيق لين . وكان نطاقها واسعا حتى وجد فيها الصناع خير مادة لانتاج عشرات السلع .. من حشيات النوم الى قبعات السيدات . ولا يزال المجال متسعا ، وعامرا بالمفاجآت الغريبة ، ففى كل

مخلفات الحقل والمصنع مواد ثمينة يمكن تحويلها الى مواد مفيدة اذا عرفنا كيف نستغلها (١) ..

رمال الصحراء كنوز

والرمل أو « السليكا » من اهم الخامات التى سيعنى بأمرها فى المستقبل القريب .. فالسليكا هى المادة الأولية للزجاج الذى عرفته البشرية منذ ماقبل التاريخ ، ولكنها كانت تقصر استخدامه – فى البداية – على أدوات الزينة .. ثم استخدم فى صنع زجاج النوافذ والأبواب ، والقوارير ، والعدسات . وتنبه الانسان فى أوائل القرن العشرين الى ان استغلال خواص الزجاج لايزال فى مهده ، اذ ان هذه المادة تقبل الاندماج مع أكثر العناصر المعروفة على الأرض ، مما يجعلها تتشكل وتتكيف وتتخذ عشرات الأشكال ذات الخواص المختلفة.

ويصنع الزجاج عادة من « السليكا » والحجر الجيرى والصودا . وقد عرفناه على انه مادة سهلة الكسر ، وغير موصلة للحرارة ، حتى اننا اذا سخنا أحد سطحيه ، تمدد هذا السطح بينما يظل السطح الآخر منكمشا ، مما يؤدى الى تحطم الزجاج العادى . ولكن العلم انتهى الى صنع زجاج تستطيع أن تصب عليه الرصاص المصهور فلا يتأثر بحرارته .. وذلك لأنه يخلط بمواد تمكنه من احتمال درجات

---

(١) وقد نجح الخبراء العرب فى القاهرة فى استغلال هذه المعلومات ، وطبقوها على المخلفات الموجودة . فانشئت عدة مصانع فى بلادنا تستمد كل خاماتها من البقايا والفضلات التى تتحول الى بطاطين ، ووقود للمصانع والسيارات ، وورق ، ومسلى ، وعلف للماشية .. وهذه كلها بداية توسع اقتصادى وصناعى من العسير ان نعرف مداه ، ولكنه يبشر بامكان استغلال كافة الفضلات فى انتاج سلع جديدة .

الحرارة العالية . كما ظهر نوع من الزجاج تستطيع أن تسقط عليه كرة معدنية وزنها ثلاثة ارطال ، فلا يتأثر بالصدمة !

وبفضل هذه الخواص الجديدة، اصبحت فتحات الأفران والمصابيح ، والأوعية تصنع من زجاج يتحمل الحرارة والبرودة .. والأغرب من هذا أن هناك بحوثا اخرى تسعى لجعل الزجاج كالفلين والخشب ، فتستطيع ان تشقه وتقطعه بالمنشار أو الأزميل !

وهناك نوع يصنع على هيئة رغاوى الزجاج ، فتتخلله آلاف من الفقاعات . وهو من افضل المواد العازلة للحرارة والبرودة ، مما يتيح استخدامه فى بناء أجهزة تكييف الهواء والثلاجات .. كما ان هناك ألياف الزجاج العازلة للحرارة والكهرباء . ومنها انواع تصلح للعمليات الجراحية فهى أمتن من خيوط الحرير والجلد التى تستخدم لرتق الجروح . ومن مميزاتها سهولة تطهيرها من الميكروبات . وقد رايت طبعا الأقمشة المصنوعة من الخيوط الزجاجية ، مما أكسب الملابس رونقا ، وجعلها أقدر على تكييف حرارة الجسم .

والاتجاه العام الآن هو تحويل الزجاج الى مادة تشارك الحديد والخشب والورق فى أهميتها كخامات صناعية تصلح لانتاج عدة سلع . ومن مميزات البحوث والدراسات الجديدة لهذه المادة ، ان صناعتها لم تعد تحتاج الى نفقات كبيرة .

١١٨ سلعة من الفضلات

وقد كان العالم الزنجى الأمريكى « جورج وشنطن كارفر » — الذى توفى فى عام ١٩٤٣ — فى طليعة من اتجهوا الى هذه البحوث . وفى معمله تحولت كميات ضخمة من فضلات الحقول الى سلع نافعة كبيرة القيمة ، بلغ عددها

١١٨ سلعة .. من « الورنيش » الخاص بتلميع الأحذية ، الى المطاط الصناعى . وقدر انتاج هذه الصناعات – التى ظهرت من لا شىء تقريبا – بنحو ٢٠٠ مليون جنيه .

وكانت هذه البحوث والدراسات للافادة من فضلات الحقل والمصنع ، فتحا جديدا فى عالم الانتاج ، اذ ظهر انها تحوى اساس عدد ضخم من الخامات الصناعية اللازمة لعامة الشعب والفقراء منهم بصفة خاصة . ولهذا فان « جورج كارفر » لم يسجل أيا من مبتكراته الرائعة، بل تركها ليفيد منها اى منتج ، وليسير على نمطها اى باحث بغير قيد ولا شرط . فقد كان هذا الرجل ذا احساس انسانى فريد بين المبتكرين .. لم يطمع فى مال ولا جاه ، بل كان يقدم نصائحه لشتى أقطار العالم مجانا ، لينتج الصناع سلعهم بأرخص الأثمان .

وتبعا للتقدم الكبير فى عالم الكيمياء الصناعية ، تغيرت النظرة الى الخامات القديمة ، فلم يعد القطن مجرد ألياف تنسج منها الملابس ، بل أصبح خامة لانتاج « سليلوز » من انقى الأنواع . وتغيرت الفكرة عن « عادم » القطن الذى لا يصلح للعمل فى المغازل ، فأخذوه وحللوه الى عنصره الأساسى ، وصنعوا منه مادة اللدائن (بلاستيك) لأقلام الحبر .. كما صنعوا منه زجاجا لا يتحطم لنوافذ السيارات ، و « أفلاما » لصناعة التصوير ، ومواد متفجرة للقنابل ، وجلدا لصناعة الأحذية .. فضلا عن أنواع المنسوجات المعروفة والزيوت التى تستخلص من بذرته ، وتتحول الى مسلى صناعى .

ويشترك مع القطن فى الأهمية – كخامة صناعية ممتازة – محصول الذرة ، فهو يستخدم أيضا باسراف فى شتى الصناعات . حتى « قوالحه » ثبت انها غنية بالسليلوز

الذى يستغل فى صنع شتى السلع .. من الفيتامينات ، الى افلام التصوير ، الى علف الماشية (١) .

حتى فضلات المجارى لم يعد استغلالها قاصراً على استخراج السماد العضوى ، بل انها تعالج بالتخمير ليتحول بعضها الى وقود يصلح لدفع وسائل النقل من قاطرات وسيارات . ومنها ايضا صنعت القنابل الحارقة التى استخدمت فى الحرب الماضية !

الميكروبات فى خدمة الانسان

وأدت دراسة الانسان للميكروبات والأحياء الدقيقة الى عدد من المنتجات الهامة .. فحصلنا من فطريات الأرض على المضادات الحيوية – كالبنسلين و « الستربتوميسين » – التى تفتك بالميكروبات الضارة ، وتبعد شرها عن الانسان .

وهذه الميكروبات انواع وفصائل ، حتى ان الجامعات والمعاهد العلمية ، خصصت لها اقساما مستقلة عامرة بالباحثين الذين لا هدف لهم الا دراسة تلك الأحياء ، بغية استغلالها لفائدة البشرية .. وقد أوردنا – فى الأعداد السابقة – انواعا منها تنتج الكحول والسكر والفيتامينات . وسيعرف ولدك منها أنواعا جديدة تصلح لاداء كل غرض .

وفى الماضى استخدم الانسان الحيوانات الكبيرة لتساعده فى أعماله . وقد بدأ يستغنى عن خدماتها بما ابتكره من

---

(١) بين علماء الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة ، من ينادى بان أبسط وسيلة لاستخدام فضلات الحقل هى دفنها فى ارض الحقل ذاته ، لتتحلل الى عناصرها الاولى ، وتكسب التربة السماد العضوى الذى يضاعف من غلة الارض .

آلات قوية تؤدى عملها بطريقة افضل وادق . وهو يتجه الآن الى استخدام الحيوانات الدقيقة ـ التى لا يراها بعينيه ـ لتساعده فى انتاج مواد عجز عن الحصول عليها . فقد ثبت ان الميكروبات أبرع من الانسان فى علم الكيمياء !

كذلك ثبت ان النبات أبرع منا فى صنع الطعام ، فبدانا ندرسه لنعرف كيف يصنع البروتينات والفيتامينات والهرمونات من أشعة الشمس والماء وثانى اكسيد الكربون . وكلها مواد متوفرة فى أية بقعة من الأرض ، ولكن النبات وحده هو الذى يحصل منها على طعامه بالقدر الذى يريده . فاذا ما عرف الانسان هذا السر ، فلن يكون من داع للصراع على لقمة العيش .

وبعد .. فهذه صور عاجلة من عالم الغد القريب ، فاستوعبها واختزنها فى ذاكرتك ، وتطلع الى هذا الغد ، فقد يكون أقرب مما نتصور ويتصور العلماء !

رجال "أرامكو"

تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التى تؤخذ من المناطق التى تحتوى على الزيت داخل الارض هامة جدا . وتظهر هذه المعلومات الحالات التى بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت فى باطن الارض

والسيد عبد الرحمن سليمان العجاجى هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الآلات ومعرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر فى الصورة .

وقد التحق السيد عبد الرحمن فى شركة ارامكو فى عام ١٩٤٨ ، فعمل فى فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم فى مراكز فرز الغاز من الزيت حتى اصبح مشغلا اعلى خارج الورشة . وفى اوائل هذا العام عاد الى العمل فاصبح مشرفا بقياسات الحرارة والضغط

وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين فى بلدة ظرما فى نجد. وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها فى مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن اخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على اعمال تسجيل الحرارة والضغط فى حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة فى هذا الباب .

أرامكو : شركة الزيت العربية الأمريكية

الظهران - المملكة العربية السعودية

عندما ترفع الستار ..

روائع المسرح العالمى

(التمثيلى - والغنائى)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • فى سبيل الحب • الام • الملك ياهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • أغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الارامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع فى حبائلهن • حلاق أشبيلية • الهاربة من الفضيحة • رجل الاقدار • جوديث • نيكراسوف • أنباء مثيرة • الدروماك • جندى محترف • الشقيقات الثلاث • الهاربة من السجن • الابرار .. الخ

واليوم ، أقدم لك مسرحية من الأدب الانجليزى المعاصر

ابنة متمردة

« مهنة مسز وارين »

المسرحية التي كادت تعصف بمستقبل
الكاتب الايرلندي الخالد الذكر

جورج برنارد شو

عزيزى القارىء :

للمسرحية التى أقدمها لك فى الصفحات التالية قصة طريفة، خليق بك أن تلم بها ، قبل ان تقرأ تلخيص المسرحية ذاتها .. فلم يقدر لتمثيلية ان أثارت فى اية دولة ما أثارته « مهنة مسز وارين » فى انجلترا .. لقد أراد الكاتب اللاذع السخرية « جورج برنارد شو » - عندما كتبها فى سنة ١٨٩٤ - ان يلفت الانظار الى أن البغـاء ليس وليد حرمان الانثى ، أو فجور الذكر ، وانما هو وليد مايقع على الانثى من غبن ، وعدم ظفرها بحقها من التقدير ، وفرط ارهاقها بالعمل الى درجة مخزية ، تضطر معها أفقر الاناث الى أن يلجأن الى البغاء ، لينجون من هذه الحال .. ليس هذا فحسب ، وانما - كما عبر « شو » بنفسه - « اردت ان ابين ان البغاء .. يمارس أيضا كمهنة منظمة ، ويستغل كتجارة دولية كبيرة ، لصالح الرأسماليين ، كأية تجارة أخرى » !

وما أن ظهرت هذه المسرحية لاول مرة ، حتى ثار رئيس الديوان الملكى ، الذى كانت له - اذ ذاك - سلطات استبدادية على المسارح البريطانية ، وتمثلت ثورته فى مرسوم برلمانى ، دمغ المسرحية بأنها « غير خلقية ، ومن ثم فهى لاتليق بالاخراج على المسرح » . وحرم عرضها ، فأصيبت سمعة « شو » - وهو اذ ذاك فى بداية مجده - بأضرار بليغة ، وصفها بأسلوبه الساخر : « كذلك أعترف بأن سمعتى كناقد ثورى لاعظم نظمنا الاجتماعية نصيبها من الاحترام ، قد جعلنى باستمرار فى مياه ساخنة (اى مواقف حرجة) . لذلك فان ملء ابريق آخر من الماء المغلى - من رئيس الديوان - لا يضيرنى كثيرا ، لاسيما اذ عززت المسرحية شهرتى - الى حد كبير - بين القراء الجادين .. ومع ذلك ، فان الضرر الذى حاق بى - والذى لم يعد من سبيل الى درءه - كان حقيقيا وكبيرا ، كما

أن الضرر الذى أصاب المجتمع كان أعظم .. فعندما عولجت مسألة « الاتجار بالرقيق الابيض » - كما اطلق على « مهنة مسز وارين - فى الهيئة التشريعية ، كان كل مافعله البرلمان هو أن يقرر جلد الذكور الذين يعاشرون البغايا ، والقوادين .. تاركا « مسز وارين » مسيطرة كل السيطرة على الموقف ، وقد ازدادت طبيعتها الحقيقية تواريا عن ذى قبل ، وراء قناع مكين .. وكان الذنب فى أن المشرعين والصحفيين لم يلموا تماما بحقيقة الموقف ، واقعا على الرقابة التى فرضت ! »

وفى سنة ١٩٠٢ ، أقدمت جمعية لهواة التمثيل ، تدعى « جمعية المسرح » على اخراج التمثيلية ، فان كونها جمعية للهواة أعفاها من سلطان رئيس الديوان .. ولكى تكون لدينا فكرة عن الضجة التى أثارها هذا الحادث ، ننشر لك - فيما يلى - بعض فقرات من حديث طويل جدا ، يستغرق حوالى ٤٠ صفحة ، اذا ترجم كاملا ، وقد جعله « شو » كمقدمة لطبعة خاصة من التمثيلية ظهرت بهذه المناسبة :

الفن أقوى من الوعظ !

« لو انكم مثلتم « مهنة مسز وارين » على جمهور من رجال الكنيسة ، ونسوة من الخبيرات بانقاذ وترويض الفتيات ، لما ثار أى ذعر على الاخلاق . فان كل رجل وكل امرأة من الحضور سيعرف أن صراعه العنيف ضد البغاء - بالصلوات ، والاغراء ، والملاجىء ، والصدقات الضئيلة - صراع خاسر ، طالما ظل الفقر قادرا على أن يجعل الفضيلة بشعة قاسية ، وطالما كانت النفقات التى يبددها العزاب الاغنياء باسراف تجعل الرذيلة باهرة تزيغ الابصار !

« ذلك لان الدعاة الدينيين والخلقيين لم يعودوا اليوم يؤمنون بالجحيم ، كما أن الفتيات - الذين يقوم هؤلاء بخدماتهم

الدينية والخلقية والاجتماعية بينهن — يدركن انهم لا يؤمنون بالجحيم . ولقد تعلم الآن هؤلاء المنقذون ان دفاع مسز وارين عن نفسها ، واتهامها المجتمع ، هو الشىء الجدير بأن يقال !

« ان (حرفة مسز وارين) هى الوحيدة بين تمثيلياتى التى أستطيع ان اقدمها للرقابه دون ما شك فى النتيجة ، على شريطه ان لايكون الرقيب من صغار النقاد المسرحيين ، ولا موظفا قضائيا ساذجا كذلك المحقق الذى عينه رئيس الديوان .. وغنى عن القول انه ينبغى الا يكون الرقيب من انقوم الذين يدركون انهم يربحون من مهنـــة مسز وارين ، ولا ممن يستغلونها شخصيا ، ولا ممن يتشبثون بالرأى الشائع هذا ، ان البغاء صمام أمن لاغنى عنه لحماية الفضيلة العائلية .. وقبل هؤلاء وأولئك ، يجب أن لايكون الرقيب من اولئك المصابين باشفاق عاطفى على أختنا الساقطة فيؤثرون أن يترفقوا بها .. ولا من الساده الاطباء الذين يفرضـــون الفحص الطبى والتسجيل على مسز وارين ، ويتركون « زبائن » مسز وارين ليتلفوا صحتها وصحة أى امرىء آخر ، دون خوف من أى غرم أو قصاص !

انى موقن من أن الفن الجميل هو اسمى الاشياء مكانة ، وأكثرها استهواء ، وأشدها مفعولا كأداة للدعاية الخلقية فى الدنيا ، لا يفوقه فى كل هذا سوى السلوك الشخصى .. بل اننى أستبعد هذا الاستثناء بالنسبة لفن التمثيل ، لانه يؤدى مهمته عن طريق عرض أمثلة للسلوك الشخصى ، فى قالب مفهوم حى ، على جموع من الناس عديمى الملاحظة والتفكير ، لا يبدو للحياة الواقعية لديهم معنى .. ولكم أجد الاسلوب التمثيلى مجديا ، حتى انى لا أشك فى اننى سأوفق فى النهاية الى اقناع لندن ذاتها بأن تأخذ معها ضميرها ووعيهـــا وعقلها ، عنـــدما تذهب الى المسرح ، بدلا من ان تتركها فى البيت مع كتاب الصلوات !

الجوع والقذارة والمرض .. كالبغاء !

« وأصل فى حديثى الى أولئك النقـاد ، الذين حيرتهم مشكلة « مهنة مسز وارين » ـ من الناحية العقلية ـ فجعلوا من الفرار منها بحجة الشهامة فضيلة ، اذ زعموا أن مثل هذه المشكلة لاينبغى أن تناقش ـ بل ولا أن تذكر ـ فى حضـور النساء . ولست أجادل مثل هـذه الشهامة ، وانمـا أؤكد ببساطة أن « مهنة مسز وارين » مسرحية للنساء ، وانهـا كتبت من أجل النسـاء ، وانها ما مثلت ولا أخرجت الا بفضل تصميم نساء على انها يجب أن تمثل وان تخرج ، وان تحمس النساء قد جعل أول عرض لها ناجحا الى أقصى حد ، وانه لم يغر أيا من هؤلاء النساء بمناصرتها سوى ايمـانهن بقوة الدرس الذى يتمثل فى هذه المسرحية ..

« ان الايحاء بأن البغاء ينشأ عن شر « مسز وارين » لايقل سخفا عن الايحاء بأن السكر وادمان الشراب نتيجـة لشر صاحب الحانة .. ان مسز وارين ليست أسوأ ـ قيد أنملة ـ من الابنة الطيبة السمعة ، التى لاتستطيع أن تحتمل اما مثلها .. والذى لايستطيع أن يرى ان الجوع ، والعمل المرهق ، والقذارة ، والمرض من الامور المنافية للمجتمع ـ مثلها مثل البغاء ـ وانها رذائل وجرائم وليست مجرد نكبات تصـاب بها أية أمة ، لهو انسان مغرق فى الفساد الى درجة لا رجاء فيه معها !

« ان الايحاء بأن مسز وارين لابد أن تكون شريرة جهنمية، ليس سوى مثال للعنف والشهوة اللذين تثيرهما فى العقول غير المتزنة أتفه اشارة الى « الجنس » ، واللذين يجعلان من الطبيعى لمن يسنون قوانيننا أن يعاقبوا أتفه التصرفات غير المحتشمة بوحشية لا يعامل بها الاحتيال المالى الذى يؤدى الى الدمار .. مثلا » !

الفصل الاول

• ترفع ستار الفصل الأول عن كوخ فى حديقة على سفح تل فى ريف انجلترا ، وقد بدت بضعة مقاعد قماشية – من النوع الذى يستخدم فى الحدائق – والى الجدار ، كانت ثمة دراجة مسندة .. والى اليمين محفة معلقة بين عمودين ، ومظلة كبيرة مثبتة فى الأرض ، تحجب الشمس عن المحفة التى استلقت فيها فتاة مستغرقة فى القراءة . وعلى منضدة – مجاورة – مجموعة من كتب يدل مظهرها على انها جدية ، وكمية من ورق الكتابة .

يبرز من خلف الكوخ رجل فى أوسط العمر ، يوحى مظهره بأنه فنان ، وقد عنى بملبسه وشكله . فيرفع قبعته محييا الشابة ، ويسألها : « هل لى أن أسأل عما اذا كنت الآنسة فيفى وارين ؟ » . وتعرف الشابة الجميلة انه يدعى « برايد » ، وان أمها هى التى دعته الى الحضور ، ليتعرف اليها ..

فيفى (فى شىء من التمرد) : لقد استطابت أمى ان تدبر لى المفاجآت ، لترى كيف أتصرف فى غيابها .. وأحسب اننى سأفاجئها بالمثل – ذات يوم – اذا ظلت تدبر لى ما يخصنى دون أن تستشيرنى .. انها لم تأت بعد .

واذ يرتبك الشاب ، تتخلى « فيفى » عن جفائها ، وتدعوه الى الجلوس .. ويبدو لها حرصه على ارضائها كمظهر من مظاهر الضعف ، فاذا ما سألها عما اذا كانت

تعتزم الذهاب لاستقبال أمها فى المحطة ، قالت : « ولماذا ؟ .. انها تعرف الطريق ! .. أتعرف انك كما توقعت ان تكون تماما ؟ .. أرجو أن تكون على استعداد لأن تصبح صديقا لى ! »

برايد : شكرا يا عزيزتى مس وارين . لكم انا مسرورلأن أمك لم تفسدك !..اننى فوضوى بفطرتى، واكره السلطان، فهو يفسد العلاقة بين الأهل والطفل .. بل بين الأم والابنة . وكنت أخشى ان تكون امك قد فرضت عليك نفوذها لكى تراعى التقاليد المتعارف عليها .. انكن – معشر الشابات العصريات – رائعات كل الروعة ! (ترمقه فى استياء من تفكيره وشخصيته) عندما كنت فى سنك ، كان كل من الشبان والشابات يخافون بعضهم بعضا ، اذ لم تكن هناك زمالة طيبة . لم تكن هناك سوى مجاملات منقولةعن الروايات ، وفى منتهى السخف والاستهجان .. تحفظ عذرى ، وشهامة فروسية ! .. «لا» دائما فى مكان «نعم» ! .. ولكن الأمور تتحسن . أتعرفين اننى كنت فى شوق حقيقى الى لقائك منذ سمعت عن اعمالك الرائعة فى كمبريدج ؟

ذلك أن الفتاة أظهرت تفوقا رائعا فى العلوم الرياضية ، وهى تفرغ – فى عطلتها هذه – الى استذكار القانون ، لتستطع أن تعمل فى « بورصة الأوراق المالية » .

برايد : أوليس من هوى أو جمال فى حياتك ؟

فيفى : لست أحفل بأى منهما ، فانما احب العمل والكسب منه . فاذا تعبت من العمل ، فاني أحب مقعدا

مرنجا ، وسيجارا ، وقليلا من الويسكى ، ورواية بوليسية جيدة !

ويأبى برايد أن يصدق ان فتاة مثلها تنصرف عن جمال الحياة الى هذا الحد ، ولا تحفل بالمسرح ، ولا بالموسيقى ، فيقول : « بصراحة ، أخشى أن تستاء أمك بعض الشىء ، فأنت تختلفين عن الصورة المثالية التى تتخيلها لك .. لعلك لاحظت يا مس وارين ان الناس الذين لا يرضون عن نشأتهم — بوجه عام — يخالون ان الدنيا تنصلح اذا نشأ كل امرىء على غير ما نشأوا عليه . ولقد كانت حياة أمك .. آه ، اعتقد انك تعرفين ! »

فيفى : لا تعتقد شيئا ، فأنا أكاد لا أعرف أمى ، اذ اننى — منذ طفولتى — أقيم فى انجلترا ، سواء فى المدرسة أو مع قوم يؤجرون على رعايتى . اما امى فكانت تعيش فى بروكسل أو فيينا ، ولم أكن اراها الا عندما تزور انجلترا لأيام قلائل !

* * *

وتحاول أن تحمله على أن يحدثها عن امها وحياتها ، ولكنه يراوغ ويتهرب ، الى ان تفد مسز وارين نفسها وبصحبتها كهل متصابى ، هو « السير جورج كروفتس » . أما الأم فامراة بين الأربعين والخمسين ، كانت جميلة يوما ، وقد بدا التبهرج فى ثيابها وزينتها . ويتجلى الاشمئزاز على « فيفى » من « السير جورج » وتظرفه المتكلف ، حتى اذا صافحها بيد رخصة ناعمة ، ضغطت عليها حتى أوجعته . وتذهب

« فيفى » لاعداد الشاى ، فيقول برايد لمسز وارين : «اعتقد ـ اذا لم يسؤك هذا القول ـ ان من الخير أن نكف عن التفكير فى ابنتك كما لو كانت فتاة صغيرة ، فقد استطاعت أن تبرز ذاتها ، حتى بت أعتقد ـ مما رأيت منها ـ انها اكبر من اى واحد منا ! »

مسز وارين : لا تقحم نفسك يابرايد ، فأنا أعرف كيف اعامل ابنتى .. (ويروح برايد يتمشى فى الحديقة واجما ، فتهمس لكروفتس) ماذا به ؟

كروفتس : انك خائفة منه .. خائفة منه !

مسز وارين (فى غضب) : اذا لم يكن بوسعك أن تجعل نفسك مقبولا ، فانصرف من هنا .

وتنهض فتجد نفسها وجها لوجه مع برايد ..

برايد : أرجو أن لاتخالينى غاضبا ياعزيزتى كيتى ، ولكنك تعرفين اننى كثيرا ما الأحظ امورا تفوتك . ومع انك لا تأخذين بنصحى قط ، فانك لاتلبثين أحيانا ان تعترفى بأنه كان خليقا بك ان تستجيبى لهذا النصح . وانا الاحظ الآن ان فيفى امرأة ناضجة ، فأناشدك ان تعامليها بكل احترام !

مسز وارين (فى دهشة) : احترام ؟! أعامل ابنتى باحترام؟

وتناديها ابنتها الى داخل الكوخ ، فتسرع اليها . واذ ذاك يسائل كروفتس جليسه عمن يكون والد « فيفى » ، فيبدى برايد جهله به .

كروفتس (غير مصدق) : افهم انك قد تكون مقيدا بوعد بالكتمان ، اذا كانت قد انبأتك . ولكن من المحرج ان لانكون على بينة ، ونحن سنلتقى بالفتاة فى كل يوم . اننا لا ندرى

كيف ينبغي أن نشعر نحوها !

برايد : وفيم يهم هذا ؟ .. اننا نتقبلها على علاتها ، فما قيمة أن نعرف من يكون أبوها ؟

كروفتس : اذن فأنت تعرفه ؟ ! (ينكر برايد) اذا كنت تعرف ، فخليق بك أن تطامن خاطرى .. لا تنزعج ، فهى فكرة بريئة ، وهذا سر حيرتى .. اذ من ادرانى ؟ .. قد اكون انا اباها !

برايد : انت ؟ ! .. مستحيل !

كروفتس (كمن أوقعه فى فخ) : أواثق انت من اننى لست اباها ؟ .. لعلها ليست إبنتك انت ؟ !

برايد (مستنكرا) : اسمع ياعزيزى كروفتس .. ليست لى اية علاقة بذلك الجانب من حياة مسز وارين ، ولا هى حدثتنى يوما عنه .. ان ذكاءك جدير بأن يعلمك ان المرأة الجميلة تحتاج الى بعض أصدقاء ممن .. اعنى ليسوا على شاكلتها ، فان مفعول جمالها قمين بأن يصبح عذابا لها ، اذا عز عليها أن تهرب منه بين آن وآخر !

كروفتس : لقد سألتها مرارا ، ولكنها مصرة على أن تستبقى الفتاة لنفسها ، حتى لتكاد تنكر انه كان لها أى أب !

* * *

وتناديهما مسز وارين ليدخلا كى يتناولا الشاى ، فيسرع كروفتس الى الداخل . واذ يهم برايد بأن يتبعه ، يلمح شابا مليحا أنيقا ، مقبلا ، وهو يحمل بندقية صيد خفيفة ، فلا يلبث ان يتبين انه صديق صباه « فرانك جاردنر » ، ابن

احد القساوسة .. ويتصافحان فى شوق . ويسأل برايد صديقه عن أبيه ، فيجيب هذا : « لقد أصبح موكلا بكنيسة القرية ، وقد جئت لأقيم معه خلال هذا الخريف ، من قبيل الاقتصاد ، فقد تأزمت الأمور فى شهر يوليو ، واضطر أبى الى ان يدفع عنى ديونى ، فأفلس كما أفلست » .

وعند ما يعرف ان « برايد » جاء ليقضى يوما مع مس وارين ، يقول : « ألا تراها بديعة ؟ .. اننى أعلمها الرماية ، ولكم يسرنى انها تعرفك ، فأنت عين النوع الذى ينبغى لها ان تعرفه !.. يالها من شخصية ! ما أرق شعورها ، وما امهرها !.. ثم انها .. تحبنى ! »

ويبدو القس « صامويل جاردنر » — والد فرانك — خارج الحديقة ، فيخف ابنه الى لقائه ، بينمـــا يلج « برايد » الكوخ . ويأبى القس أن يستجيب لابنه — اذ يدعوه الى الداخل — لأنه لا يعرف « مس وارين » التى تقيم فى الكوخ ، ولم يرها تتردد على الكنيسة ..

فرانك : طبعا ، فهى كبيرة العقل ، وقد حصلت على شهادة تفوق شهادتك ، فما حاجتها الى أن تستمع الى عظاتك ؟

القس : لا تكن قليل الأدب !

فرانك (يجذبه الى الحديقة) : تعال أعرفك بها .. ألم تنصحنى بأن أبحث عن زوجة اوتيت عقلا ومالا ، ما دمت لم أوت شيئا منهما ؟ !

القس : ما كنت أفكر فى المال .. وانما كنت أتحدث عن امور اسمى ، كالمركز الاجتماعى .

فرانك : لست أحفل بذلك .. ومع هذا فان لديها شهادة عالية من كمبريدج ، ويبدو انها أوتيت من المال كفايتها . ولا تنس اننى لا أسرف فى العبث كما كنت أنت فى سنى (يبدو على القس الاستهجان) لقد حدثتنى بنفسك عن ساقية الحانة فى (رد هيل) ، وعن انك عرضت مرة على امراة خمسين جنيها فى مقابل الرسائل التى كتبتها لها عندما ..

ويقاطعه القس فى جزع واستنكار .. لقد روى له يوما بعض حماقات صباه ، وهو يعظه ليرتدع عن غيه ، فاذا الابن يستغلها ليعيره بها ، وليتخذ منها تبريرا لتصرفاته هو .. ويقول القس : « لقد وضعت نفسى تحت سلطان تلك المراة حين كتبت لهـا تلك الرسائل يا بنى ، وانى لآسف لأننى وضعت نفسى تحت سلطانك اذ رويت لك قصتها .. ولقد رفضت المراة نقودى ــ وكان هذا منذ نيف وعشرين عاما ــ ولم تستخدم يوما سلاحها ضدى ، ولا سببت لى أية متاعب ! »

ويهم القس بالانصراف ، ولكن « فيفى » تخرج من الكوخ فتتعرف اليه ، وتصر على دعوته الى الداخل . واذ تراه الأم تهتف : « عجبا ، انه سام جاردنر ، وقد أصبح من رجال الكنيسة !.. اتذكرنى ؟ » .. ويتضرج وجه القس ، ويتلعثم لسانه ، فتقول : « لابد أنك تذكرنى .. ان لدى « ألبوم » كاملا لرسائلك ، عثرت عليه منذ أيام ! »

وندرك انها عين المراة التى خاض معها بعض المغامرات الغرامية فى شبابه !

الفصل الثانى

• ويهبط الليل .. وعندما ترفع ستار الفصل الثانى ، نرى « مسز وارين » تدخل يتبعها فرانك ، عائدين من نزهة على الأقدام . ويتغزل الشاب فى المرأة الناضجة ، فتحاول ان تصده على أنه لايزال « غلاما » ، ثم تقول له : « انى اعرفك اكثر مما تعرف انت نفسك ، لشبهك بأبيك ، فلا تداخلنك افكار نزقة عنى ! »

فرانك : لست أملك لها دفعا ، فان هذه الأفكار وراثية فى الأسرة !

وتقبله ثم ترتد ساخطة على نفسها . ولا يلبث الحديث ان يكشف لمسز وارين عن أن فرانك وابنتها متحابان ، فتحذره من أن يعبث بالفتاة . ويجيبها بأن الفتاة لا تحتاج الى نصف ماتحتاج اليه أمها من رعاية ..

ويقطع عليهما الحديث مقدم « كروفتس » والقس ، فيشغلون جميعا بموضوع ايواء كروفتس وبرايد فى تلك الليلة . فما كانت مسز وارين تستطيع ايواءهما خوفا على سمعتها وسمعة ابنتها . ويتطوع القس بأن يستضيفهما . ثم يذكر « فرانك » اعتزامه الزواج من فيفى :

القس (ينهض جزعا وقد احتقن وجهه) : فرانك ، فلتعلم ان هذا مستحيل . وتستطيع مسز وارين ان تخبرك بأن هذا أمر ينبغى الا تفكر فيه !

مسز وارين (بعد تفكير) : لست أدرى يا سام . اذا كانت الفتاة راغبة فى الزواج منه ، فلا حيلة فى الأمر !

القس (مبهوتا) : ولكن .. تتزوج منه ؟ ! ابنتك تتزوج من ابنى ؟ .. فكرى فى الأمر .. انه مستحيل !

كروفتس : انه مستحيل فعلا ياكيتى ، فلا تكونى حمقاء !

مسز وارين (فى استياء) : ولم لا ؟ أليست ابنتى كفءا لابنك ؟

القس : ولكنك ولا شك تعرفين الأسباب يا عزيزتى ..

مسز وارين (فى تحد) : لست أعرف ، واذا كنت تعرف شيئا ، فقله للفتى ، أو للفتاة ، أو لأهل بيعتك اذا شئت !

القس (يتهالك مغلوبا على أمره) : انك لتعرفين تمام المعرفة ان ليس بوسعى أن أذكر الأسباب لأى امرىء ، ولكن ابنى سيصدقنى اذا انبأته ..

فرانك : بلا شك يا ابت ، ولكن .. هل تأثر مسلك ابنك يوما بحججك ؟

كروفتس : ليس بوسعك أن تتزوجها ، وكفى ! .. (لمسز وارين) ما أحسبك تريدين زواج ابنتك من شاب يصغرها ، ولا حرفة له ولا مال !

ويكفى هذا المنطق لأن يغير موقف مسز وارين ، فتعارض الزواج .. وفيما يشتد الجدل ، تقبل « فيفى » مع « برايد » ، فما أن تدخل الكوخ ، حتى تسرع الى اعداد مائدة العشاء .. ولكن المائدة لا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص ، فيتطوع القس وكروفتس للبقاء مع « فيفى » ريثما يتناول الآخرون عشاءهم ، ولكنها تختار « فرانك » دونهما . ولا يملك الآخرون سوى ان ينتقلوا الى المائدة فى الحجرة المجاورة .

* * *

واذ يغلق الباب خلفهم ، يسأل فرانك الفتاة عن رأيها فى ابيه .. وينطلق يحدثها عنه ، فيذكر لها انه اضطر اضطرارا الى أن يصبح من رجال الكنيسة ، ثم أخذ يعالج نفسه ليصبح أهلا لمنصبه .

فيفى : وما رأيك فى أمى ؟

فرانك : أتريدين رأيى الحقيقى ، الصادق ؟ .. انها بديعة، ولكنها تميل الى الحرص .. وذلك الرجل كروفتس ، مارأيك فيه ؟

وتبدى فيفى استهجانها لأصحاب أمها الذين لا هم لهم فى الحياة سوى الأكل واللهو . ولا تلبث أن تعود مسز وارين مع كروفتس الى الحجرة ، وتدعو الشابين الى أن يحلامحلهما على المائدة . وتلمح مسز وارين النظرات النهمة التى يشيع كروفتس بها ابنتها ، فتروح تؤنبه .

كروفتس : اننى لم أبلغ الخمسين بعد ، وثروتى طيبة .. وليس من السهل التقاط شخص ذى لقب رفيع فى كل يوم، كما ان أى رجل آخر فى مركزى لا يمكن ان يرتضيك حماة له !

ويرمق كل منهما الآخر مليا : هى فى ازدراء واستهجان ، وهو فى خبث وابتسامة رقيعة .. ويهمان بالتشاتم ، لولا ان يفتح الباب ، فيغادر الرجل الكوخ مسرعا ، قبل أن يلمح احد اساريره . ويقبل القس فيقف الى جوار مسز وارين عند المدفأة ، ثم تدخل « فيفى » و « فرانك » ، يتبعهما « برايد » . ولا يلبث الرجال أن ينصرفوا . ويود فرانك

أن يقبل فيفى قبل رحيله ، ولكنها تقول فى سخط : « لا .. اننى أكرهك ! » . وتنصحها أمها ـ عقب خروجه ـ بأن لا تمضى فى تشجيعه .

فيفى : ياله من مسكين ! .. اننى مضطرة الى أن أتخلص منه ، ولكننى سآسف من أجله ، وان لم يكن أهلا لذلك . وكذلك لا يبدو لى ذلك الرجل كروفتس لائقا .. أليس كذلك ؟

مسز وارين (فى دهشة من عدم اكتراث ابنتها) : وماذا تعرفين عن الرجال يا ابنتى ، حتى تتحدثى عنهم بهذه اللهجة ؟ .. ستضطرين الى أن تروضى نفسك على أن ترى جورج كروفتس كثيرا ، فهو صديقى .

فيفى : ولماذا ؟ أتتوقعين أن نبقى معا ـ أنتِ وانا ـ طويلا؟ .. وهل ترين طريقتى فى الحياة تروق لك ؟ .. أشك فى ذلك .

مسز وارين : ماهذا الكلام الفارغ ؟.. أتريدين أن تستقلى بحياتك ، لأنك أصبحت طالبة علم رفيعة القدر ؟ (فى عنف) تعسا لك ولطريقتك فى الحياة ! .. لسوف تكون طريقتك فى الحياة هى ما يحلو لى انا . لقد لاحظت هذه الظواهر منذ حصلت على تلك التقديرات العالية فى الدراسة ، واذا خطر لك اننى أبهر بذلك ، فأنت على خطأ ! .. (ترفع صوتها من جديد فى غضب) أتعرفين الى من تتحدثين يا آنسة ؟

فيفى : لا .. من تكونين ؟ وماذا تكونين ؟ .. ان كل امرىء يعرف سمعتى ، ومركزى الاجتماعى ، والمهنة التى اعتزم أن اتخذها . ولكننى لا اعرف شيئا عنك ، فما هى

الحياة التى تدعيننى أن أشاطرك وسير جورج كروفتس اياها؟

مسز وارين : حذار ، والا أقدمت على ماسوف آسف — وتأسفين — عليه .

فيفى (فى حزم هادىء) : انك بحاجة الى نزهات والى لعب التنس حتى تهدأ أعصابك . انك لم تستطيعى أن تقطعى عشرين ياردة صعودا على التل ، دون ان تكفى عن اللهث . ثم ان رسغيك كتلتان من الشحم . انظرى الى رسغى !.. (تبدو الام حائرة ، ثم تبكى) أرجوك ! لاتبكى !

مسز وارين : كيف تقسين على الى هذه الدرجة ياحبيبتى؟ .. أليس لى حقوق عليك ، وأنا أمك ؟

فيفى : أوانت امى ؟ .. اذن فأين أقاربنا واهلنا ؟ أين ابى ، واين اصدقاء الأسرة ؟ .. انك تستحلين لنفسك حقوق الأم ، وتكلميننى كما لاتستطيع اية امرأة ذات سلطان فى الكلية أن تكلمنى ، وتريدين ان تملى على نهجى فى الحياة ، وان تقسرينى على معرفة وحش يرى أى امرىء انه من حثالة رجال لندن . وقبل أن اكبد نفسى عناء مقاومة حقوق كهذه ، أحب أن اعرف ما اذا كان لها وجود حقا !

مسز وارين (يشتد بها الأسى ، وتجثو على ركبتيها) : أواه ! كلا ! .. أقسم اننى امك . ماحسبك تريدين ان تنكرينى ياصغيرتى !

فيفى : ومن كان ابى ؟ .. (تصر الأم على عدم الاجابة) ان من حقى أن أعرف . ولك أن ترفضى الاجابة ، ولكنك — فى هذه الحال — لن ترينى قط بعد صباح الغد ! (ترتجف فى تقزز) كيف لى ان اطمئن الى أن عروقى لا تحتوى على

شىء من الدم الملوث .. دم ذلك الرقيع البغيض ؟ !

مسز وارين : لا ، لا .. أقسم انه ليس أباك ، ولا اى واحد ممن قابلتهم . اننى واثقة من هذا على الأقل !

فيفى (ترمقها بنظرات ثاقبة ، وتقول ببطء) : أنت واثقة من هذا ، على الأقل ! .. (مسز وارين تدفن وجهها فى راحتيها) لا تفعلى هذا يا أماه ، فأنت تعلمين انك لاتشعرين بشىء مما تتظاهرين به ! (ترفع الأم وجهها عن راحتيها ، وتنظر الى فيفى بيأس ، فتمسك الفتاة برسغها وتشدها فى حزم) انهضى وتجلدى ! .. ماراًيك فى الذهاب الى الفراش ، وقد بلغت الساعة العاشرة والنصف ؟

مسز وارين (فى مرارة) : وما جدوى الذهاب الى الفراش ؟ أتظنيننى أقوى على النوم ؟ .. اواه ، انك بلا قلب ! (تنطلق فجأة فى حمية الأم التى يغلبها سلطان الأمومة الطبيعى) لن أحتمل هذا ، لن أقبل هذا الغبن ! .. بأى حق تترفعين وتشمخين بأنفك على .. على أنا ، على التى أتاحت لك فرصة ان تصيرى الى ما أنت فيه ! .. خسئت !

فيفى (تجلس ، وتهز كتفيها ، وقد فقدت شيئا من اعتدادها) : لا تظنى اننى أشمخ عليك . لقد هاجمتنى بسلطان الأم المتعارف عليه ، فدافعت عن نفسى بالعزة المألوفة لدى أية امرأة محترمة . اننى — بصراحة — لن أرتضى شيئا من هذرك ، فاذا كففت عنه ، كففت انا عن هرائى .. سأحترم دائما حقك فى آرائك وفى أن تسلكى المسلك الذى يحلو لك فى الحياة !

مسز وارين : ما هذا الكلام ؟ ! .. اتظنيننى نشأت

نشأتك ، أختــار النهج الذى يحلو لى فى الحيــاة ؟ .. اتحسبيننى قد فعلت مافعلت لأننى أحببت هذا المسلك او رايته صوابا ، او لأننى كنت افضل عدم الذهاب الى الكلية، لو اننى استطعت ذلك وأتيحت لى الفرصة ؟

فيفى : كل امرىء أوتى شيئا من الاختيار يا اماه ، وقد لا تستطيع أفقر فتاة ان تختار بين ان تكون ملكة انجلترا أو عميدة (نيونهام) ، ولكنها تملك الخيار بين أن تجمع الخرق القديمة أو تبيع الزهور . ان الناس يلومون الظروف دائما على ماهم فيه ، ولكنى لا أومن بالظروف . فالذين يوفقون فى الحياة هم الذين يسعون وراء الظروف التى يشتهونها ، ويخلقونها اذا هم لم يعثروا عليها !

مسز وارين : ما أسهل الكلام ! اتريدين ان تعرفى ماذا كانت ظروفى ؟

* * *

وتروى الام ان أمها كانت تزعم انها أرملة ، وتملك حانوتا لبيع السمك المقلو ــ بجوار دار سك النقود ــ تكسب منه قوت نفسها وبنات أربع ، كانت بينهن شقيقتان ، هما مسز وارين واخت لهــا تدعى « اليزابيث » ، وكانتا جميلتين .. أما الأخريان فكانتا أختين من أب آخر ، دميمتين ، تشقيان بالعمل ، وتتشبثــان بالاستقــامة .. « كانتا من الصنف المحترم ، فماذا كسبتا من الاحترام ؟ » .. لقد ظلت احداهما تشتغل فى مصنع للرصاص اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، لقاء تسعة شلنات فى الأسبوع ، حتى ماتت بسم الرصاص .

اما الأخرى فقد تزوجت من عامل أنجبها ثلاثة أولاد كانت ترعاهم فى حجرة صغيرة ، تعيش مع اسرتها فيها على ثمانية عشر شلنا فى الأسبوع ، الى أن قدر لزوجها أن يدمن الشراب .

اما الشقيقتان الجميلتان فكانتا تشعران بأنهما ارقى من غيرهما من البنات ، الى أن غادرت « اليزابيث » البيت ذات ليلة ، ولم تعد قط . أما مسز وارين ، فقد اشتغلت خادما فى مطعم ، ثم ساقية فى مشرب ، تقدم الخمر وتغسل الكؤوس اربع عشرة ساعة فى اليوم ، لقاء اربعة شلنات فى الأسبوع ، مع الوجبات والمأوى ..

مسز وارين : وفى ذات ليلة باردة ، تعسة ، وقد برح بى التعب ، ولقيت عناء فى البقاء مستيقظة ، اذا أختى «ليزى» — اليزابيث — تدخل فى معطف طويل من الفرو ، وكيسها ملىء بالنقود الذهبية .. انها تقيم الآن فى (وينشيستر) ، كواحدة من اكثر سيداتها حظوة بالاحترام ! .. وانك لتذكرينني بليزى بعض الشىء ، فقد كانت عملية من الدرجة الأولى ، فراحت تدخر النقود من البداية .. أبدا لم تدع نفسها تبدو على حقيقتها ، وأبدا لم تفقد عقلها ، ولا أهملت فرصة ..

ورات « ليزى » فى جمال اختها — مسز وارين — فرصة سانحة ، فأخذتها معها ، حيث فتحتا بيتا للهوى فى (بروكسل) .

مسز وارين : أفكنت تريدينني على أن ابقى فى الظروف التى كنت فيها ، الى أن تهدمنى المهانة والذلة قبل أن ابلغ الأربعين ؟

فيفى : ولكن ، لم اخترت هـذا العمل ؟ .. ان ادخار المال وتحسين الحال ممكنان بأى عمل آخر !

مسز وارين : ولكن كيف لامراة ان تحصل من اى عمـل آخر على مال يدخر ؟ .. كان كل ما لدى ليزى ولدى انا من المواهب هو جمالنا ، ومقدرتنا على ارضـاء الرجال . افتظنين أننا كنا من الغباء بحيث ندع الغير يتجرون فى جمالنا، باستخدامنا كعاملتين فى المتاجر ، أو ساقيتين ، او خادمتين بينما فى وسعنا أن نتجر بجمالنا لحسابنا ، ونستأثر بـكل الأرباح بدلا من الأجور التى لا تقيم الاود ؟ .. كان علينـا ان نعمل ، وندخر ، ونحسب ، والا ظللنا فقيرتين كأية امراة سكيرة، مفسودة ، تحسب ان حظها يدوم الى الأبد **(بحرارة)** اننى ازدرى من هن على هذه الشاكلة، فليست لهن شخصية!

ويدور الحوار عن مهنة الأم ، فتبدى هذه ما تعانيه كى تحتمل رجلا يستخف ظله وهو يتقرب اليها .. « ولكنهـا افضل بكثير من الوان الخدمة الأخرى . صحيح انك لو مارستها لكنت حمقاء ، ولكنى كنت خليقة بأن اكون حمقاء لو اننى اتخذت مهنة اخرى ! » . فتسـألها الفتاة عما اذا كانت ترتضى لها ان تعمل خادما فى حانة ، أو عاملة فى مصنع، لو انهما كانتا فقيرتين ؟ .. فتصيح مسز وارين فى شمم : « اى نوع من الأمهات تظنينني ؟ .. كيف تحفظين كرامتك فى مثل ذلك الجوع وتلك العبودية ؟ .. وما قيمة المـراة ، بل ما قيمة الحياة بلا كرامة ؟.. اننى لست حرة وقادرة على أن أتيح لابنتى أرقى تربية ، الا لاننى اعرف كيف احترم نفسى ! »

فيفى (مبهورة) : انك لرائعـة يا أمى العزيزة ! .. انك أقوى من انجلترا بأسرها ؟ .. أصحيح انك لايساورك أتفه شك ، او .. او خجل ؟

مسز وارين : ان الخجل من هذه المهنة من حسن الخلق المرتجى من أية امرأة ، بطبيعة الحال . فعلى النسـاء أن يتظاهرن بالشعور بكثير مما لايشعرن به . ولكننى لا أطيق أن أقول شيئا بينما يعرف الناس اننى اعنى شيئا آخر ، اذ ما جدوى الرياء ؟ .. لا ، ما خجلت من مهنتى يوماخجلا حقيقيا .. بل أرى انه كان من حقى أن أفخر بتوفيقنا الى تسيير كل شيء فى احترام ، حتى لقد تزوجت احدى فتياتنا من سفير !

فيفى : لقـد غلبتنى الليلة يا أماه ، بالرغم من اننى كنت أعتزم العكس .. لنكن صديقتين !

وتعانق الأم ابنتها وكأنها تحميهـا ، وترفع بصرها الى السماء ـ بحافز غريزى ـ وكأنها تنشد ان تباركهما العناية الالهية .

الفصل الثالث

• **وترفع** ستار الفصل الثالث عن القس وابنه فى حديقة دارهما ، وقد بدا القس متوعكا ، وزاده استياء ان زوجته ذهبت الى المدينة فى الصباح الباكر ، برغم وجود ضيفهما فى الدار ، فيقول فرانك ساخرا : « لعلها راعت ذلك . ولو ان كروفتس كان ينوى البقاء هنا ، واعتزمت انت ان تجلس

معه كل ليلة الى الساعة الرابعة صباحا ، تتذكر أحداث صباك الجامح ، فليس بوسع أمي سوى أن تقوم بنفسها بشراء لوازم البيت ، وبطلب برميل من الويسكى له ولك.. ما رأيت رجل دين يشرب كما شربت أنت !.. ولكم كانت احداث ماضيك فظيعة ! » .. ويبهت القس حين يعلم أن مسز وارين وابنتها مدعوتان الى داره ، فيقول فرانك : « وكيف تجزم بأنك وانت ثمل لم تعرب عن رغبتك فى دعوتهما .. بل كيف تعرف ما بدر منك من كلام ليلة أمس؟ »

وينصرف القس متعثرا ، مضطربا ، بينما يفد «برايد» ، فينتقد « فرانك » لأنه لا يبدى لأبيه احتراما ..

فرانك : ولكن ، تصور كيف انه أخبر كروفتس بأن يدعو مسز وارين وابنتها الى هنا ؟ .. لابد أنه كان ثملا جدا ، فان أمى لا يمكن أن تطيق مسز وارين لحظة . وليس لفيفى ان تأتى الى هنا الا بعد ان ترحل امها الى المدينة .. ان سفر أمى اليوم يوحى بأنها تعرف كل شىء عن مسز وارين !

وتصل مسز وارين وابنتها مع كروفتس ، فيقف فرانك وبرايد يتأملانهم ، ولا يلبث الأول أن يقول : « الا يقشعر بدنك اذ ترى هذه الشيطانة القادرة على كل شر ، مع فيفى؟! .. عجبا ! انظر ، ان فيفى تحيط خصر العجوز بذراعها ! »

ويرافق القس ضيوفه ليريهم الكنيسة ، بينما تبقى فيفى مع فرانك ، فتحذره من أن يسخر من امها مرة أخرى ، وتسأله ان يعاملها بما يعامل به امه من احترام ، فيصيح : « ولكنها لن تقدر ذلك ! .. ثم ، ما الذى دهاك حتى تحولت بين عشية وضحاها ؟ »

فيفى : اننى اليوم أعرف أمى خيرا مما تعرفها انت .. لو انك علمت بالظروف التى كان على امى ان تكافح ضدها ..

فرانك : وما الفارق ؟ .. انك لن تستطيعى أن تحتمليها سواء كانت ثمة ظروف أو لا ظروف ، فهى عجوز شريرة ، ولو أنك أحطت خصرها بذراعك امامى مرة اخرى ، فسأطلق الرصاص على نفسى احتجاجا على منظر يثيرنى ! .. انها قد تكون من اصل طيب ، ولكنها فاسدة جدا !

فيفى : وهل تهجرها الدنيا بأسرها لهذا ؟ .. أليس لها حق فى أن تعيش ؟

فرانك : انها لن تكون منبوذة ، ولكنك يجب أن لا تعيشى معها .. انها كفيلة بأن تفسد فريقنا .. فريق ابنى الغابة ، فيفى وفرانك .. تعالى نستتر بورق الشجر .. الفتاة الصغيرة العاقلة ، والفتى الصغير الطائش .. لنعش فى دعة دائمة ، بعيدا عن حماقات والد الفتى ، وعن ريب أم الفتاة .. (يتعانقان ، ويتأرجحان فى وقفتهما فى نشوة حالمة)

فيفى (منساقة للنوبة العاطفية) : صه ! .. أن الفتاة الصغيرة تريد أن تنسى كل شىء عن أمها ..

* * *

ويظلان متعانقين فى وجد ، ويسودهما الصمت فترة . ثم لا يلبث كروفتس ان يفاجئهما على غير توقع ، فيسأل الفتاة أن تنصت اليه على حدة .

ومن ثم ينسحب فرانك الى داخل الدار . ولا يلبث كروفتس ان يبدى الرثاء لأن فرانك معدم ، ومتعطل ، بالرغم

من انه شاب لطيف . ويروح يطرى نفسه ، ووفاءه ، وثراءه، ويعرض عليها الزواج ، ولكنها ترفض رفضا جازما ، فلا ييأس . ويقول : « بوسعى أن أنبئك بما يغير رايك ، ولكنى اوثر ان اكسبك بالود الصادق الأمين . لقد كنت صديقا حميما لأمك ، وما كان بوسعها أن تدخر المال لتربيتك وتعليمك لولا نصحى .. بغض النظر عما اقرضتها فى البداية . وما من احد وقف الى جوارها مثلى ، فقد كبدنى ذلك ٤٠٫٠٠٠ جنيه ! »

فيفى (مبهوتة) : اتريد ان تقول انك كنت شريك أمى فى العمل ؟

كروفتس : أجل ، ولا ازال .. انها ليست بالتجارة التى تعتبر لائقة فى نظر الطبقة التى أنتمى اليها .. ولا بد انك تعلمين — من اشتراك أمك فيها — انها كانت تجارة أمينة ، فان أمك تؤثر ان تقطع يداها على ان تأخذ ماليس من حقها . سأحدثك عن هذه التجارة اذا شئت .. اننى لا أدرى ما اذا كنت تعرفين مدى ما يلقاه المسافر من عناء فى سبيل العثور على فندق خاص مريح (يبدو الاشمئزاز على الفتاة) وقد اوتيت امك عبقرية فى ادارة مثل هذه المشروعات .. ولدينا اثنان فى بروكسل ، وواحد فى اوستند ، وآخر فى فيينا ، واثنان فى بودابست . ومن الطبيعى ان معنا شركاء ، ولكنا صاحبا الشطر الاكبر من راس المال .. ولا غنى للمشروع عن امك كمديرة .. ولكنك لا تستطيعين ان تذكرى هذا فى مجتمع عام ، فما ان تلفظي كلمة فندق ، حتي يقول كل امرىء انه

بيت عام .. بيت للهوى . وما أظنك تحبين أن يقال هذا عن أمك ، وهذا هو السر فى تكتمنا الأمر !

فيفى : وهذه التجارة .. أتدعونى الى الانضمام اليكما فيها ؟

كروفتس : لا، فلست أحب لزوجتى أن تحمل هم التجارة، ولن تشتركى فيها بأكثر مما تشتركين الآن .. اى انك عشت دائما عليها ، فهى التى درت نفقات تعليمك وكسائك .

واذ ذاك تفاجئه فيفى بأن أمها قد صارحتها بحقيقة هذه التجارة ، فيغتاظ ويسخط ، بينما تقول : « احسبك تفهم ان معرفتنا تنتهى بمبارحتنا هذا المكان غدا ؟ .. لقد كانت أمى امرأة فقيرة ، لا تملك أن تختار سوى مافعلت . اما انت فكنت سيدا راقيا ، غنيا ، فعل الشىء ذاته ليكسب من ورائه .. فما أنت سوى وغد وضيع ! »

كروفتس : اننى أتقاضى فائدة عن اموالى لا اكثر .. وما اظنك ترفضين معرفة ابن عم أمى « دوق بلجرافيا » لأن بعض الايجارات التى يحصلها تأتى من موارد غير شريفة ، أو أسقف كنتربورى لأن بعض مستأجرى أملاك الكنيسة من باعة الخمور والآثمين .. اذا اصررت على ان تختارى معارفك على اسس من مبادىء الأخلاق ، فمن الخير أن ترحلى عن هذه البلاد !

وتهم الفتاة بمبارحة الحديقة بعد أن تصب عليه احتقارها، فيحاول ان يعترض طريقها ، واذ ذاك تهز جرس باب الحديقة فيبادر اليها فرانك وهو يحمل بندقية ، ويمعن بدوره فى تحقير كروفتس ..

كروفتس : اذن ، فلأقل لكما شيئا قبل أن أغادركما .. شيئا يهمكما لأن كلا منكما مشغوف بالآخر .. اسمح لى أن اقدم لك يا سيد فرانك أختك غير الشقيقة ، كبرى بنات القس المبجل صمويل جاردنر : (ويشير الى فيفى)

وينصرف ، فيقف الشابان مبهوتين فترة ، ثم يصوب فرانك البندقية نحو ظهر كروفتس ، ولكن « فيفى » تجذب فوهتها نحو صدرها ، وتقول : « اطلق النار الآن ! » . ويجذب البندقية فتقع على الارض ، ويقول : « هونى عنك .. اذا كان هذا الوغد قد قال الحقيقة لأول مرة فى حياته ، فلن يزيدنا هذا الا ايمانا بأننا ابنا الغابة المتحابان ! » .. ولكن الفتاة تصرخ فى اشمئزاز ، وتنصرف ، فيهرع خلفها .

الفصل الرابع

• وترفع ستار الفصل الرابع عن « فيفى » وقد أصبحت شريكة لزميلة لها فى مكتب للاعمال المالية بلندن . ونراها فى المكتب بعد ظهر احد أيام السبت ، وحيدة وقد انصرف سواها للاستمتاع بسهرة نهاية الاسبوع . ولا يلبث أن يفد « فرانك » فى ثياب أنيقة ، فيحاول أن يغريها بالخروج معه ، ويعرض عليها حفنة من النقود قائلا انه كسبها من المقامرة ، فتصيح فيه : « انها ادنأ من السرقة !.. لا ، لن أخرج معك ! »

وتشعل سيجارة ، فينظر اليها فى عجب وحيرة ، ولا يلبث أن يقول : « اسمعى يا فيفى ، لقد افترقنا فى ذلك اليوم ونحن فى سوء فهم كامل . أتذكرين ماقاله كروفتس ؟ ..

كان المفروض أن يؤدى ما كشفه الى تغير فى طبيعة شعور كل منا نحو الآخر ، اذ انه جعلنا أخوين . فهل كان لك أخ يوما ما ؟ » .. وتقول ، وهى تطفىء سيجارتها : « كلا ! »

فرانك : اذن فأنت لا تعرفين كيف يكون شعور الأخت التى أوتيت أخا ؟ .. اما انا فلى شقيقات عديدات ، فالشعور الأخوى مألوف لدى ، واؤكد لك أن شعورى نحوك لايشبهه فى شىء اطلاقا .. ان شقيقاتى لن يلبثن أن يتفرقن فى سبيلهن ، وأنا لن البث ان اذهب فى طريقى .. وهذا هو امر الأخ والأخت . اما انت ، فلست احتمل ان اقضى اسبوعا دون ان أراك ، فالذى بيننا ليس شعورا بين أخ والاخت .. انه عين ماكنا عليه قبل أن يكشف لنا كروفتس السر بساعة . وقصارى القول يا عزيزتى فيفى ، ان الذى بيننا هو حلم الغرام الشاب !

فيفى (بلهجة لاذعة) : عين الشعور الذى جعل أباك يجثو عند قدمى أمى .. أليس كذلك ؟

ويؤكد لها ان أباه قد انكر ماروا‌ه كروفتس انكارا تاما .

فيفى : وهل يغير هذا من الأمر .. اعنى فى تصورك ، أو خيالك ، أو ضميرك ؟

فرانك (محملقا فيها) : لقد ظننت ان علاقتنا قد تبدلت فى تصورك وضميرك ــ كما تقولين ــ فى اللحظة التى انطلقت فيها تلك الكلمات من فم ذلك الوغد !

فيفى : لا ، ليس الأمر كذلك ، فاننى لم أصدقه .. ليتنى استطيع ، فانى أرى ان الاخوة خير علاقة تلائمنا .. انها العلاقة الوحيدة التى أحفل بها !.. هذا رأيى الذى اصر عليه !

ويوحى هذا الى فرانك بأن فيفى متعلقة برجل آخر ، فيهم بأن يثور ويغضب ، لولا ان يأتى « برايد » ليودع « فيفى » وقد تأهب للسفر الى ايطاليا .. ويروح يغرى الفتاة بأن تسرى عن نفسها ، وأن تستمتع بجمال الحياة والعواطف ، وأن ترافقه الى مدن أوربا . ويمضى قائلا : « ان روحك خليقة بأن تطير محلقة لمجرد مرأى اوستند .. ولسوف يفتنك مرح بروكسل وجوها الناضح بالسعادة ! »

وتقفز فيفى من مكانها محنقة ، عند ذكر المدينتين اللتين قال « كروفتس » أن لأمها بيوتا للهوى فيهما ! ويدهش « برايد » ، ويتساءل وهو ينقل بصره بينها وبين فرانك : « ماذا فى الامر ؟ » . ويحاول فرانك أن يعالج الموقف بالفكاهة والسخرية ، ولكن « فيفى » تصرخ فيه أن يسكت ، ثم تقول: « أحسبكما تظنان اننى اصبت بنوبة عصبية . لا ، ولكن هناك موضوعين أحب ان تطرحاهما عن ذهنيكما . احدهما (موجهة الكلام لفرانك) هو حلم الغرام الشاب ، فى اى شكل من أشكاله او لون من الوانه .. والثانى (موجهة الكلام لبرايد) هو جمال الحياة والعواطف ، لاسيما فى (اوستند) ، والمرح الذى تتسم به (بروكسل) . واذا كنتما تريدان أن نظل ثلاثتنا أصدقاء ، فلا بد من ان تعاملانى كامرأة ذات عمل ، وقد نذرت ان تظل بلا زواج دائما ، وغير راغبة فى الجمال والعواطف » !

فرانك : سأظل انا الآخر اعزب الى ان تغيرى رايك .. حدثنا فى موضوع آخر يا برايد !

برايد : يخيل الى انه ليس فى الحياة موضوع أحسن الكلام

فيه . ان رسالة الفن هى الانجيل الوحيد الذى أستطيع ان أبشر به ، ولكنى اعرف ان مس وارين من أشد المؤمنات بانجيل العمل والسعى . وليس بوسعنا أن نتكلم فى هذا دون ان نجرح شعورك يافرانك ، طالما انت مصر على ان لا تعمل ولا تسعى .

فيفى : اذا لم يكن فى الحياة غير هذين الانجيلين يا مستر برايد ، فجدير بنا أن نقتل نفسينا ، لأن جوهر الاثنين واحد ..

فرانك (يتأملها متفحصا) : ان فيك اليوم مسحة من الشاعرية كانت تنقصك من قبل يافيفى !

برايد (محتجا) : الا ترى انك تثقل عليها قليلا يا عزيزى فرانك ؟

فيفى (فى قسوة على نفسها) : كلا ، فان قسوته خير لى ، اذ انها تمنعنى من أن أنساق للعواطف .. (فى شبه هياج عصبى) لا تشفق على يا فرانك ! لقد كنت عاطفية للحظة واحدة فى حياتى .. تحت ضوء القمر . أما الآن ..

* * *

واذ يفطن فرانك الى انها تعنى اللحظة العاطفية التى ضمتهما قبل أن يدخل كروفتس بينهما ويسمم هناءهما بما ذكره عن مسز وارين ، يهتف بها محذرا من أن تعود للذكرى !

فيفى : اتظن ان مستر برايد لايعرف كل شىء عن امى ؟ .. (لبرايد) كان خيرا لو انك صارحتنى بالحقيقة فى ذلك الصباح ..

برايد : انك رجعية فى آرائك ، متعنتة .. واميل الى أن أقول الك – كفنان – ان اوثق الروابط الانسانية تتجاوز كل قانون وتعلو عليه .. ومع اننى اعرف ان امك « امراة غير متزوجة » ، الا ان هذا لا يقلل من احترامى لها ، بل انه يزيده !

ويهتف فرانك اعجابا ، فتحملق « فيفى » فيه ، ثم فى برايد ..

فيفى : اذن فكلاكما لا تعرفان شيئا ، اذ أن ما يخطر لكما برىء ساذج اذا قيس بالحقيقة ..

برايد (ينهض فى استنكار وجزع) : آمل ان لا يكون كذلك .. هل تعتقدين ان من حقك ان تخبرينا اذا كان الأمر أسوأ مما نتصور ؟

فيفى : أعتقد اننى لو اوتيت الشجاعة لقضيت بقية عمرى فى اطلاع كل امرىء عليه ، وبثه فى نفوسهم ، حتى يتغلغل فيها ويشعروا جميعا بنصيبهم من بشاعته ، كما اشعر بنصيبى .. لست ازدرى شيئا قدر ذلك العرف الخبيث الذى يتستر على هذه الأمور بتحريم ذكرها على المراة . ومع ذلك فليس بوسعى أن اخبركما .. ان الكلمتين النابيتين اللتين تصفان أمى لا تزالان ترنان فى اذنى ، وتناضلان لسانى ، ولكنى أعجز عن لفظهما .. ان مافيهما من خزى جد فظيع بالنسبة لى !

تدفن وجهها فى راحتيها ، بينما ينقل كل من الرجلين بصره بينها وبين صاحبه فى حيرة ودهشة . ولا تلبث أن تتناول ورقة وتكتب :

« رأس مال مدفوع : لا يقل عن ٤٠٫٠٠٠ جنيه ، باسم

السير جورج كروفتس، صاحب القسط الأكبر من الأسهم .
منازل فى بروكسل ، وأوستند ، وفيينا ، وبودابست .
مديرة الادارة : مسز وارين »

فيفى : ولا ينبغى أن ننسى مؤهلاتها .. تلكما الكلمتان (تكتب الكلمتين ، ثم تدفع الورقة اليهما) أواه ! لا ، لاتقرآهما! لا تقرآهما !

وتنتزع الورقة فتمزقها اربا ، ثم تعتمد رأسها بيديها ، وتخفى وجهها على سطح المكتب الذى تجلس اليه . ويكون فرانك قد قرأ ماكتبت ، فيتناول من جيبه بطاقة يكتب فيها الكلمتين ، ويدفع بها الى برايد فى صمت ، فيقرأ هذا الكلمتين فى عجلة ، ثم يخفى البطاقة فى جيبه . وفى صوت خافت حنون ، يؤكدان للفتاة ان ودهما واحترامهما لها لم يقلا قيد شعرة ، ويقول برايد : « انك أروع شجاعة قابلتها ! » . وتتجلد فيفى فتقاوم خجلها ، وتنهض متحاملة على نفسها ، وتسير نحو باب حجرة مجاورة ، ولكنها تقف على مقربة من برايد ..

فيفى : سأحتاج الى أضعاف هذه الشجاعة عندما أقول لامى اننا قد بلغنا مفترق الطرق ، ولا بد لنا من أن نفترق.. سأدخل الغرفة الاخرى لاسوى مظهرى !

* * *

وما ان تغيب عنهما ، حتى يقول « فرانك » انه لم يعد راغبا فى الزواج من « فيفى » . ويلومه « برايد » فى استنكار ، فيصارحه الشاب بأنه لايبنى قراره على اعتبارات خلقية ،

وانما على انه لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يمس نقود امها ، فهو لا يملك مالا ، وسيكون على « فيفى » أن تعوله اذا هو تزوج منها ./.

ويجلس حيث كانت فيفى تجلس ، ويشرع فى كتابة رسالة وداع لها ، يضعها على فوهة المحبرة ، حتى تجدها الفتاة اذا جلست الى مكتبها .

وتفد مسز وارين فى تلك الأثناء ، فما ان يراها الرجلان حتى يتمنيا ان تنصرف ، اشفاقا عليها من لقاء «فيفى» ..

مسز وارين : اتريداننى على أن انصرف ؟ .. وعلى ان لا اراها اطلاقا بعد ذلك ؟ **(تبكى)**

وقبل أن تبت مسز وارين فى الأمر ، تعود فيفى الى الحجرة ، فتبادرها الأم بالتحية وهى مضطربة متوجسة ، واذ ذاك ترجو الفتاة صاحبيها أن يخليا لها الجو كى تتحدث الى امها ، وتودعهما . وما ان ينصرفا حتى تجلس « فيفى » الى مكتبها فى وقار وجد .

مسز وارين : ما الذى جعلك ترحلين فجاة ، على هذا النحو ، يافيفى ؟ .. وما الذى فعلته بجورج المسكين ، حتى يخافك الى هذا الحد ؟ .. وما معنى هذا يافيفى ؟

وتخرج من حقيبتها خطابا من المصرف ، مشيرة اليه ، فتذكر لها « فيفى » انها ترد اليها المبلغ الشهرى الذى كانت تمدها به ، لانها تعتزم ان تعيش من كسبها الخاص . ثم تنهض قائلة : « وداعا ! » .. وتحملق فيها امها مشدوهة ..

فيفي : اجل ، وداعا .. لا داعي لمواقف لا جدوى منها ،

فأنت تعرفين أن سير جورج كروفتس انبأنى بكل شىء عن مهنتك !

وتثور الام سخطا على الرجل ، ثم تقول : « ولكننى شرحت لك الظروف .. »

فيفى : أجل .. شرحت لى كيف بدأت ، ولكنك لم تذكرى لى انك لا تزالين ماضية فى العمل .

مسز وارين : أتعرفين مدى ثرائى يا فيفى ؟ .. انك اصغر من ان تدركى معنى هذا الثراء .. معناه ثوب جديد فى كل يوم ، معناه مسارح ومراقص فى كل ليلة ، معناه صفوة رجال الطبقة الراقية فى أوربا عند قدميك .. معناه بيت جميل وخدم كثيرون ، معناه أشهى أكل وشرب ، معناه كل ما تشتهى نفسك وكل ما يخطر لك على بال . فماذا تفعلين هنا ؟ .. تشقين ، وتكدحين ، وتعملين من الصباح الباكر الى ساعة متأخرة من الليل ، لقاء الكفاف وأرخص الثياب !

فيفى : لابد أنك قلت كل هذا لكثير من النساء يا أماه ، حتى انك تحفظينه عن ظهر قلب !

مسز وارين (فى يأس) : اصغى الى وافهمى يا فيفى !.. لقد أخطأت فى تعليمك ، فأنت لاتعرفين الدنيا على حقيقتها . انك تطوحين بكل فرصك وحظك دون مقابل . انك تخالين الناس كما يظهرون لك ، فهكذا علمتك المدرسة ، ولكن كل هذا مجرد تظاهر .. اتريدين ان تتبينى - بعد أن تبلغى الاربعين - انك قد اضعت حظك ، ام تحبين ان تحظى به فى

الوقت المناسب ، من الأم التى تحبك أصدق الحب ؟ .. ان اعظم الناس ، وأمهرهم ، واعلاهم مكانة ، يفعلون ما افعل ، ويفكرون كما أفكر .. اننى لا ابغى ضرا لك ، ولكن راسك ملىء بآراء جاهلة ، اذ ما الذى يعرفه أولئك الذين علموك عن الحياة ، وعن الناس الذين على شاكلتى ؟ !

فيفى : اننى أعرف فلسفة كروفتس فى الحياة يا أماه ، فلقد سمعتها منه فى ذلك اليوم الذى كنا فيه لدى آل جاردنر .. وانى لاعجب بما أوتيه من عقل جعله يستمتع بما يحلو له ، فيكسب لنفسه مالا وفيرا ، بدلا من أن يعيش لمجرد الصيد والقنص والتسكع فى الحياة كما يفعل أبناء طبقته . كذلك أعرف ان التمسك بالاخلاق ليس سوى تظاهر ، وانني لو اخذت مالك وعشت عمرى أنفقه فى بذخ ، لصرت كأغبى النساء اللاتى لا قيمة لهن .. ولكنى لا أريد أن أكون بلا قيمة ! .. ولكن ، لماذا لم تتركى المهنة بعد اذ أثريت ؟

مسز وارين : ليس هذا بالأمر اليسير ، اذ لابد لى من العمل ، ومن الانفعالات ، والا جننت ! .. وأى عمل لى فى الحياة سوى ذلك الذى لم اخلق لغيره . اننى لا أوذى أحدا به ، فضلا عن انه يدر على مالا ، وانا احب جمع المال !

فيفى : وانا مثل أمى ، أحب العمل ، ولا بد لى من ان اجمع من المال اكثر مما انفق .. ولكن عملى غير عملك ، وطريقى غير طريقك ، فلا بد لنا من ان نفترق .. فلا نلتقى ابدا ! (تغرورق عينا الأم) آه ، لن تبدل من موقفى بضع دمعات رخيصة !

مسز وارين (محنقـــة) : اتســمين دموع الأم دموعا رخيصة ؟

فيفى : انها لا تكلفك شيئا ، بينما تطلبين منى أن أضحى بهدوئى وطمأنينتى طيلة العمر فى مقابلها .. ثم ، اى ميول مشتركة بيننا تجعلنا نسعد اذا عشنا معا ؟

مسز وارين : انني أمك ، ومن حقى أن أسعد بابنتى .. منـذا الذى يرعانى اذا كبرت ؟ .. كم من فتيـات كن لى بمثابة البنات ، وكن يبكين حين يفارقننى ، ولكننى فرطت فيهن جميعا ، لأننى كنت أعقد آمالى كلها عليك ! .. ليس من حقك ان ترفضى اداء واجبك كابنة .

فيفى (مشمئزة من الصورة التى أوحى بهـا كلام أمها للمواخير التى تعيش فيها) : واجبى كابنة ! .. انت تنشدين ابنة ، وفرانك ينشد زوجة . ولكننى لا أريد أما ، ولا أبتغى زوجا. اننى لم اشفق على فرانك ولا على نفسى حين اقصيته. فهل تحسبيننى أشفق عليك ؟

مسز وارين (فى غيظ) : اننى أعرف اى صنف انت .. لا ترحمين نفسك ولا ترحمين سواك .. أتعرفين ماذا كنت أفعل بك لو انك عدت طفلة ؟ .. كنت أربيك كما ينبغى ان تربى ابنة لى ، لا كمـا انت الآن ، مليئة بالكبرياء ، والآراء المتزمتة .. كنت أربيك فى بيتى !

فيفى : تقصدين واحدا من بيوتك !

مسز وارين (صارخة) : اسمعوا قولها ! .. انها تبصق على مشيب أمها ! .. يا للعقوق ! يا للعقوق ! يا للعقوق !.. لطالما رغبت فى أن اكون امرأة صالحة، فجربت العمل الشريف،

واذا بى اساق كالجوارى ، حتى لعنت اليوم الذى سمعت فيه بالعمل الشريف ! .. ولقد كنت أما صالحة ، فاذا إبنتي تنقلب على وكأن بى جربا ! .. اننى منذ اللحظة لن افعل سوى الشر ، والشر وحده ، وسأغتنى من ورائه !

فيفى : أجل ، من الخير أن تختارى طريقك وتمضى فيه . واو اننى كنت مكانك ، لجاز ان افعل عين ما فعلت . ولكنى ما كنت لأسمح لنفسى أن أعيش حياة غير التى اومن بها . الا تريننى على صواب ؟

وتنكس الأم رأسها ، وتسير الى الباب ، فتسألها فيفى : « الا تصافحينني ؟ » .. وترمقها الأم فى حدة ، وكأنها تهم بأن تنقض عليها ، ثم تقول : « لا ، شكرا ، وداعا ! » . وتخرج وهى تصفق الباب خلفها . واذ ذاك يخف التوتر الذى كان يسيطر على عضلات وجه « فيفى » ، ويشرق محياها ؛ وتنطلق منها نهنهة هى خليط من البكاء والضحك والارتياح . ثم تذهب الى مكتبها فتجلس اليه ، وتزيح المصباح جانبا ، وتشد اليها كومة من الورق . وفيما تهم بأن تغمس قلمها فى المداد ، يقع بصرها على رسالة فرانك ، فتفضها فى غير اكتراث ، وتقرأها بسرعة ، ثم تطلق ضحكة مقتضبة ، تشى بمعنى غريب ، وتقول : « .. ووداعا يا فرانك ! »

وتمزق الرسالة وتلقى بأشلائها الى سلة المهملات فى غير تردد . ثم تقبل على عملها فى اصرار ، فسرعان ما تستغرق فيه وتنسى كل ما عداه !

نحن فى ركب الأدب

ظهر فى المكتبة العربية

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب الذى نتناول فيه بالعرض بين الحين والآخر كتابا من الانتاج « العربى » الحديث ، قدمت لك فى اعداد سابقة :

أبو نواس : العقاد

الهوى والشباب : بشارة الخورى

هنا أو الطوفان : خالد محمد خالد

حوار العباقرة : محمد بديع الشريف

هؤلاء علمونى : سلامة موسى

محمد عبده : عثمان أمين

شهداء فى قبرص : ابراهيم موسى

سيكلوجية الضمير : محمد كامل النحاس

فن كتابة المسرحية : ايجرى

واليوم أقدم لك فى هذا الباب كتابا حديثا صدر أخيرا فى موضوع كثر فيه الجدل فى العصر الحاضر ، وهو موقف العلم من وجود « الله » ، الذى تقرأه فى الصفحات التالية .

تلخيص : فرج جبران

هل لهذا الكون من اله ؟

سؤال تتطلع اليه العقول وتتوق الى معرفة الاجابة عنه ، يوجهه الطفل الصغير الى ابيه ، ويضطرب به قلب الشاب الحائر ، فيؤرق نومه وقد لا يجد من يقدم له الجواب الشافى ، ويجول أحيانا فى عقول ضعفاء الايمان فيستعيذون بالله من وسوسة الشيطان ، ويشغل بال كل انسان خصوصا فى فترات الضعف والمرض والحرمان .

انه سؤال يردده الناس منذ القدم ، وانقسموا حوله شيعا ، تبعا لما هداهم اليه تفكيرهم : فمنهم من عبد الكون والشمس والقمر ، ومنهم من عبد الاصنام ، ومنهم من عبد الله الواحد القهار ، كما ان منهم من أنكر والحد .. الخ

وسوف تتطلع العقول لمعرفة الاجابة عن هذا السؤال فى المستقبل ، ما دام هنالك كون يسير وعقل يفكر وانسان يسعى وينظر . ويلوح ان التطلع الى هذا الأمر جزء من طبيعتنا ، لا نستطيع أن ننكره أو نتخلى عنه او نتغافل عن ندائه . ولموقف الانسان من خالق هذا الكون وعقيدته فيه أثر بالغ فى تفكيره ؛ وحياته ، وفلسفته ، ونظرته الى الأمور ، وحالته النفسية ، وحاضره ومستقبله ، بل فى كيانه ووجوده !

ولكن ، رغم ما لهذا السؤال من اهمية ، فان قلة من الناس تحصل على الاجابة الشافية عنه .. حتى رجال الدين ، تجد اكثرهم اذا وجه اليهم هذا السؤال يخاطبون صاحبه بآيات من الكتب السماوية ، واحاديث من كلام الرسل ، ويدورون به فى حلقة مفرغة ، مقللين من قيمة ما تكشفت عنه العلوم .. أو تراهم ينكرون عليه استخدام الأساليب العلمية ، فيزداد حيرة فى امره وينصرف على مضض عن التفكير فى الموضوع !

والواقع ان ما يريده الفرد المثقف يجب أن يكون متمشيا

مع اساليب ونتائج العلوم التى توصلت الى أسرار الذرة وغزت الفضاء وكشفت عن سنن الكون واسراره وظواهره ، ولا تزال تكشف ما يحير العقول . ان السائل يريد جوابا يقوم على استخدام المنطق السليم ويدعوه الى الايمان بربه ايمانا يقوم على الاقتناع لا على مجرد التسليم

وفى كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » (١) ترجم الدكتور « الدمرداش عبد المجيد سرحان » ماكتبه ثلاثون عالما من المتخصصين فى مختلف فروع العلم، تقدم المشرف على تحريره الى كل منهم بهذا السؤال : « هل تؤمن بوجود الله ؟ وكيف دلتك بحوثك ودراساتك عليه ؟ »

القرآن يشتمل على حقائق مادية

وقد بين الكتاب فوق هذا ــ كما قال الدكتور الدمرداش سرحان فى مقدمته ــ مزايا الايمان بالله والاطمئنان اليه والالتجاء الى رحابه ، وان بعض العلماء ذهبوا الى ان بالانسان حاجة بيولوجية تدفعه الى الايمان بالله . ليس ذلك فحسب بل ان الكتاب يبين ايضا كيف ان الايمان بالله هو أصل الفضائل الاجتماعية والأخلاقية والانسانية جميعا ..

وكان تعليق الدكتور محمد جمال الدين الفندى ــ استاذ الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة ــ على الكتاب بانه كان لزاما ان

---

(١) صدر هذا الكتاب حديثا فى ١٦٨ صفحة من القطع الكبير ، عن « **دار احياء الكتب العربية** » ــ عيسى البابى الحلبى وشركاه ــ بالاشتراك مع « **مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر** » بالقاهرة .

يضم فصلا عن آخر كتاب مقدس نزل، حين اكتملت الانسانية ونضجت عقول البشر للبحث والتفكير والتأمل ، وأورد فى تعليقه أن القرآن الكريم خاطب العقول فى مواضع عديدة منها :

« ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون »

« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين »

« ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

وجاء فى هذا التعليق أن القرآن يصف بعض حقائق الوجود المادية بل ويتنبأ بما سيجىء منها فى المستقبل بدقة علمية وسلامة لفظية ، وأورد على سبيل المثال قوله تعالى :

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله » . ويثبت علم الارصاد أن الاصل فى اثارة السحب ونزول المطر منها هو ارسال الرياح لتتجمع فى صعيد واحد.

هل نشأ العالم بمحض المصادفة ؟

وقد أجاب الدكتور « فرانك اللين » عالم الطبيعة البيولوجية عن نشأة العالم وهل هى وليدة المصادفة أو القصد ، بأن هنالك أربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال : فاما أن يكون الكون مجرد وهم وخيال ، واما ان يكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، واما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية ، واما أن يكون له خالق . ثم ناقش الدكتور فرانك احتمالات الاجابات الأربع وانتهى منها الى أن الرأى الأول لا يحتاج الى مناقشة أو جدال ، والثانى لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ، والثالث يشترك مع الرابع الذى ينادى بوجود خالق لهذا

الكون ، وذلك فى عنصر واحد وهو الأزلية . واذن فنحن اما ان ننسب صفة الازلية الى عالم ميت ، واما أن ننسبها الى اله حى يخلق . وأن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وانها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الاجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة . وان الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والارض الغنية بأنواع الحياة كلها دليل واضح على أن اصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو اذن حدث من الأحداث . ومعنى ذلك انه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه .

اختبار شامل

أما الدكتور « روبرت موريس بيدج » — عالم الطبيعة — فيقول أنه لاختبار صحة فرض معين لابد من شروط :

١ — ظروف معينة .
٢ — تحقيق نتائج تتفق مع سلامة هذا الفرض .
٣ — التسليم بصحة هذا الفرض حتى يثبت عكس ذلك .

أما الشرطان الاولان فلا يدور حولهما جدل . وأما الشرط الثالث فانه كثيرا ما يهمل عند اختبار صحة الفروض رغم أهميته البالغة .

وضرب « بيدج » لذلك مثلا بأن الاعتقاد كان شائعا بأن السفن يجب أن تصنع من مواد أقل كثافة من الماء حتى تطفو . فلما ظهر اقتراح صنعها من الحديد ، انكر أحد الحدادين هذا الفرض ، واكد ان السفينة المصنوعة من

الحديد لا يمكن أن تطفو . ودلل على ذلك بأن ألقى حدوة فرس فى الماء فغاصت . ولو انه سلم - ولو مؤقتا - بصحة الفرض ، لألقى فى الماء اناء أو حوضا من الحديد بدلا من الحدوة .. .

وانتهى الدكتور « بيدج » الى انه اذا أراد الانسان ان يتثبت من صحة المعلومات الغيبية التى ينبئه بها شخص آخر ، فلا بد من أن يشترك فى التجربة ، وأن يتهيأ لها، حتى يستطيع أن يحكم عليها .. وكذلك الحال فيما يتعلق بالايمان بالله ، فلا بد أن يدرس الانسان اولا نوع العلاقات التى يمكن ان تقوم بينه وبين خالقه ، وما ينبغى أن تكون عليه هذه العلاقات ، ثم يتجه بقلبه وكيانه نحو تحقيق شروط قيامها. واذ ذاك تتبدى له الحقيقة كاملة ، ويغمر الايمان قلبه ، ويؤثر فى حياته ، ولا يدع فى نفسه مجالا للشك .

كل ما فى الكون يدل على وجود الله

وبنى الدكتور « ماريت ستانلى كونجدن » جوابه على الاستدلال .. فلقد رأى منذ سنوات شجرة ورد مزدهرة ، على جانب طريق منعزلة ، بجوار انقاض كوخ صغير .. فاستبعد ان تكون قد نمت فى هذه البقعة بمحض المصادفة ، ولابد ان انسانا زرعها بجوار الكوخ قبل تهدمه .

والاستدلال القائم على هذا النوع من المنطق او التفكير ، هو الأسلوب الوحيد الذى قام عليه علم الفلك . فنحن لا نستطيع أن نخضع المجرات والنجوم والسيارات فى أفلاكها لحكم التجربة . ولكن هذا لم يحل بيننا وبين دراستها ،

والاستفادة من القوانين والنظريات التى وصلنا اليها فى دراسات اخرى مشابهة ، فى ميادين العلوم .. وكذلك كان الشأن بالنسبة للذرة غير المنظورة ووظائفها ، فقد أيدت القنبلة الذرية الاولى ما سبق الوصول اليه من نظريات لم تقم على تفتيت الذرة فعلا .

ونستطيع ان نستخدم نفس المنطق الاستدلالى للتأكد من وجود الله ومعرفة صفاته .. فكل ما فى الكون يشهد على وجوده ، ويدل على قدرته وعظمته . وعند ما نقوم – نحن العلماء – بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار صنع الله وعظمته .. ونحن نحتاج فى محاولتنا وصف الخالق الى مصطلحات ومعان تختلف عن تلك التى نستخدمها فى وصف الماديات .. وكثيرا ما طلبت الى تلاميذى ان يصفوا لى شيئا غير مادى – مثل «الفكرة» – فيبينوا تركيبها الكيمياوى وطولها ووزنها وشكلها .. وكان عجزهم دليلا على اننا لا بد من أن نستخدم مصطلحات – لوصف ماهو غير مادى – تخالف ما نستخدمه فى دائرة العلوم .

والعلوم حقائق مختبرة ، ولكنها – مع ذلك – تتأثر بخيال الانسان ومدى بعده عن الدقة فى ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته .. فهى تبدأ بقضايا او بدهيات مسلم بصحتها برغم عدم استنادها الى حقيقة فيزيائية ملموسة . وعلى ذلك فالعلوم تقوم على اساس فلسفى ، والخبرة الشخصية فى العلوم – كما هى فى الفلسفة والدين – هى المحك النهائى

والملاذ الأخير الذى تختبر به جميع الحقائق فى العلوم كما فى الفلسفة والدين .

وتعالج العلوم كثيرا من الظواهر الطبيعية التى تحدث فى هذا الكون . ومع انها لا تؤيد تمامه وجود عالم غير مادى ، الا انها لا تستطيع ان تنفى – بصورة قاطعة – وجود مثل هذا العالم وراء العالم المادى . وبطريقة الاستدلال والقياس، يستطيع الانسان ان يصل الى انه لابد من وجود قوة مسيطرة مدبرة تدير هذا الكون ، وتعيننا على فهم مافيه من عجائب كدورة الماء فى الطبيعة ، ودورة ثانى أكسيد الكربون فيها ، وعمليات التكاثر ، وعمليات التمثيل الضوئى ذات الأهمية البالغة فى اختزان الطاقة الشمسية ، وفى حياة الكائنات .

فنحن لا نستطيع ان نصل الى الله بالوسائل العلمية المادية وحدها ، ولكنا نرى آياته فى انفسنا وفى كل ذرة من ذرات الوجود . وليست العلوم سوى دراسة خلق الله وآثار قدرته .

وجود الخالق نتيجة حتمية

أما الدكتور « جون كليفلاند كوثران » – من علماء الكيمياء والرياضة – فيردد قول لورد كيلفن : « اذا فكرت تفكيرا عميقا ، فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد فى وجود الله » .

لقد اثبتت جميع الدراسات العلمية ان سلوك اى جزء من اجزاء المادة – مهما صغر او تضاءل حجمه – لا يمكن ان يكون سلوكا عشوائيا ، بل انه – على النقيض – يخضع لقوانين طبيعية محددة . وفى كثير من الأحيان ، يتم

اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة طويلة من الزمن .. ومنذ مائة سنة تقريبا ، رتب العالم الروسى « ماندليف » العناصر الكيميائية تبعا لتزايد أوزانها الذرية ترتيبا دوريا ، ووجد ان العناصر التى تقع فى قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة ، ويكون لها خواص متشابهة . فهل يمكن ارجاع ذلك الى مجرد المصادفة ؟

وهل يمكن ان نفسر على اساس المصادفة ما توصل اليه العلماء السابقون من تفاعل ذرات عنصر معين مع ذرات عنصر معين آخر ، وعدم تفاعلها مع ذرات عنصر معين ثالث ؟ .. كلا ، لقد فسروه على أن هنالك نوعا من الميل او التجاذب بين ذرات العنصر الأول وذرات العنصر الثانى ، وعدم وجود هذا التجاذب بين ذرات العنصر الأول وذرات العنصر الثالث.

وأثبت اكتشاف تركيب الذرة ان التفاعلات الكيميائية التى نشاهدها ، والخواص التى نلاحظها ، ترجع الى وجود قوانين خاصة ، وليست محض مصادفة عمياء .. وعلى ذلك ، فان الكون المادى يسوده النظام وليس الفوضى ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط .

فهل يتصور عاقل ان المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ، او انها هى التى أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضتها على نفسها ؟ .. لاشك أن الجواب سيكون سلبيا . وبالتالى ، لابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى .. والنتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق

حكيما عليما قادرا ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد ان يكون هذا الخالق دائم الوجود ، تتجلى آياته فى كل مكان .

فلننظر الى الحقائق دون ميل أو تحيز

وكذلك بين الدكتور « ادوارد اوتر كيل » – اخصائى علم الحيوان والحشرات – أن البحث العلمى اضاف فى السنوات الأخيرة ، ادلة جديدة على وجود الله .. ولا شك انالكشوف العلمية الحديثة ، التى تشير الى ضرورة وجود اله لهذا الكون ، قد لعبت دورا كبيرا فى ازدياد موجة العودة الى الله والى رحاب الدين ، فى هذه الأيام .

ان بعض الناس يظنون أن هذا الكون ازلى . ولكن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأى. فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة الىالأجسام الباردة .. ومعنى ذلك ان الكون يتجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، فينضب فيها معين الطاقة ، ولا تعود هناك عمليات كيميائية أو طبيعية ، بل لن يكون هناك اثر للحياة نفسها فى هذا الكون .

وما دام الكون غير أزلى ، فلا بد ان له بداية .. وبهذا توصلت العلوم – دون قصد – الى اثبات وجود الله ، لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ، بل لابد له من مبدىء ، او خالق، هو الله .. ولو ان جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من ادلة على وجود الخالق – بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز ، الذى ينظرون به الى نتائج بحوثهم – ولو انهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر

بعواطفهم وانفعالاتهم ، لسلموا دون شك بوجود الله . فهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقائق .

كل ذرة فى الكون تشهد بوجود الله

ويضيف الدكتور « جورج ايرل دافيز » – عالم الطبيعة – ان التطور الذى تكشف عنه العلوم فى هذا الكون ، هو ذاته شاهد على وجود الله . فمن جزيئات بسيطة ليس لها صورة معينة ، وليس بينها فراغ ، نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة ، لها صورة معينة ، واعمار محددة ، تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل عن الاحاطة بمدى ابداعها . وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون – بل كل مادون الذرة مما لايدركه حس ولا يتصور صغره عقل – قوانينها وسننها وما ينبغى لها أن تقوم به او تخضع له .. ليس هذا فحسب ، فمن تلك الجزيئات البسيطة نشأت كذلك أنواع متطورة من الأحياء ، بل كائنات تستطيع أن تفكر وتبتكر وتخلق اشياء جميلة ، بل هى تبحث عن اسرار الحياة والوجود .. فكل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله .

أما الدكتور « توماس دافيز باركس » – أستاذ الكيمياء – فيرى ان الماء يروى لنا قصة الخالق . فان وزنه الجزيئى (١٨) يجعل الانسان يتوقع أن يكون الماء غازيا فى درجة الحرارة المعتادة وتحت الضغط العادى ، ولذلك فان وجوده على الحالة السائلة فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الانسان

يقف ويفكر .. ثم ان الماء يغطى نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض، وبذلك يؤثر تأثيرا بالغا على الجو السائد ودرجة الحرارة . ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على الأرض تغيرات فى درجة الحرارة تؤدى الى حدوث الكوارث .

والماء هو المادة الوحيدة المعروفة التى تقل كثافتها عندما تتجمد . ولهذه الخاصية أهمية كبرى بالنسبة للحياة ، فبسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد ، بدلا من أن يغوص الى قاع المحيطات ويكون كتلة صلبة لا سبيل الى اخراجها واذابتها . ثم ان الجليد الذى يطفو على سطح البحر يكون طبقة عازلة تحفظ الماء الذى تحتها فى درجة حرارة فوق درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية حية .

وللماء خواص طريفة كثيرة درسها العلماء . وبرغم ما يبذلونه من جهود لمعرفة كيف تحدث هذه الظواهر ، علينا أن نتساءل أيضا : لماذا تحدث هذه الظواهر ؟

وليس الماء هو المادة العجيبة الوحيدة ، فهناك ما لا يحصى من المواد ذات الخواص المذهلة ، التى لا تستطيع عقولنا سوى أن تقف مشدوهة أمامها .. واعتقد ان تفسير هذه الظواهر بنسبتها الى قدرة اله حكيم خبير ، يعد تفسيرا مرضيا ومقنعا .

ومن طرق التلقيح التى يتكاثر بها النبات ، يستمد الدكتور « جون وليام كلونس » — عالم الوراثة — دليلا على وجود الله .

ونستطيع أن نلمح أدلة اخرى فى الحالات العديدة التى حاول الانسان فيها ان يتدخل فى نظام الطبيعة وتوازنها .

من ذلك ان المهاجرين الأولين الى استراليا ، لم يجدوا فى البلاد من الحيوانات الثديية المشيمية سوى نوع من الكلاب البرية . فلما تاقت نفوسهم الى رياضة صيد الارانب ، استورد احدهم نحو اثنى عشر زوجا منها ، واطلقها هناك ، فاذا بها تتكاثر بسرعة مذهلة ، وتحدث اضرارا جسيمة بمراعى البلاد . وقد اخفقت محاولاتهم العديدة فى الحد من تكاثر الارانب ، والقضاء عليها .

من خلق العقل الذى خلق « العقل الالكترونى » ؟

وتحدث الدكتور « رسل تشارلز آرتست » ـ اخصائى علم الأحياء والنبات ـ عن الخبرة العجيبة التى تهيئها دراسة الخلايا الحية ، وخلص من ذلك الى القول بأن نظريات عديدة وضعت لتفسير نشأة الحياة من عالم الجمادات ، ولكن الواقع الذى يجب أن نسلم به ، هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول ـ علميا ـ على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بالفشل الذريع .. وان كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ، وان ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض ، تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق .

أما « كلود هاثاواى » ـ المستشار الهندسى ـ فيقول :

« لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ الكترونى يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية « الشد فى اتجاهين » : ولقد حققنا هدفنا .. »

وقد خرج « هاثاواى » من المشكلات التى واجهته، بأنه : «اذا كان هـذا الجهاز يحتاج الى تصميم ، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيمى البيولوجى ــ الذى هو جسمى، والذى ليس بدوره الا ذرة بسـيطة من ذرات هـذا الكون اللانهائى فى اتساعه وابداعه ــ الى مبدع يبدعه ؟ »

وليست هذه سوى نماذج قليلة من الأمثلة والادلة الطريفة التى وردت فى الكتاب ..

بنك مصر

درج بنك مصر منذ نشأته على مسايرة النهضات التقدمية. فلما تفجرت النفوس وانبعثت الثورة وانبثق نور الشعلة المقدسة تجاوبت كل هذه الظواهر مع النشأة الطبيعية لبنك مصر .. ومع الأهداف العليا التى رمى إليها فى حرب الاستعمار الاقتصادى فأنشأ شركاته التى كانت جيوشا حارب بها الاستغلال الأجنبى فى شتى الدوائر والروح الدخيل فى مختلف صوره

ظهر حديثا ..

عزيزى القارىء :

يزداد نشاط الحركة الثقافية وحركة النشر فى اقليمى الجمهورية العربية المتحدة ، وفى لبنان الشقيق ، بشكل ملحوظ .. ففى كل شهر ، يتلقى ((كتابى)) مئات من الكتب التى تصدر تباعا فى القاهرة ودمشق وبيروت.. حتى صار لزاما عليه أن يفرد من كل عدد صفحات يخصصها للتعريف بهذه الكتب ، والتعليق عليها ..

واليوم تنتقل هذه الفكرة الى حيز التنفيذ، فاقدم لك هذا الباب الجديد ، الذى أرجو أن يكون بمثابة دليل يرشد قراء ((كتابى)) الى فحوى كل كتاب يظهر فى أسواق الكتب العربيـة ، ويلخص لهـم موضوعه وأهدافه ..

ولسوف تستلفت انتباهك - فى المجموعة التى اخترناها لك ، فى هذه المرة - بعض ظواهر لها دلالتها فى الاتجاهات الثقافية فى العالم العربى ومنها ، ازدياد اهتمام دور النشر بالكتب التى تدور حـول الاطفال .. وهو اهتمام ان دل على شىء ، فانمـا يدل على تطور فى الوعى لدى الآباء والمربين ، يحملهم على الاستزادة من كل ما يعينهم على تنشئة الاطفال النشأة التى تجعل منهم خير مواطنين فى عالمنـا العربى الناهض ..

وهناك ظاهرة ثانية ، تتمثل فى ازدياد الاهتمام بالكتـب العلمية ، الامر الذى يحدد اتجاها رئيسيا من الاتجاهات الثقافية فى نهضتنـا الحاضرة ..

وظاهرة ثالثة ، يرجع الفضل فيها الى ما انمته القومية العربية فى نفوسنا من عزة تدفعنا الى أن ننقل ما كتبه علماء الغرب عن بلادنا وحضاراتنا وامجادنا ، الى جانب ما يستخلصه المؤلفون العـرب لانفسهم فى هذا المجال ..

وهناك ظواهر اخرى ، نرجئها الى المجموعة التى نختارها لك فى العدد القادم من ((كتابى)) .. كنشاط وزارتى التربية والتعليم ،

والثقافة والارشاد ، فى المساهمة فى احياء التراث القديم ، وفى نـس أمهات الكتب الاجنبية الى العربية .. وكاقبـال دور النشر على اصدار التمثيليات المترجمة .. الخ .

فلأدعك الآن تستعرض ما اخترته لك ، فى هذه المرة ..

الباب المفتوح (٣٥٣ صفحة)
تأليف : الدكتورة لطيفة الزيات
الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

هذه القصة من أحسن الاعمال الجادة فى أدب النساء عندنا، بل هى من أكثر القصص التى تحدثت عن الفتـاة العصرية شجاعة وصدقا .. فهى تدخل الى أعمـاقها تنـاقش كل خواطرها وانفعـالاتها الدقيقة ومثلها العليا ، وتكشف عن الجمال والكبرياء التى تتمتع بها .. وهى تعالج تلك الفترة الحرجة التى تمر بها الفتاة ، من سن الحادية عشرة الى سن العشرين وما بعدها ، محاولة أن تفهم المجتمع الذى تعايشه وأن تثور على ماكشفت ثقافتها الجديدة وحريتها الجديدة عنه من أوضاع يجب ان تهدم .

وقد اختارت المؤلفة بطلة القصة ـ ليلى ـ لتكون نموذجا لجيل فترة الانتقال هـذه ـ انتقال هـذا الجيل من طور الطفولة الى مرحلة الشباب ، خلال انتقال آخر للمجتمع كله من أسلوب حياة طالت ألفته له الى أسلوب حياة آخر جديد تفرضه عليه حضارة العصر ـ وأحاطت البطلة فى الوقت ذاته بهـالة من لداتها ليكن أمثـلة لما يتسم به جيلهن من حيرة وتوجس ، بل وتهور . فمنهن التى حزمت أمرها وتقـدمت الى الامام ، ولكن فى وثبة واسعة أفقدتها اتزانها ومنهن التى قنعت بأن تقطع نصف الشوط ، ومنهن الشابة التى تعيش بعقلية جدتها ، ومنهن التى خسرت حياتها فى المعركة التى نشبت بين طموحها وتزمت البيئة ..

والسنوات العشر التى تعرضها القصة من حياة بطلتها كانت بالنسبة لمصر أيضا فترة احتدام وعنف لا يقل عن عنف واحتدام فترة الانتقال التى تمر بها الفتاة من الطفولة الى الشباب . ولقد سارت أحداث تلك السنين من حياة البطلة - بل حياة كل أبطالها وبطلاتها - محاذية لاحداث تلك الفترة من تاريخ مصر ، وامتزجت بها فى كثير من الأحيان . فأحداث القصة تبدأ سنة ١٩٤٦ عندما بدأت مقاومة الشعب للاستعمار تتخذ شكلا ايجابيا ، الى أن وقعت الهزيمة بحريق القاهرة .. ثم الانتصار النهائى بقيام الثورة فى ٢٣ يوليو .. حتى وقع العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ فاشترك أبطال القصة جميعا فى الدفاع عن وطنهم حتى توج كفاحهم بالنصر ، فتوج حب ليلى وحسين بالزواج ..

شجاعة السعادة (٢٥٠ صفحة)

تاليف : دوروثى طومسون - ترجمة : تماضر توفيق
الناشر : مؤسسة الخانجى بالقاهرة ، ومكتبة اليقظة العربية بدمشق ، بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

« دوروثى طومسون » من أشهر الكتاب الأمريكيين العاملين فى ميدان الصحافة . وتمتاز بجرأتها فى الاعراب عن آرائها ، وفى الدفاع عن الحرية والعدالة الاجتماعية . وقد بلغت فى مهنتها شأوا لم تصل اليه صحفية أمريكية أخرى ، حتى لقد أطلق عليها مواطنوها لقب « ضمير أمريكا » . ولعلها لم تستحق قط هذا اللقب بقدر ما استحقته عند ما حاولت ايقاظ الضمير الأمريكى ازاء قضايا الشرق الاوسط . وليس هنا مجال الافاضة فى الحديث عن جماعة « أصدقاء الشرق الاوسط » التى كانت تحت رياستها حتى وقت قريب ، وما قامت به هذه الجماعة من جهود فى سبيل تنوير الرأى العام

الامريكى وتبصيره بالحقائق كهدف أساسى ، واسماع صوت البلاد العربية للرأى العام الامريكى بطريق غير مباشر .

وكتابها هذا فى صميمه ليس الا مختارات مما نشرته خلال عشرين عاما من حياتها الصحفية الممتازة ، وقد ساعدها على جمعها القراء أنفسهم ، فقد اختارت المقالات التى تجاوب معها القراء أكثر من غيرها ، فرتبتها ترتيبا موضوعيا ..

وفى بعض فصول هذا الكتاب آراء تخالف قطعا آراء القارىء العربى ، كما هى الحال فى مقالها « سياسة خارجية للامريكيين جميعا » مثلا . فهى فى هذا المقال تتفق معنا فى استنكار الحكم الاجنبى وان لم تخل آراؤها من مخالفة لنا فى مدى تقديرها للنفع الذى يقال ان الحكم الاجنبى قد حققه للبلاد المحكومة . ولا عجب أن يكون الناقد المحلل البعيد عن مسرح الاحداث ونطاقها ، أكثر اتجاها الى الموازنة ورصد الحسنات والسيئات بمنطق القاضى وليس بمنطق الضحية ، ولكن العبرة ليست بتصيد عمل من هنا وآخر من هناك للاشادة ببعض نواحى هذا الحكم الاجنبى ، وانما العبرة هى بواقع أن الحكم الاجنبى بطبيعة الاشياء يعمل لحساب الحاكم لا المحكوم ، فاذا أصاب المحكوم بعض الخير فان هذا يأتى عرضا لا قصدا ..

حرية الفكر فى الاسلام (١٢٨ صفحة)
تاليف : عبد المتعال الصعيدى
الناشر : مؤسسة المطبوعات الحديثة

تشمل الحرية الفكرية كلا من الحريات الثلاث : العلمية ، والسياسية ، والدينية .. وللانسان الحق فى الحريات الثلاث ، على شريطة ان يوائم بينها ، لتعيش كل منها بجانب

الاخرى ، مطلقة السلطان ، موفورة الحرية ، ولتتعاون على اسعاد الانسان فى دنياه وأخراه ..

ولما كان الانسان فى طبيعته الميل الى الخير والميل الى الشر ، لذلك فلا بد أن يكون هناك ما يساعد جانب الميل الى الخير .. وهذا ما يوفره الجزاء الدنيوى والجزاء الاخروى معا .. وأولهما لا ينال من الحرية الفكرية اذا سار فى طريقه المعقول ، بعيدا عن الاعنات والتعسف .. فى حين ان ثانيهما ليس سوى مجرد ترغيب فى الثواب وتحذير من العقاب ، دون ما الزام ولا اكراه بعقاب دنيوى ..

ويمضى المؤلف مبينا كيف ان الاسلام لا يغلق باب الاجتهاد على الناس ، بل يفتحه أمامهم على مصراعيه ، فلا اثم على المجتهد ولو أخطأ .. بل ان من اجتهد واصاب فله اجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله اجر واحد .. ثم يشرح المؤلف موقف الاسلام من الحرية العلمية .. فهو دين قائم على تفكر العقل، لان فى الكون نظاما عجيبا يدل على وجود خالق له ، فيكون الايمان به عن اقتناع بوجود هذا النظام العجيب فى الكون ، ولذلك فان الاسلام يعطى العقل حرية كاملة فى هذا التفكير ، ليصل فيه الى ما يصل فى حرية واختيار ..

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى موقف الاسلام من الحرية السياسة ، فقد قام الحكم الاسلامى على أساس ان الامة مصدر السلطات ، وان أمورها شورى بين أهلها ، وللفرد حق الاعتراض على الحكم ..

أما الحرية الدينية ، فقد كفلها الاسلام بأن اشترط الحرية فى صحة اسلام أى امرىء ، وحض على التسامح ومنع من الاضطهاد الدينى ..

واذ كفل الاسلام الحريات الدينية والعلمية والسياسية ونسق بينها ، دعم أسس الحرية الفكرية عامة .

والكتاب هو سادس كتب سلسلة « مع الاسلام » ..

المسيح قادم .. ؟

تأليف : دكتور على عبد الجليل راضى
الناشر : لجنة الثقافة الروحية

اختلفت الآراء فى اللحظة والكيفية التى انتهى فيها أمر المسيح ليلة ان جاءه الجنود ليقبضوا عليه .. فيقول المسيحيون انه صلب ثم قام بالجسد ، ويقول اليهود انه صلب ولم يقم ، ويقول المسلمون انه لم يصلب ولكنه قام.. وانه انما « شبه لهم » ..

ولهذا الموضوع الشائك تعرض الدكتور راضى ، لا كعالم مسلم ، وانما كمتبحر فى البحوث الروحية .. وبأقوال من الاناجيل ، وآيات من القرآن ، راح يستعين على ايضاح النظريات الروحية التى تفسر رأى الروحيين .. وهو رأى يقول بأن القيامة انما تكون بالروح فقط ولا يمكن أن تكون بالجسد .. وان عيسى — اذا كان قد مات قبل أو أثناء القبض عليه ، ميتة طبيعية طبعا — فيمكن لروحه أن يتجسد ثانية ويظهر بهيئته المعروفة .. وذلك عمل فى ميسور كثير من الارواح ، فكيف بروح عيسى العظيم الوساطة ، الذى كثيرا ما انتقل الى مختلف العوالم طول حياته .. وهذا مايرجحه الروحيون .

أما اذا سلمنا بأن عيسى لم يمت الا بعد القبض عليه ، فيمكننا أن نجد فى الروحية تفسيرا كافيا للوصول الى نفس النتيجة ، وهى وجود « شبيه » له .. فلكل انسان جسد اثيرى وجسد أرضى . وفى أثناء الصلاة الطويلة التى اندمج فيها عيسى قبل وصول الجنود ، انفصل جسده الاثيرى عن جسده الارضى .. وهذا الجسد الاثيرى هو الذى حاولوا القبض عليه . واذا كان عيسى قد صنع — بأمر ربه — من الطين كهيئة الطير فنفخ فيها فصارت طيرا ، فقد كان من السهل عليه أن يشكل جسد « يهوذا » — وقد كان وسيطا

لينا طريا — على هيئته .. عقابا للخائن . ويدلل المؤلف على ذلك بأن الاناجيل كلها تتكلم عن الحواريين بعد ذلك على انهم احد عشر ، وليسوا اثنى عشر .

ويذهب المؤلف الى أن الجسد الارضى للمسيح قد تحلل فى التو ، فى تلك الليلة الخالدة ، وان القيامة انما تكون بالروح .. وهو يدلل بمقتبسات من الكتب السماوية ، ومن مؤلفات كبار الباحثين على آرائه بهذا الصدد .

والكتاب — بوجه عام — طريف فى مادته وموضوعه .. أما مدى صحة الآراء التى ينادى بها ، فأمر نتركه للعلماء .. وان كان التشكك لاينال من الطرافة أو من طابع الابتكار فى الموضوع .

القافلة ، قصة الشرق الاوسط (٥٣٩ صفحة)

تاليف : الدكتور كارلتون كون — ترجمة : برهان دجانى
الناشر : دار الثقافة ببيروت ، بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

هذا الكتاب محاولة فذة لدراسة الشرق الاوسط ، باعتباره وحدة واحدة قائمة بذاتها . فقد سبق أن درست بعض بلدان الشرق الأوسط ، أو بعض حقب من تاريخه ، أو بعض معالمه الطبيعية او الاجتماعية أو الاقتصادية ، ولكن لم يسبق أن وحدت هذه الدراسات كلها فى نسق واحد يجمع بينها جمعا مترابطا ، وينظر اليها من زاوية كونها مفصحة — بأوجه متعددة — عن نفس القوى الحضارية .

وقد بدأ المؤلف بأن حدد الشرق الاوسط جغرافيا كما يفهم اليوم ، فقال انه البلاد التى يشكل المسلمون جمهرة سكانها من مراكش حتى أفغانستان . وقد حاول أن يظهر أن هذه المنطقة منطقة ثقافية قائمة بذاتها ، ذات مركز ومحيط . وأن المدنية التى تميز هذه المنطقة ، فى أشكال

اقليمية متعددة ، ليست وحدة واحدة فحسب ، ولا هى متوسطة بين مدنيتى الشرق والغرب فحسب ، بل هى من نواح عديده أم لهاتين المدنيتين . ولم تكن مجرد وسيط ، بل كانت أيضا مدنية مبدعة خلاقة .

والمدنية التى يصفها هذا الكتاب هى مدنية بلاد الشرق الاوسط قبل أن تتأثر بالثورة الصناعية .. ويرى الاستاذ « كون » أن أهم ما يميز حضارة الشرق الاوسط ، انها تتكون من نظام « فسيفسائى » متناسق منسجم ، لكل قطعة فيه دور تؤديه ووظيفة تقوم بها . وهذا النظام الفسيفسائى ذاته يقوم على أبعاد متعددة : فهناك التنوع القومى فى انقسام المنطقة الى عرب وايرانيين وأكراد وأتراك وبربر وغيرهم ، ثم هناك التنوع الوظيفى فى انقسام المنطقة الى بدو وفلاحين وسكان حواضر وسكان مدن ، ثم هناك التنوع السياسى فى انقسامهم الى مناطق محكومة وأخرى تأبى الخضوع للسلطة . ويتكرر هذا النمط الفسيفسائى ذاته فى كل جزء من أجزاء هذه التقسيمات كلها .

•

القومية العربية والشعر المعاصر (١٣٤ صفحة)

تاليف : ماهر حسن فهمى

الناشر : مؤسسة المطبوعات الحديثة

قصة الوحدة العربية قصة طويلة ، يملأ الشعر كثيرا من صفحاتها .. وهذا الكتاب ــ وهو السادس فى سلسلة « مع العرب » ، التى تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة ــ يتناول الفصول التى سجلتها القومية العربية فى التاريخ الحديث والشعر ، والتى راودت فكرتها ذهن المؤلف مذ كان يشغل منصب الملحق الثقافى الاول فى الجامعة العربية .

ويبدأ المؤلف بتعريف أسس القومية عامة ، مطبقا اياها

على الدول العربيــة ، متناولا تاريخ الجامعة الاســلامية ، والثورة العربية والتيــارات التى أحاطت بها ، والجــامعة العــربية ، والقضية الفلسطينية ، والــكفاح الجــزائرى ، والعدوان الثــلاثى على مصر .. موردا فى خــلال العرض التاريخى أقوال الشعراء والدور الذى قام به الشعر ..

شعراء عباسيون (١٩٢ صفحة)

تأليف : الدكتور غوستاف فون غروبناوم ـ وترجمة : الدكتور محمــد يوسف نجم

الناشر : دار مكتبة الحياة ببيروت ، بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

ولد مؤلف هذا الكتاب فى فيينا سنة ١٩٠٩ ، وحصل على دكتوراه الفلسفة فى الدراسات العربية والفارسية والتركية من جامعتها سنة ١٩٣١ ، وقضى عمره أستاذا للدراســات الاسلامية واللغة العربية فى بعض المعــاهد والجامعــات فى الولايات المتحدة الامريكية ، وهو الآن يعمل رئيســا لقسم دراسات الشرق الادنى فى جامعة كاليفورنيا .

وكتابه هذا دراسات عن ثلاثة شعراء عباسيين، هم «مطيع ابن اياس » و « سلم الخاسر » و« أبو الشمقمق »، ترجم لهم فيها وجمع شــعرهم كممثلين لطور الانتقال فى الشــعر العباسى .

وقد بذل الأستاذ « غرونباوم » جهدا موفقا فى جمع شعر هؤلاء الشعراء ، الا أن المصادر التى رجع اليها خذلته فى أحيان كثيرة .. خذلته فى الضبط آونة ، وفى الرواية آونة أخرى ، وفى الاستقصــاء آونة ثالثة ، ولذا اضــطر الدكتور نجم (الاستاذ المشارك للادب العربى فى الجامعة الامريكية ببيروت) حين أقدم على ترجمة هذه الدراســات ، الى اعادة تحقيق الشعر الحاقه بها ، لاتصاله بها اتصالا وثيقا .

النظم السياسية

تأليف : موريس ديفرجيه ـ وترجمة : أحمد حسيب عباس
الناشر : مؤسسة كامل مهدى للطباعة والنشر والتوزيع

انه أحد الكتب التى تصدر فى سلسلة « الالف كتاب »، باشراف وزارة التربية والتعليم بالاقليم الجنوبى . وقدراجع ترجمته الدكتور ضياء الدين صالح .

ويذهب الكاتب الى أن التفرقة بين الحاكمين والمحكومين لم تكن موجودة فى فجر الانسانية ، ولم يكن يمارس السلطان أفراد معينون ، بل كان مشاعا بين الجماعة التى يخضع كل فرد منها لمبادىء عامة تعتبر مفروضة من المجتمع بأسره . فكان الناس جميعا محكومين دون أن يكون عليهم حاكم ، وانما سخر بعض أفراد الجماعة ـ فيما بعد ـ تلك المبادىء لمصلحتهم وحكموا بمقتضاها ..

والشكل الذى تتخذه التفرقة بين الحاكمين والمحكومين فى الأمة ، يطلق عليه اصطلاح « النظام السياسى » .. وهذا فى اضيق معانيه ينصرف الى مجرد التكوين الحكومى

ومن هنا يمضى المؤلف فى الحديث عن النظرية العامة للنظم السياسية ، وتطورات النظم السياسية .. فى لغة سلسة ، واضحة ، تقربها الى أذهان القراء عامة ، فى وقت أصبحت فيها الثقافة السياسية من أهم العناصر ليستكمل أى مواطن وعيه القومى والانسانى .

كيف نفهم الاطفال ؟

الناشر : مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

هذه سلسلة من الكتب التى تهم الآباء والمربين ، صدر منها ٣٣ كتابا ، باشراف الدكتور عبد العزيز القوصى ، نتناول اثنين منها فيما يلى :

كيف نعاون الاخوة والاخوات على التفاهم (١٠٧ صفحة)
تأليف : هيلين بونر ـ وترجمة : الدكتور سعد دياب

لكل أسرة طابعها الخاص بها ، وشخصيتها التى تختلف بها عن شخصية أية أسرة اخرى . فهناك الاسرة التى يكون الوالد فيها ضعيفا والوالدة قوية والاولاد يتبعون الام ، و... هناك الاسرة الخالية من كل نظام .. وفى بعض الاسرات نجد الا... ولاد متفاهمين متعاونين تسير حياتهم فى سهولة ويسر دون أن تخلو من الحيوية ، كما ان هناك أسرات يسودها التفاهم ظاهريا فحسب . . ومن الاسرات ما تنتشر الانانية بين أفرادها كلهم ، ومنها ما تسيطر الانانية فيها على الطفل الأول أو الاخير ، أو الذكر الوحيد .. وهكذا .

وفى هذا الخضم من أنواع الاسرات وأنواع العلاقات ، يهمنا ان نعرف انجع السبل التى يتم بها تفاهم الاولاد بعضهم مع البعض الآخر .. وهذا ما يعنى به الكتاب ، اذ يرشد الى الاساليب الواجب اتباعها مع الاطفال فى هذه المواقف ، حتى يشبوا على حسن العلاقات وعلى التفاهم ..

كيف نساعد الاطفال على تنمية قيمهم الخلقية (١٠١ صفحة)
تأليف : أشلى مونتاجيو ـ وترجمة : سامى على الجمال

تحددت مفاهيم الخلق والسلوك الطيب وتبلورت فى عبارات ملأت الكتب ، وعرفها الناس ، ودرسوها ، وأصبحت واضحة على مر العصور والاجيال .

ونحن نسعى بالطبع الى أعلى مراحل النمو الخلقى ، فكيف يمكن التدرج بالطفل ـ فى البيت والمدرسة ـ حتى نصل معه الى أعلى هذه المراحل ؟ .. ان التلقين لا يفيد ، والوعظ والارشاد لا يجديان ، وانما الذى يجدى هو المثال والممارسة ، وان يقرن هذان بالتحليل والبلورة ، فى جو تسوده المحبة .

مطبوعات كتابى

تحفة العدد القادم من كتابى

اروع ما كتب القصصى الفرنسى الكبير

((مرسيل بريفو))

قصة الجريمة الكبرى التى يرتكبها بعض الاهل فى تربية الفتيات ، اعتقادا منهم بأن الفتاة لم تخلق الا للزواج .. فيغفلون تسليحها بالقسط الكافى من التعليم والاخلاق ، ويتركونها تتخبط فى الحياة ، حتى تقع فريسة لذئب بشرى ، فتصبح مصدر عذاب مقيم لنفسها ، ولاهلها ، وللزوج البرىء الذى يخدع فيها..

قصة الزوجة التى يكتشف زوجها انها خانته قبل الزواج .. هل يصفح عنها لانها كانت - بدورها - ضحية ، وهل يغفر لها لان الضعف كان نتيجة طبيعتها كأنثى ، ونتيجة التربية التى نشأت عليها .. أو أن الصفح يكون له جبنا ونذالة ، والغفران يكون استهانة بالكرامة والشرف ؟ ..

قصة الزوج الذى يغلبه الحب فيسعى الى الصفح .. وقصة الاب الذى يستنكر من زوج ابنته لينه ، ويحاول أن يصده عن العفو عنها ، ويقاطعه فى ازدراء ، حتى ... ؟ !

قصة ... قصة كل جيل ، وكل مجتمع ..

القصة التى يجب أن يقرأها الآباء والازواج ، والشباب

ترقب ظهورها ، واوص باعة الصحف من الآن

كيف نتفاهم مع الوالدين
الكتاب رقم ٣٥ من سلسلة دراسات سيكولوجية
ترجمة: العقيد سيد عبد الحميد مرسى
إشراف وتقديم: الدكتور عبد العزيز القوصى
الثمن: ٨ قروش
الناشر: مكتبة النهضة المصرية
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
لبنان فى التاريخ
الثمن: ١٢٠ قرشا
الطفل الذى لا ينمو أبدا
مساعدة الطفل على إجادة الكلام
الثمن: ٨ قروش
مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر
تقدم
هذه الروائع الثقافية
عشر قصص أمريكية
قصة الدورة الدموية
الثمن: ٢٣ قرشا
الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية
كتب لابد أن تقرأ